حروف حرة

مجموعة قصصية متنوعة

لكُتّاب الفئة العمرية الكبرى

الطبعة الأولى - ٢٠٢٠

إصدار: مبادرة ض

DADD-INITIATIVE e.V

حروف حرة

Free letters (DADD competition)

DADD-INITIATIVE e.V, first edition, August 2020

Internal book ID: DADD/2020/SS02

The book includes the stories selected by the competent jury within the "Free letters" short story competition for the age group (18 years and above), organized by DADD-INITIATIVE e.V in 2020.

DADD-INITIATIVE e.V – NonProfit Organization – Germany

Court Registration Key: 7276

Email: board@dadd-initiative.org

Web: www.dadd-initiative.org

Phone number: +49 160 95470403

This book is licensed under attribution-noncommercial-noderivatives 4.0 International (CC BY-NC-ND 4.0) [1]. You are free to:

Share: copy and redistribute the material in any medium or format

The licensor cannot revoke these freedoms as long as these terms are followed:

- Attribution, you must give appropriate credit, provide a link to the license, and indicate if changes were made. You may do so in any reasonable manner, but not in any way that suggests the licensor endorses you or your use.
- NonCommercial: you may not use the material for commercial purposes.
- NoDerivatives, if you remix, transform, or build upon the material; you may not distribute the modified material.
- No additional restrictions — you may not apply legal terms or technological measures that legally restrict others from doing anything the license permits.

حروف حرة (مسابقة ض)

مبادرة ض، الطبعة الأول، أغسطس 2020م

مُعرِّف الكتاب الداخلي: DADD/2020/SS02

يضم الكتاب القصص المختارة من لجنة التحكيم المختصة ضمن مسابقة حروف حرة لكتابة القصة القصيرة عن الفئة العمرية الكبرى (18 عاما فما فوق)، التي نظمتها مبادرة ض التطوعية في عام 2020.

مبادرة ض – مؤسسة تطوعية غير ربحية – ألمانيا

رقم التسجيل الوطني: 7276

البريد الإلكتروني: board@dadd-initiative.org

الموقع الإلكتروني (بالعربية): www.dadd-initiative.org

الهاتف: 94570403 160 49+

هذا الكتاب مُرخص تحت رخصة: نَسب المُصنَّف - غير تجاري - منع الاشتقاق 4.0 دولي (CC BY-NC-ND 4.0). [1] لك مطلق الحرية في:

المشاركة، أي نسخ وتوزيع ونقل العمل لأي وسط أو شكل.

لا يمكن للمرخِّص إلغاء هذه الصلاحيات طالما اتبعت شروط الرخصة التالية:

- نَسب المُصنَّف أي نَسب العمل لصاحبه بطريقة مناسبة، وتوفير رابط للترخيص، وبيان إذا ما قد أُجريت أي تعديلات على العمل. يمكنك القيام بهذا بأي طريقة مناسبة، ولكن على ألا يتم ذلك بطريقة توحي بأن المؤلف أو المرخِّص مؤيد لك أو لعملك.
- غير تجاري: أي أنه لا يمكنك استخدام هذا العمل للأغراض التجارية أو الربحية.
- منع الاشتقاق — إذا قمت التعديل، التحويل، أو البناء على هذا العمل، لا يمكنك توزيع المواد المعدلة.
- منع القيود الإضافية — يجب عليك ألا تطبق أي شروط قانونية أو تدابير تكنولوجية تقيد الآخرين من ممارسة الصلاحيات التي تسمح بها رخصة هذا الكتاب.

Link to the license/رابط الرخصة

[1]: https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/

ملاحظة: صورة الإطار لعناوين القصص تتبع لموقع pngimage.net ، مع أحقية الاستخدام بشرط ذكر المصدر.

Note: the image used for titling the sections belongs to pngimage.net, with usage release by attribution

شكر وتقدير

لم يكن لهذا الكتاب أن يصدر لولا الجهود التطوعية الخالصة من فئات وأفراد رائعين، ضحوا بأوقاتهم الثمينة خدمةً للغة العربية ومحتواها الأدبي.

للجنة التحكيم، ممثلةً بكل من المتطوعين الأفاضل، نقدم خالص الشكر والتقدير للعمل الدؤوب على تقييم القصص المشاركة وفق معايير علمية متعارف ومتفق عليها.

أعضاء لجنة التحكيم

د. رشيدة رقي: أستاذة جامعية بجامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء وحاصلة على الدكتوراه من جامعة كلود برنار بفرنسا في مختبر الطب التجريبي ومؤسسة وكاتبة عامة لشبكة القراءة بالمغرب.

د. حنين معالي: حاصلة على شهادة الدكتوراه من الجامعة الأردنية بتقدير ممتاز في تخصص اللغة العربية وآدابها بشعبة النقد والأدب الحديث وحائزة على جائزة سيبويه العالمية للدراسات العليا من الجمعية الثقافية للغة العربية.

عباد ديرانية: كاتب ومترجم ومُنسق ويكيميديا في بلاد الشام، ويعمل في مجال الترجمة المتخصصة بالأدب واللغات والمعرفة الحرّة وإداري سابق على موسوعة ويكيبيديا العربية الحرة.

ولاء شحادة: حاصلة على شهادة الماجستير في اللغة العربية تخصص الأدب والنقد في جامعة القدس المفتوحة في غزة فلسطين، ولها مقالات نقدية منشورة، وكتاب نقدي بعنوان «بنية المفارقة في النص الروائي الفلسطيني المعاصر».

أمنية عادل: ناقدة سينمائية ومدونة مصرية. لها إصدارات عربية فنية وكتابية عديدة. مساهمة في مجال الرواية والقصة القصيرة ولها قصة منشورة في معرض القاهرة الدولي لعام 2020 بعنوان «اغتيال عاطفي».

هند عادل: مترجمة لروايات حرة لصالح دار العربي للنشر والتوزيع منذ 2015 وكاتبة ومحررة على موسوعة ويكيبيديا العربية ضمن مبادرة «قصتها» التابعة لمنظمة الأمم المتحدة للمرأة.

الحسين أومرجيج: باحث بسلك الدكتوراه في موضوع النحو والتأويل، وناشط في مختبر الدكتوراه «التأويليات والدراسات النصية واللسانية» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة عبد المالك السعدي بتطوان.

كما تتقدم مبادرة ض بخالص الشكر والتقدير للجنة التدقيق ممثلة بأعضائها من خريجي الدراسات العليا والمتوسطة في تخصص اللغة العربية والمساعدين المدققين لهم، على ما قاموا به من مجهود لغوي وتدقيقي في تنقيح القصص المشاركة وتحسينها لغويًا.

أعضاء لجنة التدقيق

د. عبد العزيز الطالبي، د. مصطفى قدوري، د. ميلود عرنيبة، علاء الدين مقروف، عائشة بناني، ياسر تانيرا، مصطفى ربيع شحاته، محمد همو، نوراي نجيب، روان المغني، أسامة إنهضي، عبد الرحمان العماري، ميشيل بكني.

أسرة مبادرة ض

كما تتقدم إدارة مبادرة ض في ألمانيا بخالص الشكر والامتنان للزملاء والأصدقاء للمتطوعين في أسرة ض في الوطن العربي وخارجه، على التضحيات بالوقت والجهد في سبيل نشر المعرفة وإثراء لغة الضاد عبر العمل الجماعي التطوعي لإنجاح المسابقة وتنظيمها بشكل احترافي، ويُخص بالذكر كل من: محمد حجاوي، وندى الفرا، وبراء زماعرة، وآسية حوميدي، وبسمة درويش، وإبراهيم اخلاوي، ورأفت عويضات ومعتصم كميل.

إهداء

نهدي هذا الكتاب لكل الأقلام الحرة الصادقة التي تثري الأدب والثقافة العربية وتغنيها. لكل من يبحث عن الموهبة في نفسه إلى أن يجدها، نهدي هذا الكتاب. لكل من يرى في حياته معنى ولذاته أهمية ويعمل لتحقيق أسطورته الشخصية في الحياة، نقدم هذا الكتاب هدية. نهديه لكل من يبحث عن التميز في الإنتاج لا الاستهلاك المعرفي. ونقدمه لكل من يضحي بوقته وجهده متطوعا في خدمة المعرفة الإنسانية ولغتنا وثقافتنا العربية. لموسوعة ويكيبيديا الحرة، وخصوصا النسخة العربية منها، وللأصدقاء في مبادرة ض من مختلف البلدان، ولجنود الخفاء الذين ساهموا بإنجاح هذا الكتاب، نهديه من قلوبنا، ونتمنى لكم قراءة ممتعة.

مبادرة ض التطوعية

مقدمة

«قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته ... مصطفى محمود»

تلخص هذه المقولة ما تسعى مبادرة ض العلمية الثقافية للقيام به منذ تأسيسها ثم تسجيلها بشكل رسمي كمنظمة تطوعية غير ربحية في ألمانيا. وكان الدافع الأول لذلك هو نقص المحتوى العربي الإلكتروني وضعفه في المجالات المعرفية المختلفة. حيث سعت المبادرة إلى سد جزء يسير من هذا النقص عبر الموسوعة الحرة الأهم، موسوعة ويكيبيديا العربية، من خلال مسابقة ض الويكيبيدية منذ العام 2015. ثم أضافت لأنشطتها إثراء المحتوى الخاص بالأطفال عبر مشروع حكايات ض للأطفال منذ العام 2019، الذي أنتج أكثر من 100 قصة عالية الجودة للأطفال بالعربية، منشورة للفائدة. وفي عامها الخامس، توسع نشاط مبادرة ض التطوعية ليشمل تأليف القصة القصيرة، عبر مسابقة حروف حرة في العام 2020.

وتقوم المبادرة بنشاطاتها بجهد تطوعي خالص وتضم متطوعين متميزين من دول عربية مختلفة جمعهم حب العمل التطوعي والرغبة في التغيير الإيجابي، خدمةً للغة والثقافة العربية والارتقاء بهما.

وتشمل أهداف المبادرة المساهمة المتواضعة بنشر ثقافة التطوع في الوطن العربي، والإنتاج المعرفي والثقافي باللغة العربية، والمساهمة بإثراء موسوعة ويكيبيديا العربية الحرة، بالإضافة للمساهمة في جعل القراءة ثقافة عامة واكتشاف وتحفيز المواهب الشابة، وتقديم محتوى هادف ومجاني للأطفال باللغة العربية.

نبذة عن هذا الكتاب

يمثل هذا الكتاب أحد أهم مخرجات مسابقة حروف حرة لكتابة القصة القصيرة والموجهة للمؤلفين الجدد في مختلف الفئات العمرية -التي نظمتها مبادرة ض في عام 2020. حيث شارك في المسابقة المئات من المؤلفين الجدد من داخل وخارج الوطن العربي، ويحوي الكتاب القصص التي حصلت على أعلى علامات لجنة التحكيم المختصة.

تهدف مبادرة ض بهذا الإصدار إلى تشجيع المؤلفين الجدد وتعريف جمهور القراء العربي بهم، وتتيح الرخصة القانونية التي وضعتها المبادرة للقراء الاستفادة من الكتاب المتنوع ونشره للأغراض غير التجارية، حيث تبقى الحقوق التجارية ملكا للمؤلفين أنفسهم.

فهرس المحتويات

شكر وتقدير 3

إهداء 5

مقدمة 6

فهرس المحتويات 7

القصة الأولى: قابيل الزمن 8

القصة الثانية: مخيلة جامحة.. تتعابث 16

القصة الثالثة: شهادة حب 33

القصة الرابعة: ليلة التحول 52

القصة الخامسة: وجهان لعملة واحدة 64

القصة السادسة: كبائر صغيرة 70

القصة السابعة: ولادة يسيرة 83

القصة الثامنة: الشيفرة المخيفة 89

القصة التاسعة: عناق 110

القصة العاشرة: إلى ما لا مآل 117

القصة الحادية عشر: لم يكن .. بل كان 134

القصة الأولى: قابيل الزمن

تأليف: حسان جابلي

الدولة: تونس

قابيلُ الزّمن

تقلّد قابيل السّيف صلد الحديد، وامتشق القوس وعلبة النّبال والجراب، وتدحرج نحو البيوت الخلاء. مضغ الصّمت المطبق بقدميه، يسدّد ما يلقاه على الطّريق الخراب. رمق البيوت القفر. كسر فضوله أحد الأبواب، وتسلّل إلى الدّاخل، نفض غبار الأرائك، وجلس يتأمّل الرّسوم العائليّة على الجدران، رأى ابتساماتها دافئة كقهوة الصّباح، فغمره شيء من الفرح، غير أنّه تلاشى سريعًا، وخيّم مكانَه حزن داكن، فالابتسامات المحنّطة في الرّسوم ستأكلها الوحدة والسّكون والغبار مع مرور الأيّام، بكاها بصمت النّدم الدّفين. وعلى ألم خفيّ، حثّ الخطو نحو الغاب الموحش. عوت في رأسه ذئاب التّخوم. وناحت حمائم الوحشة. انتفضت أسراب الطّيور الفزعة، وركضت ذوات الأربع. حرّكت الرّيح أغصان الشّجر، فأخذت تتمايل راقصة. داعب جذوعها الثّابتة بعينيه، فلاحت له خدوش ترسم ملامح الفراق. حذف بالسّكّين المسافات الفاصلة بينها، وغنّى لها أغاني الوصال، ثم قطف لها زهورًا. وعلى حزن، خطا مبتعدًا.

رمته الصّخور إلى الصّخور. تلوّى بين الأخاديد. ثمّ، في خفّة، بلغ قمّة الجبل الحزين حارس الغاب. بحث عن صخرة مسطّحة، وأقعى. مسح بعينيه مدى الشّجر المظلم، وقد راحت تهجره، في انكسار، شمس المغيب. همّ به الجوع، فجمع الحطب، وأوقد النّار. أخرج من الجراب فرخ البطّ الّذي غازله النّبل. خلّصه من الرّيش، فقامت معه المدية والماء بواجب الضّيافة، ثمّ أرجحه من عود طويل كطفل عابث، فراحت ألسنة اللّهب تلعق اللّحم. ولمّا احمرّ وسال زيته، نهش منه شيئًا، فدبّ في أوصاله الدّفء، ثم قبّل قربة الماء، وأطرق مصغيًا إلى أصوات الغاب القفر. أخذت تسري في عروقه طمأنينة النّار، والحديدُ اللّامع النّصل إلى جانبه. رفع بصره إلى القمر، وقد بدأ يغادر قلب الظّلمة، يطلّ من خلف الجبال المجاورة، ويتسلّق الفضاء الرّحب في خيلاء. وبعد برهة تيه، انتبه إلى غيم أسود كثيف، تحلّق حول القمر، ثم أخذ يخفيه، فانبعثت فيه ذكرى أحداث أيّام مضت. حرّك غراب الحزن جناحيه. وأخذ يذرع فضاء خياله بلا كلل. تقلّب على مشواة النّدم، كفرخ بطّ حيّ تأكله النّار. ركل الهواء بقدميه. تشقلب. عصر التّراب بيديه. وبعد لحظة مقاومة، أخذ ينبش الأرض على طريق القبّرة. ولمّا استوى له التّراب، توسّد الجراب. وأغمض عينيه يبتغي النّوم، فلم يظفر به، وأخذت الوقائع تدغدغ ذاكرته، فبدأ يبكي.

*****

كانت المعركة على وشك الانطلاق. اصطفّ الفرسان فرقتين متقابلتين. في رأس كلّ واحدة منهما يقف قائد يلقي خطبة حماسيّة، تتلوها صيحات الجند المفزعة وهتاف النّصر. استمرّ التّأهّب لحظات، تلاه انطلاق سهم يشتعل من إحدى الفرقتين، وقع أمام الأخرى. فعلا صفير حادّ كأشعّة اللّهب. دُقّت الطّبول، وانطلقت الأحصنة، والتقى الجمعان. علا الغبار والصّياح وارتطام الحديد بالحديد والأحصنة بالأحصنة واللّحم باللّحم، وتساقطت الجثث على الجثث. ومن على الجبل المجاور، حيث يجلس، رأى قابيل الرّجال يقتلون الرّجال. ورأى النّساء يقتلن النّساء، ورأى الصّبية يقتلون الصّبية، ورأى الحديد يمزّق اللّحم الطّريّ، وما هي إلّا

ساعة حتّى كان الفناء. امتلأت الأرض حمرةً والسّماء سوادًا. نحو الوادي، سار خطّ أحمر دقيق، ولكنّه ما لبث أن بدأ يتّسع تدريجيّا، حتّى أضحى تيّارًا جارفًا، وحلّقت الغربان والجوارح ترقب آخر رجُلَين. كانا يتحرّكان بتؤدة العجائز، وقد اجترّهما التّعب، فعلا تنفّسهما حتّى صار هديرًا مدوّيًا. لبثا برهة يتشادّان بالأيدي، وفي لحظة، تسلّلت أسنان أحدهما، فقطعت حنجرة الآخر، فتخبّط في حركات الدّيك الذّبيح. ولمّا عمّ الهدوء، بدأت الطّيور تتساقط على الأرض الفناء، فتأكل اللحم، ولمّا تمتلئ بطونها، تطير مُثقلة إلى أوكارها في القمم الأمان، وما هي إلّا لحظات حتّى بلغت رائحة الدّماء ذوات الأربع، فتسربلت على بكرة أبيها نحو مكان الواقعة. أكلت حتّى شبعت، ثمّ اتّخذت من المكان ملهى، فإذا هي تتهارش مزهوّة.

وكان النّاجي الأخير يتسلّق الجبل حبوًا. سلخت الصّخور والأشواك والحصى جلد بطنه وصدره وركبتيه، وشلّ أوصاله زئير الوحوش، ولكنّه أصرّ، بعزيمة نملة تجرّ حبّة قمح أثقل منها، حتّى بلغ القمّة. ولمّا استردّ شيئًا من أنفاسه، رفع عينيه، فإذا هو قبالة رجل لم يسبق له أن رآه. ألقى له قابيل قربة ماء، فتلقّفها بلهفة الظّمآن. شرب، ثمّ أعادها إليه. سأله قابيل عن المعركة، رغم أنّه كان على علم بها، فحكى له بالتّفصيل ما حدث، بدت الواقعة، وهو يحكي له، بسيطة، كأن يقول لك أحدهم، ببرودة أحد القطبين: «لقد قتلت فلانًا لأنّه أخذ من أرضي قشّة تبن». رمق قابيلُ الناجيَ بنظرة بلا معنى، ثمّ سحب السّيف، وجزّ رأسه، وقال: كان يجب أن تموت أيضًا. الثّأر مسألة لا تُحمد عقباها. من يدري؟ ثمّ لبس حذاء القتيل، ورمّ هيأته. ولبث واقفًا برهة، فقد ظلّ وحيدًا، كما كان قبل أن يمرّ بالقريتين.

*****

كان مارًّا بقرية، يخيّم عليها سكون الفجر. وكان قد أخذ منه إعياء الأيّام الماضية الّتي قضاها سائرًا كمن يطوي الزّمن. اقتاتت على نعليه الأحجار، حتّى صار حافيا. وأخذ منه الجوع والعطش، فثقلت حركته كمن يطأ البحر. وجد عند طرف البلدة فسقيّة، فشرب منها حتّى ارتوى، وملأ قِربته. ولمّا رفع عينيه يستطلع المكان، رأى ثورًا، وكانت قد توارثته القرية أبًا عن جدّ؛ ولأنّه كان على تعب، أخذ جرابه، وركب الثّور. نهره، فوقف، ثمّ حثّه على السّير، فأخذ في خطو وئيد، كمن يجرّ جبلًا. وما زال على تلك الحال، حتّى أخذت شمس الصّباح تطمس آخر نقاط الظّلمة، وكان قد وصل إلى قرية تكون على بعد أميال، فربط الثّور، وصعد إلى جبل يشرف على القريتين. أخرج من جرابه قِربة الماء وإبريق الشّاي وما يلزمه. جمع حطبًا وأشعل نارًا، وفيما كان ينتظر الكأس الأولى، لاحت له أشباح أشخاص من قرية الثّور قادمين. كانوا قد افتقدوا دابّتهم، فانتشروا انتشار النّار في الهشيم باحثين عنها. ولمّا اهتدوا إلى أثرها، أخذوا في اقتفائه. رأوا ثورهم مربوطًا في أرض قرية اللّاثَوْر، فامتلأوا ظنًّا أنّهم سرقوها منهم، وتسرّب إلى عروقهم سمّ الكراهيّة والحقد الدّفين، فأخذوا في صياح متواصل، وما لبثوا على صياحهم المدوّي إلّا قليلًا، حتّى همّ بهم جمع من القرية يسألونهم حاجتهم. استغربوا الثّور في أرضهم، وأنكروه، ولكنّ قرية الثّور أبت إلّا أن تكذّب قرية اللّاثور. استمرّوا على خلافهم ساعة. سرقتم ثورنا! لم نسرق ثوركم! عقبه ارتفاع الأصوات والتّلويح بالأيدي والعصيّ. وفي لحظة خاطفة، طالت يد رجل من إحدى القريتين وجه رجل من القرية المقابلة فانتهى النّقاش إلى خصومة، تلاها إعلان الحرب. فارتدّ كلّ

إلى قريته على جزع. ومع حلول الضّحى، كانت الفرسان جاهزة، زحفت الجهتان إلى المنتصف. زحف الفرسان والرّجال والنّساء والأطفال. وأمام عينَي قابيل الّذي بدأ يرتشف كأس الشّاي الأولى، كان الحابل قد بدأ يختلط بالنّابل.

*****

كان قد تبرّأ منه والده، فمضى قابيل هائمًا على وجهه يجوب أرض الله الواسعة. أخذ يقتات على الفواكه الّتي تجود بها أشجار الغاب. ومع مرور الأيّام، تأكّد من حاجته إلى تعلّم الصّيد. فما تجود به الأشجار لا يُؤتمن، فقد يحدث أن تحبس السّماء ماءها، فيعمّ الجفاف والقحط، وعليه أن يحتاط، حتّى لا يكون ضحيّة لاستهتاره. هكذا ردّد بينه وبين نفسه. والمُضمر أنّها ذريعة لتلافي النّقص الّذي شعر به سابقًا، وظلّ يعود ذاكرته، كلّما رأى حيوانًا، فتغلي دماؤه غليان الماء في القدر. تحمرّ عيناه. ويمتلئ قلبه حنقًا وحقدًا. ولكنّه يظلّ، في كلّ مرّة، يضغط على الجرح بصمت التّحمّل، على أمل أن ينتهي الألم. في وقت متقدّم، سيدرك أنّ الجراح متى خبّأها صاحبها، ظنًّا منه أنّها ستندمل، يتفاجأ بها تتعفّن، فيزداد شأن علاجها عسرًا. صادف أن التقى بخمسة نفر يصطادون. كانت بحوزتهم لوازم الصّيد، ولم يسبق له أن رآها. طلب منهم أن يرافقهم، فقبلوا طلبه. في البدء، اكتفى بالمراقبة. ثمّ، مع تقدّم الأيّام، بدأ يتعلّم أبجديّة الصّيد والأسلحة. ولأنّهم قد اطمأنّوا إليه، سمح له النّفر باستعمال أقواسهم، بل تكفّل به أحدهم يوجّهه: تُمسك القوس عموديًّا، تأخذ النّبل من العلبة المشدودة إلى ظهرك، تُلصق طرفه الخلفيّ إلى الوتر، تجذب بقوّة. النّبل موجّهًا، على طوله، صوب الطّائر. لا تتحرّكْ. اجذب بقوّة. اتركه الآن. هكذا.. أحسنت. وما هي إلّا أيّام، حتّى صار بارعًا، لا تخطئ رميته الطّريدة.

واتّفق أن جلسوا في إحدى الأمسيّات، بعد حفل شواء، يتجاذبون أطراف الحديث، فتوجّه أحد الرّجال الخمسة بالكلام إلى قابيل، يسأله عن سبب تجواله وحيدًا قبل لقائه بهم. فكّر قابيل في أنّها الفرصة المثلى ليفتح الجرح، فيعقّمه، ويغلقه إلى الأبد، فأطرق قليلًا يرتّب كلماته، ثمّ أخذ يحدّثهم بالتّفصيل عمّا حدث، منذ واقعة القتل الأولى. ظلّوا يرمقونه بنظرات ملؤها الجزع والخوف، فتلعثم، وغزا الدّم وجهه. غير أنّهم أخرجوه من بركة حيرته، ضاحكين: أنت تملك خيالًا واسعًا! واستمرّوا في الضّحك، ولكنّه ظلّ صامتًا كالحجر. تردّد في أعماقه كلامهم محدثًا دويًّا كدويّ وقوع أحجار في بئر عميقة. يختلط الواقع أحيانًا بالخيال، فلا يعود بمقدورنا التّمييز: أيّهما الواقع؟ وأيّهما الخيال؟ أمّا قابيل، فقد غادر إلى مأواه، في تلك اللّيلة، متظاهرًا بالضّحك. ولكن، في قلبه نار تضطرم.

عقب ذلك اليوم، انطفأ ما قيل في أذهان الجماعة. فاستمرّوا، كأنّ شيئًا لم يكن. أمّا نار قابيل، فقد ظلّت تأجّج، إلى أن انفجرت ذات فجر. تسلّل على أطراف أصابعه كنسمة هواء. جرّد الأفراد من أسلحتهم، وتوارى بها خلف إحدى الخمائل. امتشق سيفًا وردم السّيوف الأربعة الأخرى. اختار قوسًا وأتلف البقيّة. جمع كلّ النّبال في علبة واحدة وشدّها إلى ظهره. بحث له عن مأمن، يراهم من خلاله، ولا يرونه، ولبث حتّى استيقظوا. تفاجؤوا بأنفسهم عُزّلًا. انتفضوا جزعا، وانتشروا يبحثون، فلم يظفروا بشيء.

ولمّا جلسوا في العراء، أمطرهم قابيل بخمسة نبال، اخترقت أفئدتم في قسوة، فانبجست منهم دماء حرّى. فكانت تلك هي اللّحظة الأولى الّتي تتحوّل فيها النّبال من صيد الحيوان إلى قتل البشر.

واصل قابيل طريقه. لم تخمد نار حقده، وكان قد عقد العزم على أنّه كلّما يحلّ في مكان يُهلك أهله.

*****

أيقظته شمس الضّحى. تحسّس ما حوله. كانت أغراضه جميعا في مكانها. نفض عنه غبار اللّيل. لم يكن يغادر حلمًا أو كابوسًا كما يبدو، فكلّ ما في الأمر أنّ ذاكرته استعادت ما حدث عكسيًّا، كمن يمشي إلى الخلف. ولو قمنا بترتيب ذكرياته، لكانت على هذا النّحو: بعد حادثة القتل الأولى، يهيم قابيل على وجهه، ثمّ يلتقي بالصّيادين الخمسة، يعلّمونه الصّيد، ثمّ يقتلهم، ويواصل طريقه، يمرّ بالقريتين، يُنشئ بينهما الخلافَ، فتقتتلان حتّى الفناء، ولا يبقى منهما سوى ناجٍ واحد، فيقتله هو أيضًا. يمرّ بالبيوت القفر، يلقي عليها نظرة تكدّر صفوه، فيفرّ نحو الجبل، حيث يستيقظ هذا الصّباح.

كانت دموع البارحة قد جفّت، وبقيت آثارها أسفل عينيه. هو يدرك ذلك، فقد بات يشعر بأنّ النّدم أخذ يتسلّل إلى قلبه. لذلك، ها هو يبالغ في غسل وجهه. فيما بعد، سيبالغ في تقتيل الحيوانات والطّيور بلا رأفة. سيتحوّل الصّيد من الصّيد لحاجة الأكل إلى مجرّد صيد، تُترك إثره الطّرائد مُلقاة لتأكلها الوحوش. فقط.. ليثبت لنفسه أنّه ليس نادمًا، وأنّه لم يخطئ. هكذا صمّم، وتبادر إلى ذهنه أن يعيد ترتيب الأحداث كما يحلو له. هو لم يخطئ، وعلى الجميع أن يعاملوه على هذا الأساس، وإلّا سيواصل مشواره. فكما سفك دماء وتسبّب في مجازر، يمكنه أيضًا أن يحصد أرواحًا أخرى، إذا انفتحت بوّابة الجحيم، يصعب إغلاقها. هكذا ردّد بينه وبين نفسه. لذلك، لا بدّ من أن يذعن له الجميع. وسيبدأ بوالديه. سيوضّح لهما كلّ شيء. ومن ثمّة، تبدأ رحلة الغسيل.

جمع زاده، واندفع نحو مسارب الغاب، حاثًّا خطوه. لا يفصله عن المكان الّذي يعيش فيه والداه سوى مسيرة ساعات قليلة. ولكن يملأه شعور غامض بأنّ شيئًا مّا قد حدث. وعلى عكس ما صمّم عليه، لم يكن يعير اهتمامًا للحيوانات والأطيار وهي تقفز وتتطاير أمامه. كلّ همّه أن يصل. طوت قدماه الطّريق، وسرعان ما بلغ موضعا واسعا تحيط به الخمائل. تنفّس الصّعداء، وهو يرى البيوت والزّرائب. متردّدًا، اتّجه نحو بيت والديه. دلف إلى الدّاخل فلم يجدهما. أربكه خلوّ البيت من المؤونة والسّجاجيد. أسرع نحو البيوت الأخرى. دلف إليها جميعًا، فألفاها مجرّد هياكل من الحجر والطّين، ثمّ انتبه إلى أنّ الزّرائب خالية من أغنامها ودوابّها. لبث ساعة تعصف به الشّكوك دون أن ينتهي إلى تفسير واضح. ناحية التّلّة المشرفة على القرية، لمح الحكيم يتّكئ على عصاه ناظرًا إلى الأفق، فسار نحوه بخطى متثاقلة، اجتهد أن تكون متّزنة.

سأل الحكيمَ عن أهل الحيّ، فأطرق. أشاح ببصره بعيدًا. ثمّ سمعه يقول: لقد ارتحلت القرية، وانتشرت بين قريتَي الجبل. صادف انتقالها الحرب. لقد ماتت، يا ولدي. وأمام دهشته وصمته، واصل بصوت أجشّ: ارجع إلى نفسك.. ارجع إليك، يا عدوّ نفسه! وتدحرج بعيدا. فأكلته الصّخور.

تهاوى قابيل على ركبتيه، كمن اخترق قلبه سهم، ثمّ وقع على وجهه، فكان لوقوعه دويّ الصّاعقة. انغرز الحصى في وجهه. وانساب من أنفه سائل أحمر نحو الأرض العطشى .

*****

لبث فترة لم يعد الآن يذكرها، ولم تبق منها سوى أصداء كصوت تردّده جبال بعيدة. أيقظه شعور بلزوجة تلعق وجهه. لمّا فتح عينيه، ألفى كلبًا وديعًا يمرّر لسانه على وجهه، وينظر إليه في انكسار. فعرف فيه كلب العائلة قبل أن يغادرها. وأدرك أنّ الكلب ظلّ يبحث عنه إلى أن وجده. فمن يألف لا يهجر بعدها، ويظلّ بلا دليل دون رفيقه. مدّ نحوه يدًا مُثقلة وربّت على ظهره، ثمّ عانقه، وبكى. بكى هذه المرّة حتّى سمعت الصّخور صوته، وصرخ حتّى ردّدت الجبال الصّدى. تسلّلت إلى قلبه وقائع الأيّام الخالية. أحاطته بأذرعها المتشابكة كالأخطبوط. طوّقته كبدلة غوص، وأخذت تعصره، ولم يكن يملك من سلاح سوى الدّموع. رفع عينيه نحو السّماء كمن يستجدي، فلاحت له زرقتها الصّافية المُطَمئنة. خجل من نفسه، كيف انحجبت عنه كلّ هذا الأمد؟ قضّى مساءه ذاك ينظر بقلب العاشق إلى شمس الغروب، يرقب آخر نقاط الضّوء تغوص في المدى، ويتابع بدقّة تدرّج الألوان وهي تسير نحو السّواد القاتم، ثمّ أخذ يتأمّل النّجوم والكواكب البعيدة. بدأت تسري في عروقه آمال البدايات. ورأى فيما يرى اليقظ أيّامًا مُشرقة زاهية كيوم ربيعيّ. تناسى ما قد مضى. وعقد العزم على أن يبدأ من جديد، رغم يقينه من أنّ البدايات الفعليّة يُوقّعها المطر. وفعلًا تفاجأ في صباح اليوم التّالي بطقس غائم، عقبه مطر لم يسبق له أن رأى مثله. عندها أدرك أنّ الطّريق بدأت تتّضح أمامه، وأنّه ما عليه سوى السّير بثبات. وملأه يقين بأنّ النّدم الفعليّ يعقبه الصّفح. وردّد: صحيح أنّنا لا نستطيع تغيير الماضي، ولكنّنا نستطيع فعل شيء ما من أجل المستقبل. المستقبل هو حاضر مؤجّل، ثمّ انحدر جريًا نحو البيوت القفر، يتبعه كلبه.

*****

وقف على أنقاض الحياة. كانت الجثث الملقاة على الأرض تستحمّ في مياه السّماء الدّافئة، اغتسلت تمامًا. خلّصها المطر من الدّماء. كانت ثمّة جثث سليمة، وأخرى فقدت أجزاء منها بفعل البتر أو نهش المفترسات. بحث قابيل عن خندق قريب، وأخذ يسحب إليه الجثث. اجترّ ثلاثة أيّام من الجثث، ذاق إبّانها الويل. أنهكه التّعب. وفي كلّ مرّة يسقط فيها فيعانق الجثّة، كانت تنهمر دموع النّدم من عينيه مدرارًا، فينتفض واقفًا متحاملًا على جسده المُرهق المتداعي. وكمن ينتقم من نفسه، يواصل السّير. وفيما كان الموتى قد بدأوا يملؤون المكان، كان الكلب يهيل التّراب من الهضبة المحاذية، يدفن الجثث. ولمّا انتهى قابيل من

النّقل، انضمّ إلى كلبه يهيل معه التّراب. وما هي إلّا ساعات، حتّى انتهى حفل الدّفن، فانسحب قابيل يجرّ أذيال الهزيمة والانتصار.

سار نحو نهر قريب. غسل ملابسه، وعلّقها على غصن إحدى الأشجار. ثمّ ارتمى في الماء العذب. فأخذت تتقاذفه الأمواج كطائرة ورقيّة في أحضان الرّيح. وفي الصّباح ألقته إلى الشّاطئ العاري خفيفًا، لبس ثوبه، وطار نحو الدّيار. أخذ يرمّم بيت والديه. جلب له بعض المقاعد الخشبيّة وجلود الحيوانات والصّحون الخزفيّة الّتي وجدها متناثرة في البيوت المجاورة، وعثر على سجّاد وقِدر، فصار البيت صالحًا للعيش. ومن أجل الطّهي جمع حزمة من الحطب المتناثر في الأرجاء. وأمّا بخصوص النّار فلا يفوتنا التّنبيه إلى أنّه قد مضى زمن على اكتشافها. فليس قابيل هذا هو قابيل الزّمن الأوّل. لقد وُجِد في كلّ العصور. لسيرة الدّم أوجه كثيرة يمكن أن تُحكى. والأمل قصّة أخرى تشاكس أوجه السّيرة. دأب قابيل على مواصلة عمله بجدّية وإصرار. مساءها طها بعض الخُضر؛ فهو لا يملك لوازم الصّيد. وقد اهتدى إلى قرارٍ أن يصيد طريدة بعد كلّ بضعة أيّام. ثمّ سيهجر الصّيد نهائيًّا، لمّا تستوي له الماشية. عقب ذلك استغلّ الزّرائب المهجورة، وأنشأ له زريبة من الأعواد العملاقة والجذوع قادرة على صدّ كلّ سطوة قد تشنّها اللّواحم. وتذكّر أنّه لا بدّ له من وسيلة تحميه. لا أحد يأمن الغاب. وبذلك عاد إلى المكان الّذي وقعت فيه لوازم الصّيد، وحمل السّيف والمدية. أخذ يصطحب كلبه في جولات طويلة يمسك خلالها ببعض الأغنام. كان حريصًا على الإمساك بالّتي لها مولود حديث العهد. يكتفي بحمله، فتتبعه دون كبير عناء. يعود بها إلى الزّريبة الواسعة. ويغلق المخرج دونها. ويواظب على مدّها بالعشب والماء. في البدء تمتنع عن الأكل، ولكنّها لا تفتأ أن تألف المكان. بدأ عدد الماشية يتزايد. ولمّا صار محترمًا توقّف عن جلب الأغنام، واكتفى برعايتها. ألفها وألفته. كان يُخرج بين الحين والآخر مجموعة يرعاها. ومع مرور الأيّام، اطمأنّ إليها، فصار يخرج بها جميعًا إلى البراري ترعى. ثمّ لمّا كان بعد فترة، كان يحمل زوّادته وقد ملأها بلوازم أكل كافية لبضعة أيّام، ويذهب في جولات طويلة نحو البراري والمراعي البعيدة. وكان في كلّ مرّة يكتشف مكانًا جديدًا، يفتتن بخضرته وجماله البديع، ولكنّه يظلّ مشدودًا إلى المسكن الأصل، فلا يلبث أن يغيّر اتّجاه سير الغنم. ولا يمرّ سوى يومين أو ثلاثة حتّى يكون قد بلغ الدّيار. وفي واحدة من جولاته عثر على محراث خشبيّ محطّم. فقرّر، بعد لحظة تفكير، أن يحتفظ به. وعزم على إصلاحه. فدأب على معالجته، حتّى صار صالحًا للاستعمال. ولم يبق ما يفصله عن الزّراعة سوى الحصول على البذور وترويض دابّة. سيستغرق ذلك فترة زمنيّة قد تطول. ليس لديه ما يستعجله على أيّة حال، فأمامه متّسع من الوقت. أمّا بالنّسبة إلينا، فالكلمات تختزل المسافات.

وهو مارّ بالقريتين اللّتين كثيرًا ما كان يتجنّبهما، تذكّر شأن البذور، فدلف إلى أحد البيوت. وأخذ كيسين من القمح والذّرة، ليحتفظ بهما في كوخه إلى أن يحين الوقت المناسب. وفي واحدة من جولاته، عثر على صغير بقر مختبئ في إحدى الخمائل. خطر له أنّ أمّه بالتّأكيد قد أكلتها المفترسات وهي تحاول حمايته، فخيّم عليه شيء من الحزن. وقرّر أن يعود به إلى بيته الطّينيّ. جهّز له مأوى في إحدى زوايا الكوخ. وسهر على إطعامه. كان يقوم بحلب بعض الشّياه، يملأ له وعاء خزفيًّا، ويضعه أمامه، فيشربه. حدث ذلك بعد الكثير من المحاولات الفاشلة، أدرك بعدها الصّغير الجائع الحليب. ترعرع في أحضان رعايته كطفل.

كان ثلاثتهم يتسامرون. كثيرًا ما يحكي للعجل والكلب عن آلامه الماضية. كان يجد في حكيها راحة نفسيّة. وكان يملأه يقين بأنّهما يفهمان ما يقول. ثمّة اتّصال بينهم يتجاوز حدود الكلام. في النّهار، يأخذ لوازمه ويقصدون المراعي. كبر العجل الأليف، وتضخّمت بنيته، وصار بإمكانه جرّ المحراث. بحث عن أرض مناسبة للزّراعة. فوقع اختياره على أرض منبسطة محاذية للهضبة المجاورة، ولمّا كان موسم الزّراعة بعد هطول كمّيات كبيرة من الأمطار، انتظر أن تجفّ الأرض قليلًا، ثمّ حمل البذور نحو أرض الزّرع، منذ ساعات الصّباح الأولى، فنثرها. أطلق الأغنام في البساط ترعى. وجهّز الثّور. وطفق يحرث بتؤدة الحكماء. ومع حلول المساء، كان قد تمكّن من حرثها كاملة. ارتسمت على شفتيه ابتسامة الظّفر الموفّق الّتي تلي التّعب. وستخالجه فرحة عارمة بعد أيّام، وهو يرى البذور تنمو في بطء، تتسلّق الهواء مزهوّة، وتشاكس خضرتها حمرة التّراب.

قرب موسم الحصاد. كانت السّنابل قد طالت وهي تتسابق سامية، ثمّ ركعت لشمس الأصيل. كان قابيل يتأمّلها بقلب ملؤه الحبّ الغابر. يبتسم لها. يحاكيها بصمت العاشق، ويحرسها من الطّيور الّتي لا تلبث أن تتساقط لأكل الحبّ الذّهبي اللّامع، كأنّه قُدّ من الشّمس. ولمّا تأكّد من أنّ المحصول قد نضج، عزم على بدء الجني. فكان يستيقظ في الصبّاحات الباكرة، قبل أن تشتدّ الحرارة. وفي حين تكون الأغنام في الأرجاء، يحصد السّنابل. يملأ بها الأكياس. ويحملها ليضعها أمام الكوخ. وفي حين تكون الأغنام في المقيل، يأخذ في كلّ مرة بعض الأكياس، يحكم إغلاقها، ويتسلّح بعصا غليظة، ويهوي عليها بضربات متواصلة. ولمّا يطمئنّ إلى أنّها صارت جاهزة، يخرجها، ويأتي بأخرى. وينتظر، حتّى إذا هبّت نسمات الهواء، يأخذ الأكياس إلى العراء. يصبّ محتواها فوق سجّاد ويذريها. فلا يبقى سوى الحبّ الذّهبيّ فوق السّجّاد. هكذا، أصبح له كلّ ما يلزمه للطّهي.

*****

رغم أنّه يحظى بكلّ مقوّمات العيش، ورغم الحيوانات الّتي يرعاها ويجالسها ويحاكيها ويشرب حليبها ويأكل أحيانا لحمها، كان يخالجه شعور غامض لم يتبيّن كنهه. كان يشعر بالفراغ. كان يشعر بالوحدة. ربّما يمكنك أن تمتلك أيّ شيء، ولكن، بمفردك، ستقتلك الوحدة. يقتلك الفراغ والاجترار. فما أقسى أن تكون وحيدًا في هذا العالم!

كان النّدم يعوده بين الآن والآن، فيخيّم عليه الموت. يجلس على الهضبة، إلى جانبه كلبه. يرقب الأغنام وحملانها تنطّ في حبور. يرفع رأسه. يغمض عينيه. يعود إلى نفسه. يغوص في أعماقها. يتلاشى. يغيب تمامًا عن العالم. ثمّ لا يفتأ أن يعود لتحسّس ما حوله، وهو يشعر بالاطمئنان. وفي يوم بينما كان على تلك الحال، إذ نبح الكلب. فاستيقظ من غيابه. رأى قمرًا بعيدًا يقترب في خيلاء. ثمّ ترجّل. وأخذ يسير نحوه في أبّهة من تمشي على الماء.

انحدر نحوه في خفّة حلم، وهو يفكّر في أنّ اسم ابنه الأوّل سيكون «هابيل.»

القصة الثانية: مخيلة جامحة.. تتعابث

تأليف: مصطفى آدم

الدولة: السودان

مُخيّلةٌ جامحة.. تتعابث

ولكن نوعًا من الإحساس الغامض، أدّى إلى أنين واضطراب صدرِه، نوعًا من الرغبة الجديدة، يجذبُ، يدغدغُ، يُثير مُخيّلته، ويستدعي على نحو غير محسوس سربًا كاملًا من الأشباح الجديدة. [الليالي البيضاء - فيودور دوستويفسكي] [1]

مُخيّلَتي العظيمة... عوّدتني دومًا ألّا تُخيّب ظنّي في فعلِ ما أرومُهُ، متى ما أرومُهُ من غير اعتذارٍ أو تملُّص إلا أن تكونَ مُرهقة. تعبث معي حدّ الهذيان، تبلغُ ذروةَ عبقريّتها عندما أكون في أوجِ غبطتي، وينطفئ قبَسُها حينما أكون في حضيض حُزني، وتتراقص فرحًا عقب احتسائي كوب القهوة الدافئ. نتصورُ تصوراتٍ مريعة، نختلقُ عوالمَ خاصة بنا، نفترض الافتراضات، نلهو ونمرحُ حدّ العبثِ اللّامعقول.. بالمنطق.

كنتُ في تلك الليلةِ في وضعٍ نفسيٍ فريد، ليس حزنًا صِرفًا، ليس فرحًا صِرفًا مع بعض اللامبالاة، وقليلٍ من الخلو من المعنى، ليس خلوًّا تعبيرًا عن عبثية أو عدمية هذه الحياة بل خلوًّا طبيعيًّا كضعفٍ بشري يعتري الإنسان من رَهَقِها، يُمكن أن يوصف ذلك الوضع كَكُل باحتشادٍ مشاعري.

جالسًا على كرسيِ المتأرجح كمهد طفلٍ يُهدهد بأناة، أرقبُ البدر بكلتا مُقلتيّ، مُحدِّقًا فيه بثباتٍ وصمتٍ مُريبيْن، هنا من شُرفتي الضاجّة بالسكون هذه كنتُ وكأنّي أطِل على ناصيةِ روحي، أُحرِّك رجلي المنصوبة على ركبتي بعبث، مُقلِبًا معها صفحات دفتر الأيام لأراجع حساباتي - مع نفسي- مُحاولًا ألّا أُكرر أخطاء ارتكبتُها، ومُتأملًا فيما كان في الإمكانِ فِعلُه، وما فُعِلَ وما سيُفعل.

بإغماضِ عينيّ في لحظاتٍ كتلك، وبالتزامن مع شرابي كميةً مهولة من القهوة الثقيلة، حتمًا سأهرعُ إلى عالمٍ مُوازٍ، وستنتابني حالةُ التقوقع والانغماس في الذات العميقة كما كل احتشادٍ شعوري، فأغدو أكثرَ تخيليّة.

وبالفعل، كان ذهني مُسترخيًا حينها، مستعدًّا لرحلة إلى أقاصي مناطقه المُشِعةِ المدهشة، بعدما خلا من المُنغصات بمفعول الكافيين السحري، رحلةٌ إلى أغوارٍ بعيدة وعصورٍ سحيقة، وربما مستقبلٍ مُتخيّل!

قلتُ لنفسي - أم أنها قالت لي لا أدري؟! فالأمر سيان- شُدّ حزامك، فسنهبِط بعد قليل في جزيرةِ الخيال، وتحدثُ جلَبة. وتقبُع جزيرة الخيال - إذا كنتم لا تعرفون- في لُبِّ العقل، في منتصف المسافة ما بين جزيرة المنطقِ وجزيرة اللامنطق.

قلتُ: حسنًا لا بأس، لا مانع لدي - وهذا من غيرِ صوتٍ طبعًا.

ركبتُ بساطِي الريحي طائفًا وتائهًا ما بين فراغاتٍ وفراغات حتى وصلتُ، مارًّا بعوالم ليست بغرائبيّة - في نظري - حالِكة، من ظلامٍ وفراغ!

لم يرقني بِساط علاء الدينِ هذا، فقلت: فلأُغيّره بشيءٍ آخر.

انزويتُ في أقرب ركنٍ من أركان الدائرة المخيّة الأربعة إليّ!

دائرةٌ مخيّةٌ بأركان؟ همممم!!!!

ضخّمتُ جسمي، ونبت لي جناحانِ يطيران، من غير رفرفةٍ ولا يُرَيان، طفتُ بهما في الفضاءِ على عجل لاختبر فاعليّتهما.

جلستُ القرفصاء في منتصف مجرتِنا ألتحِفُ دِثارًا ثلجيًّا، يُخفِّفُ عني صقيع الشمس التي أجلس إزاءها، ليُحيله زمهريرًا مع بعض الدفء، أُؤدّي طقوسًا غير مسبوقةٍ ولا معهودة!

تنقّلتُ ما بين المجرات بثورٍ أورق، قرناهُ من زُمُرُّد، ثم بحصانٍ تام الشبه بحصان طروادة، إلا أن هذا ليس خشبيًّا إنما بلّوري، كنتُ أتبخترُ به أمام اللاشيء، حوتُ العنبرِ البلاتيني الذي ظهر أمامنا لم تعجبه هذه البخترة، كاد أن يلتهمني وحصاني، إلا أنني بسيفي الذي استعرته من دون كيشوت، قتلتُه، بطعنةٍ واحدة.

ثم بغتةً، وجدتني أتسابقُ مع السراب في الصحراء على متن غواصة، وكأنّ هُناك صوتًا صادِرًا من جوفِ عقلي سأل: على متن غواصة؟ ما هذا الهُراء! غواصةٌ مائية في الصحراء، لتدرك السراب.

قُلت له: ليس ذنبي، إنهُ وحيُ المُخيّلة يا صاحبي!

أمعنتُ النظرَ في القمرِ الذي كُنتُ أرمُقُه من شرفتي الضاجة بالسكون. وبعدما اقتربتُ منه وقابلتُه وجهًا لوجه وسبَرتُ غورهُ وجدتُه قيعانًا ونتوءات وحُفرًا، لا كما يُرى من بعيد، مُكوّرًا مُضيئًا مُتّسِقًا، مضرِبًا للمثل في البهاء، أضحى لي مثَلُه كمثل الشخصِ لا يُعرفُ جوهرُه ما لمْ يُعاشر.

قلتُ: تبًّا إن المظاهِرَ لخدّاعة!

في البقعة التي هبط فيها نيل أرمسترونغ ورفاقه، آثارُ أقدامهم وجدتها كما هي، إذ لا رياح تمحو أثرها، لا سيارات لا أناس يطأونها، لا شيء. رمقتُ هذا المنظر من علٍ، فبزغ المؤمنُ بنظرية المؤامرة داخلي، وقال: لا تصدقهم يا غبي، لا يخدعنّك، كان ذلكَ في صحراء نيڤادا!

أمعنتُ النظر في أفق هذا الكون الممتد أمامي، هذا الكونُ الفسيح، أشعرني تأمُّل تلك النجوم فجأةً بضآلة حجم مشكلتي وكل مآسِي الحياة الأرضية تمامًا كما شعر المسافر عبر آلة زمن هربرت جورج ويلز قَبلي، إلا أنه لا مُشكلةَ لدي.

عدّلتُ قوانيني الفيزيائيةَ مرةً أخرى، فصِرتُ طيفًا شبحيًّا لا لون له ولا رائحة مع إبقائي لخاصيةِ الطيران تِلك، نزلتُ إلى كوكبنا، معقلُ المآسي والمشكلات، طفتُ في الكوكب شمالًا وجنوبًا، شرقًا وغربًا، مررتُ بأُناسٍ كُثُر، رأيتُ الفقر يمشي على رجلينِ هزيلًا بائسًا بين الأزِقة الضيّقةِ والبؤرِ المُعتمة المُعدمة، والضياعِ الرثّة.

رأيتُ تجسيدات الشرّ البغيض والظلم والحنق - أُناسًا ومعاني- يمشون في الطرقات، مربّتين على أكتاف إخوتهم، الغِل والحقد والكراهية، غادونَ جميعهم في زيارة للبؤس والعنت، يقهقهون بصفاقة، بضحكاتٍ سمِجة، ووجوهٍ عابِسة بأجسامٍ من هُلامٍ مُقرِف، يُجسّدهم أيّما تجسيد.

ذلك الرجل الذي صفعته الحياة بقسوة، وجدته يتلفّت، يمنةً ويسرة، يتأكد من خلو المكان ألّا أحد يراه، يدخل يده خِلسةً، يُخرج شيئًا ما من سلة القمامة. يجلس على الأرض، يسند ظهره إلى الجدار، ثم يشرعُ في الأكل بنهم، يلتهم ما تبقى من فضلات ذلك الطعام المرمي في القمامة.

وتلك العجوز، سألتهُ:

إلى أين نحن ذاهبان؟

ليس المكان بعيدًا يا أمي.

زجّ بحاجيّاتها في صُرّة، رماها في مؤخرة السيارة.

تمرُّ دقائق.

- لم تخبرني يا ولدي، إلى أين نحن ذاهبان؟
- لقد اقتربنا.

فلم تسأله ثانيةً.

توقفت السيارة، دخلا، أجلسها على مقعد منعزلٍ عن بقية الناس.

قال لها:

انتظريني هنا، سآتي بعد قليل.

أكمل ما تبقى من الإجراءات، أشار بإصبعه نحوها.

تحرّكت السيارة مبتعدةً عن المبنى الذي كُتِب على لافتته دار العجزة، ولم يعد الولد بعد ذلك أبدًا.

وفتًى صغير، لم يذهب مع أقرانه إلى الملهى، قال لهم: معدتي تؤلمني، لذا فبإمكانكم الذهاب من دوني.

ولم تكن معدته تؤلمه، إلا أن أباه لم يعطه النقود التي سأله إياها لذلك، وأبوه معذور، فلم يكن ذلك لرفضٍ منه، فقط لأجل أنه لا يملك إلا ما يكفيهم لليومين التاليين، والثالث في علم الغيب.

تلك الجلسة، حينما جمعتهما، يغشى روحها ذلك الحزن الأسود الموجع، الذي يظهر جليًّا على قسمات المُحيّا.

قالت بصوتٍ مكسور: قولا لي الحقيقة؟ هل أنتما أبواي؟

... بكيتُ كثيرًا لكل ذلك، إلا أن عيني الشبحيّتين لم تستطيعا أن تذرّا دموعًا. ورغم هذا كله رأيتُ الصدقَ والوفاء، العطاء والخير والأمل - أُناسًا ومعاني- في جلسةِ وُدٍّ مع الحُب والفرح يضحكونَ مِلء أفواهِهم، من غير كدَرٍ في صفاءٍ بَهِي.

رسمتُ قوسَ قزحٍ بألوانٍ مغايرة، غيرَ التي نعهد! والأمطار التي أهطلتُها بالمقلوب، من الأسفل للأعلى لترجع للسحاب، أصابت الناس بالدهشة.

وقفت بقدمٍ واحدة أعلى قمة برج إيفل ورحتُ أدور وأدور، ولو رآني بعضُ الفرنسيين لحسبوني راقصةَ بالية شبحيّة، ولو رآني بعضُ المتصوفة لحسبوني غوثَ الزمان وَوتدَ الأرض، أنثرُ الهداية في أرجاء باريس، أُمطرُ الرحمات في جادة الشانزليزيه. ولو رآني أنصار أطباق روسويل لسارعوا بالتقاط صورٍ لي، جازمين أنّني مخلوقٌ فضائي، أتيت من كوكبي على متن طبقٍ طائر.

الجيد أنهم جميعًا لم يروني.

أثناء عبوري بلاد الطليان، لم أتناول البيتزا ولا الإسباغيتي، بل فعلت ما هو أهم من ذلك؛ أقمتُ برجَ بيزا المائل على استقامته.

لعبت البليارد بأحجار كوستاريكا الدائرية. فصاحَ لي تمثالُ الحُريّةِ أن أقبِل، لتسمع خُطبتي البليغة فلم أُعِرهُ اهتمامًا، ولحُسنِ حظهِ لم يسمع نداءهُ أحدٌ غيري!

أحسست أنه كان يريد أن يقول لي: يا هذا، مياه مانهاتن أصبحت آسنة.

النقديُّ داخلي سألني: التمثال، صاحَ أم صاحت؟

رمقته بازدراء، وقلت له: من حيث هو كيان تمثال، أم من حيثُ هو تمثال امرأة؟

فكّر في الأمر قليلاً، وقال: أنت أدرى بذلك.

قُلتُ له: اصمت إذن.

حكّ فروة رأسه، وابتسامةُ أسنانه ظهرت من غير إرادته، وقال لي: اعذرني.

أجريت تجربة شرودينچر، ما يُريب... أن قطته لم تكن موجودةً داخل الصندوق، لا حيةً ولا ميتة!

الأغرب من ذلك، أنني حينما أقفلت الصندوق، وفتحته مرةً ثانية، وجدت بالصندوق فيلًا!

قرعتُ الجرس لكلاب باڤلوف، لم يَسِل لعابهم كاستجابةٍ شرطية، بل تبوّلوا، ولم أقدر أن أعرف أو أحدد، أي نوعٍ من الاستجابات هذه؟

ربّيْتُ ظرابين تطلقُ روائحَ عبِقة، ببغاواتٍ تحاورُ وتناقش، لا تكرر ما يُقال فقط. فرقةً كوميدية من القردة، تُسلّي المهموم، تطلقُ النِكات وترقص رقصاتٍ بهلوانية.

جلستُ أرقُبُ بابا نويل عشيّةَ أعياد الميلاد لأساعده في حمل الهدايا التي تُثقِلُ كاهله، لكني لم أجده، فتشتُ جميع المداخن، في فوهة كلِ مدخنة، كنتُ أنادي:

سانتاا...

يا سانتا...

أين أنت.

رجعت بالزمن بعيدًا، غيرَ عابئٍ بتغييره، ويستحيلُ هذا أصلًا - إلّا في مُخيّلتي هذه- ولكن مُعتبِرًا بهِ ومتعظًا. أردفني جُحا في حِمارِه، وأمتعني بحكاويه وطرائفه، شاركتُ في بناء الأهرامات لبنةً لبِنة، بعدها تفرغنا لنحت أبي الهول.

في الزمان الجاهلي، في شبه جزيرة العرب، أقمتُ ماراثونًا وشاركتُ فيه، سمّيتهُ ماراثون الصعاليك، جرينا في أرجاء الجزيرة كلها، ملأ غبار عَدْوِنا الجوّ، فجميع الصعاليك شاركوا في الماراثون، وما لا شكّ فيه أني سبقتهم جميعًا. من صمدوا معي حتى النهاية هم أُطيلس وتوجته بالميدالية بالبرونزية، والسليك الذي توجته بالميدالية الفضية، والشنفرى توجته بالميدالية الذهبية.

بعدها عقَدتُ صُلحًا بين نابليون وهتلر!! لإيقاف الحرب بينهما.

سبب نشوب الحرب، أن هتلر تغزل بـجوزفين. وأفردَ لذلك فصلًا في كِفاحه. مهلًا مهلًا يا مُخيلتي باللّهِ عليك!، ما الذي جمعَهُم؟!

عدتُ إلى حقب الإغريق الأُول، صعدتُ جبل الأوليمب، مسحتُ المكان جيدًا، بحثت عن الآلهة من كثب، لم أجد زيوس ولا بوسيدون، لا أرتميس ولا آريس، لا أبولو ولا أثينا ولا غيرهم.

يا رباااااه، إذن هوميروس كان يكذب.

صاح المتخيليّ داخلي محتجًا: لم يكن يكذب، لقد كان متخيلًا مريعًا، اختلق كل هذا من محض مخيّلته. ففقدانُه قدرة الإبصار الحِسّي، عُوّض بإبصارٍ تخيُّلي، خلق كل هذه العوالم والحيوات والآلهة.

استرقتُ السمع لحوار فيلسوفيْن يونانيّيْن، يلبسان أزياءهما العجيبة تلك، ما يهمنا أكثر من أزيائهما، والأزياء عمومًا لا تكشفُ عن الحقيقة، أنهما تطرّقا للكينونة والصيرورة، للكل والجزء، للدال والمدلول، للذاتيّ والموضوعي. وكُلّهُ لم يشفِ غليلي إلا مقصد الحق والخير والجمال، وجملة واحدة قالها أحدهما:

كلُّ ما سيكون هو كائنٌ الآن، وفي أوانٍ سابق، بأشكالٍ أخرى في أطواره الأولية، وكل ما كان هو كائن الآن في أطوارٍ أخرى.

قلتُ مندفعًا: مهلًا.

فتفاجأتُ بالصوت الذي صدر مني وأنا طيفٌ شبحي، لكني لم أعبأ بذلك، فأتبعتُ ما انقطع من حديثي، وقلت: بورخيس، بطريقة ما أشار إلى هذا المعنى بقوله: «في مكتبي في شارع مكسيكو في بيونس آيرس، امتلك الآن لوحة زيتية سيرسمها شخص ما بعد آلاف من السنوات بمواد تتوزع الآن فوق جميع أنحاء الكوكب» (1).

أحسّا بالرهبة من الصوت الذي انبعث من العدم، فنظر الفيلسوف الأول للثاني في وجل، وسأله:

- هل قلتَ أنتَ ذلك.
- كلّا.
- من قالهُ إذن؟!
- لستُ أدري.
- ومن بورخيس هذا؟
- لم أسمع به.

فقلت لهما: أنا الذي قلتُ ذلك.

في الحين الذي قال فيه الهويّاتي منهما: من أنت؟ قال الشيئيُّ: أين أنت؟

فقلت: أنا أنا، وأنا هنا!

قالا: لكنّنا لا نعرفك، ولا نرى شيئًا.

قال مدعي المعرفة منهما: أنتَ تجلٍ ميتافيزيقي.

قلت: انظرا أيها المتفلسفان وتأملا معي نحن نفكر إذن نحن موجودون. لكن هل الوجود سابقٌ على الماهيّة؟

صمتا طويلًا، وفكرّا.

هِجتُ بهما: ما بكما سكتُّما؟

أصيبا بالذعر من اهتياجي، وقالا لي: أرجوك دعنا وشأننا، ما تقوله لا طاقة لنا به. بربك، قل لنا من أنت؟

فضحكت وقلت: أنا (.....) طاليس.

وعدلت صورتي الفيزيائية، وانبثقت أمامهما من الفراغ، بصورة شبحيّة، لها لون باهت. فقاما من مكانهما على الفور، وجريا بأقصى ما يستطيعان، سقطت الكينونة والصيرورة، المعارف القبْلية والمسلّمات، الحجج المنطقية، وكل ما هو فلسفي [2].

قالت: سمِنتَ، فأين آثارُ الهوى؟

لو كُنتَ تعشقني لكُنتَ نحيلا!

فأجبتُها: كتمُ الدموعِ عن الورى

قد زادَ من وزني فصِرتُ ثقيلا!

فوّاز اللعبون

الطيورُ تصدحُ بتغريدٍ بدائعي، النسائم الربيعية المتمازجةُ بأريج الزهر، والأغصان المتشابكة على شكل أقواس متداخلة، الماء المتدفق من النافورة الحجرية، والشمس التي شرعت تتوارى عن الأنظار بوقار. في هذه الحديقة الغنّاء، رأيتهم يجلسون مثنى مثنى، يأتي زوجٌ، ويمضي زوج، لكن هُنالكَ زوج حيّرني، فقد أفرط في الأمر وأفرط حدّ البلاهة، انتظرتهما طويلًا لثلاث ساعاتٍ وهما في موضعهما ذاته، لم يبرحاه قيد أنملة، يتّضح جليًّا أنهما عاشقان فائقان - في الغباوة طبعًا- لكن أيّة مرتبة من مراتب الحب هذه؟ أهيَ الولهُ أم التتيم؟ الغرام أم الهيام، الصبابة، الوجد، الشغف؟

ليست من بين هذا كله، هذه مرتبة جديدة، وسأسميها الخبل.

ما يهمنا الآن، أن هذين العاشقيْن المخْبوليْن أحيانًا يصمتان ويظلان يحدقان لبعضهما، كلٌ في عمق حدقتي صاحبه التي تمثل نقطة خارج إطار المكان والزمان ولا يريان في الوجود أحدًا سواهما. وأحيانًا يتحدثان بصوت خفيض أخفض من دبيب النمل بألفي ديسبيل.

أقول لنفسي ماذا يقولان يا ترى؟ فلا أعرف أبدًا ما يقولانه، فتقولُ لي نفسي: لا بد وأنهما يقولان هكذا:

يقول لها:

- حبيبتي، ماذا لو أن البشر الذين معنا في هذا العالم، محضُ أطياف، كائناتٌ لا وجود لها، وأننا نحن فقط، الحقيقة الماثلة.
- يدهشها الكلام اللامنطقيُ المعسول، فتقول له:

- حبيبي.. أنا أحبك حد الجنون؟
- إني أعشقكِ عشقًا لم يعشقه عاشقٌ لمعشوقٍ قبلُ.
- صدقني، أنا أكثر.
- بل أنا أكثر.

يقطفُ وردةً جوريةً من جيبه!

يقوم من المقعد، يضع رجله اليمنى به واليسرى على الأرض، يضع الوردة قبالة وجهها.

يصيح بأعلى صوته:

- أوااه، سينيوريتااا.
- يا روحي، ما قيمة هذه الوردة، إذا ما قُورِنت مع جمالك؟ ينتف أوراق الوردة، ويرميها واحدةً تلو أخرى. ما قيمة عشق العاشقين إذا ما قارنّاه مع عشقنا، العشاقُ الأفذاذ، من قال إنهم أفذاذ؟ كُلُّهم كانوا مبتدئين، صدقيني روميو وجولييت، قيسٌ وليلى، مارك أنطونيوس وكليوباترا، عنترة وعبلة، زين وممو، وغيرهم، وغيرهم. كُلُّهم كانوا مبتدئين، أما نحن، نحنُ يا عزيزتي، نحنُ بالأساس، نحنُ من علّمَ الغرامَ الغراما، نحن من أيقظ المشاعر في الأرض.. ومن قبلُ كانت نيامًا، وسنمضي إلى النهاية إنّا، نحن من صيّر الحياة هياما (2)، نحن يا دُنياي، سنسطِّر تاريخًا جديدًا من تواريخ الحب.

وضحكتُ بأعلى صوتي - الذي لم يسمعاه بالتأكيد - وقلتُ: حسبكما، حسبكما. أو بالأصح حسبي، حسبي. ثم أزحتهم عن مرأى عين المخيّلة.

وما حاجةُ الدنيا إلى صوتِ شاعرٍ

يُعيد معادًا قِيلَ قبلًا مُردّدا

وما الشعرُ إن لم يقتلعنا لبرهةٍ

عن الأرض... إدهاشًا، حضورًا، تمرُّدا

[روضة الحاج] [3]

أنشأت مجمعي الأدبي، دشّنتهُ بمؤتمر عالمي على غرار المؤتمرات العالمية الحديثة، جمعتُ جمعًا غفيرًا من الأدباء من مختلف العصور، تناقشوا عن أدبهم، عن دوره وقضاياه، ورسالته في الحياة. الكلاسيكيون منهم، والرومانسيون، الوجوديون، السرياليون، الواقعيون، الرمزيون، الطبيعيون، ودعاة الفن للفن، واللامنتمون.... وغيرهم.

ومن ضمن فعاليات هذا المؤتمر، كان سوق عكاظ، حضره شعراء من أزمان شتى، ألبستهم ألبسةً أنيقة، بذوقٍ رفيع يتواءم مع طراز المجمع الفخم، ولم أنسَ ربطات العنق بالتأكيد، حتى للأجلاف منهم.

أنشدوني شعرًا كثيرًا، شمل كل بحور الشعر. جاريتُ شعراء كثيرين، وفي ليلةٍ بهيّة، جاريْتُ المتنبي في بلاط أعد خصيصًا لذلك، جعلته كبلاطِ سيفِ الدولة، وبعد أن تفوقت عليه في المجاراة أكثر من مرة، قلت له: وداعًا تيسَ سيفِ الدولة. بدت بعض الدموع في عينيه، وقال لي:

- أخزاك الله، لم أكن تيسه.
- لكنك مدحته بما ليس فيه.

قال: في هذه صدقت.

وسكتَ، وغادر مجمعنا.

أثناء سوقي العكاظية الحديثة هذه، تبيّن لي أن الشعر كُلَّهُ من لدُن أوّلِ شاعر في هذه الأرض إلى من يكتب أبيات شعرٍ الآن في هذه اللحظة، لا جديد فيه، لا شيء يختلف. يدور ويدور، يعاد ويعاد بصور شتى، لكي يحاول في نهاية المطاف أن يتصيد ذلك البيت الفريد، سر الشعر المنشود، تلك البيوت البديعة، التي تجسد الإبداع البشري، تمثل حالة تفرد، تحمل آلافًا مؤلفة من المعاني.

في أثناء ما ينشد الشعراء شعرهم، أتى أحدهم لينشد شعرًا، كما ينشد الآخرون، أذعن له الناس فبدأ ينشد، استغرب الحضور كلهم. ما هذا الذي يتفوه به هذا الرجل؟

لم يرقهم شعره أبدًا. قالوا له:

- أأنتَ واثقٌ أنّ هذا شعر.
- نعم، هذه ما تعرف بقصيدة النثر.

ففتحنا أرشيف إلهامات الشعر؛ قصيدةُ النثرِ الأولى. وجدناها على شكل حكاية، وهذا ما جاء فيها:

هل تعلمون أن المعلّقات السبع (3)، في الأصل ثمانية، نعم إنها كذلك...

في زمانٍ غابر، في بلاد الشام، في السوق خيامٌ متراصةٌ على امتداد الطرقات الضيقة، قناديل معلّقة، وبضائع شتى، أُناس كُثُر يزحمون المكان، نساءٌ سافرات، وأخريات متبرقعات، ورجالٌ ذوو سحناتٍ متباينة، ومبانٍ عتيقة، ما صمَدَ منها في وجه عداوة الدهر، يعتبر اليوم آثارًا.

يصيح منادٍ بصوتٍ عالٍ: سمنٌ وعسل، سمنٌ وعسل.

ويصيح آخر: بقلٌ وشعيرٌ وبُر، زيتونٌ وزبيب وكل ما طاب يا أحباب، متاعُنا نِعمَ المتاع، وسنملأُ لك الصاع.

وآخر: أوانٍ فضيّة وحُليٌ ذهبية، هلمّوا هلمّوا، أقمشةٌ فارسية، ديباج، قطائفُ مخمليّة.

ابتاع التجار بضاعتهم وحمّلوها القوافل، ثم قفلوا عائدين إلى باديتهم، طريق العودة شاقٌ ومقفر، صحاري تمتد على مد البصر، سرابٌ يلوح في الأفق، وكثبان الرمل تتسيّدُ المشهد، القوافلُ تسير خلف بعضها متهاديةً مع ترانيم حاديها.

الناثري، التاجرُ النجدي، كان في مؤخرة هذه القوافل، لم يدُر بِخَلَده أنّه حينما يعود من هذه الرحلة، سوف يأتي بنوع جديد من الشعر.

قرروا أن يتوقفوا لبعض الوقت، قبيل المغيب، ثم يواصلوا المسير ليلًا ليستجموا قليلًا، هُم ودوابهم أناخوا مطاياهم واستراحوا.

حينما عاودوا المسير، كانت دابةُ الناثري تبطئ في مشيها على غير العادة، قليلًا قليلًا، إلى أن بركت على الأرض، وأبت أن تتحرك، ظل يراودها عن نفسها لتقوم، فأبت إلى أن قامت بمحض إرادتها عندما يئس منها تمامًا، بعد مُضِيّ فترة غير قصيرة من الوقت.

حينما أراد اللحاق بالركب الذي لم يفقده، أضاع الطريق، ظل يهيم في الصحراء، يترنم بأبيات من الشعر الركيك الذي يجيدُه، ولم يعلم أنه ولج وادي عبقر.

في ذلك الليل الأدعج، بدأ يتراءى له بوضوح، شيء ما يتشكّل أمامه، تتصاعدُ أبخرة ودواخين، يظهرُ أمامه مخلوقٌ له قرنان، وله ذنب. ذُعِر الناثري.

قال له:

- لا تَخَف؛ فأنا نثرون، لا أؤذي أحدًا. خصوصًا وأنّي أُعجبت بشِعرك.

فتماسك الناثريُ وسأله:

- حقًّا.
- بلى.
- -لكنك: جني وأنا إنسيّ.
- نعم، لكن أنا نثرون، من آل شاعرونَ ناثرون.. وأنت ناثِري، من بني شِعر بن نثر.
- كيف عرفت اسمي؟!
- دعنا من هذا.

لقد صغتُ معلقةً جديدة، انتهيت منها للتو، وبعدما سمعتُ شعرك، آمنت أنك أحق الناس بها، اسمع:

في أوج الهجير، يحسبُ الناس الرمضاء، العُقاب فوقنا، كان الختن والنجل وكانت العقيلة، ما بسويداء الفؤاد، تخثّر، أما إن الحزّ والغمط والوهاد، آهٍ من ليثٍ غضنفر، ذاك.. لله درُّه. أتعذلني؟ الخَوْدُ، ما الخَوْدُ وما الخريدة، الفتاة العُطبل، أتحسبني، هرق الماء، الجون، الكرى، أصطلي بنار العذاب، مع الشفق، ثم الغسق، هب أنني.... إلخ

يا ألله، ما أبدعك! حقًّا أنا أحق الناس بها، وسأعجزُ بها قومي.

بعدما وُهِبَ الناثري، معلّقةَ نثرون، قال له نثرون: امتطِ الدابة يا ناثري، ففعل، وسأله: أأُرجِعُك على متن غيمة، أم أحملك حملًا؟

- أُفضّل أن تحملني.

وضع الجني الدابة في باطن كفّه، طار به قريبًا من الديار، وأنزله هناك، ودّعه واختفى.

حينما رجع الناثريُّ إلى الديار، حمدتْ عشيرتُه اللهَ على عودته، وفي الصباح جمع وجاهات القوم، لينشدهُم شعره الجديد، أذعنوا له أسماعهم.

وبدأ ينشد...

في أوج الهجير، يحسبُ الناس الرمضاء، العقاب فوقهم، ....

بدت علامات الريبة على وجوههم، تبادلوا النظرات، ضرب كل واحد منهم، كفاً بكف. قال أشعرهم: ما هذا يا ناثري؟ تالله ما هذا بشعر.

صاح القوم ودار اللغط بينهم. قال أحدهم مزمجرًا: فضّ فوك، واللات والعزى، هذه هرطقةٌ شعرية.

استلّ أرعنُ القوم سيفه من غِمده، قال له: ثكلتكَ أُمُّك، أتريدُ أن تعيّرنا العرب؟ فأرداه قتيلًا.

قد تقولون إذن فقد مات بموته ذلك النوع من الشعر، لكنه لسوء الحظ، لم يمُت بموته، فالناثري كان قد كتبه في رقعةٍ من الجلد، توارثها الوارثون جيلًا بعد جيل، إلى أن انبعث للحياة في هذا العصر هذا النوع من القصائد.

انقضت أيام المؤتمر، وانفضّ أدباء المجمع الذين دعوتهم. عدتُ بالزمن إلى زماني الذي جئتُ منه، ثم همَمْت بمغادرة الكوكب مجددًا، كان الوقت ليلًا، ليلٌ ساكنٌ هادئ، بينما أنا صاعدٌ إلى الأعلى، جذبتني جسيمات الضوء المنهالة في الفراغ، لم أعرف مصدرَها، لكنها كانت تنتهي عند نافذة ما، فتتبعتها.

نظرتُ عبر النافذة، رغم الإضاءة الخافتة، رأيتُ أن جسيمات الضوء تنتهي عند أسطرٍ في ورقة! تعجّبت، أهذا السناء والبهاء، يُحال إلى كلمات؟!

فاستدركت: آاااهاااا، لا بدّ وأنه الإلهام الذي يحكون عنه.

عبرتُ زجاج النافذة - فمَاهيّتي شفيفة - كان ذلك الشابُ يكتُب بشغف، بلهفة، يراعُ الرصاص يصدر صريرًا على الإضبارة المكتظة بالكلمات المبعثرة على جنبات الورقة، والعبارات المشطوبة والملغية. لكيلا تفلت الأفكار، تحدثه نفسه أن هذا هو النص المنشود الذي يبحث عنه.

قرأت نصه المزعوم هذا، لاحظتُ أنه يحوي تفردًا ما، ولجت إلى عقله، وقلت له: نصوصُك بديعة. وحينما ذهب إلى الفراش، وآوى إلى النوم، دخلتُ مركزَ الأحلام لديه، وصنعتُ لهُ حلمًا؛ شكّلتُ أشباح أبرع الكتاب الذين قرأ لهم، الكتابُ العِظام، حشدتهم أمامه، أجلستهم على طاولةٍ مستديرة، وجعلته يحدثهم وجهًا لوجه، بفيضٍ من الغبطة والسرور، سألهم عن أسئلةٍ كثيرةٍ تشغل باله، من ضمن ما قاله لهم: أنتُم يا سادتي تكتُبون، ونحن نحاولُ جاهدين أن نفقه كُنه الجمال الذي تكتبون به. بربكم أيّة حالٍ تعتريكم وأنتم تمسكون اليراع؟ أتكونون في حالةٍ جسمانية مادية مثلَنا؟ أم أن أرواحكم ترتقي وتحلق إلى آفاق بعيدة؟

قالوا له: بالطبع، تلك درجة عالية، تلك التي نكتب بها، وتلك حالٌ فريدة، لا يتأتّى إلّا بشِقِّ الأنفُس، وسُمُوّ الأنفُس.

وسألهم أيضًا، أخبِروني، لم نحن نكتب؟

قال الإنسانيُّ فيهم: نحنُ إذ نكتُب؛ ننشدُ الجمال، جمال الكونِ والكائنات، جمالَ الأحياءِ والأشياء، جمال الأنفُسِ والسرائر، نقتفي أثره، في طيّات الوجود، نقطفه أزهارًا يانعة من بساتين الحياة.

لنترقّى في المدارج حتى نصل إلى كُنه المعنى، معنى الحياة الماتع، لنرسي دعائم اليوتوبيا في هذه الأرض، لنعيش بنيرڤانا الروح، ونمسكَ لُحيظات الفرح.

القفزةُ بين النجوم لا تتم على الفور ما دامت سرعة الضوء محدودة. لا يمكن للحياة أن تستمر... المادةُ والطاقة في هذه الصورة لا يمكنهما الوجود في الالتواءِ الفضائي. [أنا روبوت - إسحق أسيموف] [4]

رجعت بالزمن مجددًا لحِقب الحياة القديمة، راصدًا تطوُّرَ أساليبِ الإنسانِ المعيشية، منذ إنسانها البُدائيِّ الأول إلى إنسانها المدنيّ الأخير، واستشرفتُ آفاق المستقبل الذي لم يُشابِهُهُ أيّ عصر من العصور التي مضت.

نشبت حربٌ عالميّةٌ ثالثة، فأخمدتُها قبل أن تستعِر. كانت حربًا بيولوجيّةً نوويةً مُرعبة، القنابلُ الذرية، والصواريخُ المحمّلة بناقلات العدوى، والأخرى المحملة بالسموم، أشعرتني بالرهبة.

وذُعِرت جدًّا ممّا ستؤولُ إليها الحالُ على هذا المنوال؛ فالناس هنالكَ في مستقبلٍ قريب كانوا أناسًا يعيشون فقط، لا يحيون، وبئس حياةٍ لا حياةَ فيها.

وضعتُ عدة سيناريوهات لنهاية العالم؛ الشمس التي انطفأت، وقودُنا الحيوي، فهلكنا جراء ذلك. أو تحولها إلى مستعرٍ أعظم وهلاكنا جراء إشعاعها الشديد، أو ارتطام جرمٍ ضخم بالأرض. وسيناريوهات أخرى، لكن السيناريو الأكثر تخيلية ظهور ماردٌ كونيٌّ في نظامنا الشمسي من رحم ثقب أسود، يعيث بالمجرة فسادًا.

مهلًا!!!!

لكنهم قالوا إنه ليس هناك شيء في هذا الوجود - حتى الضوء - يمكنه أن يفلت من شَرَك الثقب الأسود!

هذا لا ينطبق على المردة يا مُخيّلَتي؛ فالثقوب السوداء بالنسبة للمردة أماكن مألوفة، هي ليست بوابات مكانية ولا بوابات زمنية، فهي لا تذهب بهم للمستقبل أو تُرجعهم للماضي كمساحات ينثقب فيها نسيج الزمكان فتتيح الانتقال لأمنكةٍ مُتعدّدة، وأزمنة متعددة، عبر طي المسافة بينها، بالأخذ في الحسبان، زمان أو مكان نقطة الانطلاق.

إنما هي مساكن المردة، بيوتُها.

ماذا؟!

مساكنُ المردة؟!

كيف هذا يا مخيّلتي؟!

حسنًا.

حينما يريد المردة أن يأووا إلى منازلهم، بعد يومِ عملٍ مرهق، يقفزون في أفق الحدث، كسباحين ماهرين، يواصلون العوم حتى يصلوا إلى قاع الثقب عند المتفردة (4)، يتكورون على أنفسهم، يتحولون إلى جسيمات بالغة الصغر فيمتزجون بالمتفردة، ويقبعون هنالك في صورةٍ جسيميةٍ دون ذريّة.

قلتُ: حقًّا؟!!

صمتت المخيّلة لأول مرة.

وطال الصمت.

فقالت: دعنا من ذلك. ولنواصل ما افترضناه بخصوص المارد.

هذا المارد.. فريدٌ من نوعه، وهوَ ليس كـميكروميغ اس ڤولتير، الذي يتنقلُ من كوكبٍ إلى كوكب، كالطائرِ من غصنٍ إلى غصن ويعبر المجرة بوقتٍ قصير، بل هو أحذقُ منه، ولا يساوي ميكروميغ اس أمامه شيئًا.

لم يرَ هذا المارد درب التبانة منذ زمن طويل؛ فقد كان في سباتٍ عميق دام ملايين السنين، داخل ثقبٍ في حافة المجرة، آخرُ ظهورٍ له كان برفقة أخيه الأكبر، وجد تغيّراتٍ كثيرة قد طرأت، كواكب كثيرة امحقت، ونجومٌ ضخمة فنَت.

أحسّ ببعض الجوع من قبيل ذلك الذي تشعر به الحيوانات التي تتخذ بيوتًا شتويًّا، فلم يجد طبقًا أشهى من المشتري في مائدة درب التبانة الممددة أمامه. فأخذهُ بإصبعيهِ السبابة والإبهام ورماه في جوفهِ كحبة سكاكر، لكنه وجد صعوبةً بالغةً في ابتلاعه، لكِبر حجمه.

ولم يشبع فأعقبه بالمريخ، فهدأ روْع جوعه قليلًا، وبعدها تجشّأ فاضطربت المجرة كلها.

لمّا أحسّ بالملل، قرر العبث واللهو لبعض الوقت، لعب بعطارد ككرة الطاولة بين كفيه ثم ركله بقدمه - ككرة قدم - بقوة خارج المجرة، وأحرز هدفاً في شِباك المرأة المسلسلة.

آاه، مسيكنٌ ميركوري!

أحدثت سرعة التحرك بالكوكب احتراقًا، فصار كشهابٍ ضخم يسري في السماء ويُرى بوضوح من الأرض، ويكاد سنا برقه يذهب بالأبصار.

ازداد ملل المارد مع مرور الوقت فأخذ بلوتو وقذفه في الزهرة، فحدثت موجةُ صدمية حرارية، جراء الفرق الهائل في درجة الحرارة بين الكوكبين فتفتتا وصارا هشيمًا تذروهما الرياح الكونية.

حينما قرر الرحيل أخيرًا، رمق زحل بنظرة غيرة، تلك التي لا نشهدها إلا بين الفتيات الأغرار، فاقتلع منه حلقته الجميلة تلك [5]. ولبسها خاتمًا في إصبعه الجسيم.

لم يجرؤ على المساس بالأرض لرهبةٍ شديدة سرَت بجسده لم يدر ما سببها؟ ولو سألني لأخبرته أن القشعريرة التي سرت في أوصاله، إنما هي ....

عذرًا، لستُ أدري ما سببُها؟!

اسألوا مختصًّا بعلم نفسِ المردة!

بعدها عاد إلى الثقب الذي خرج منه، ورحل غير مودّع.

أدّى جوعُه ولَعِبُه الصبياني، لحدوث انبعاجات في النسيج الكوني - أو فلنسمِّه الزمكان الآينشتايني- وزلازل وعواصف، وصواعق رعدية من رزم الطاقة واستعارٍ في لهيب الشمس أثناء ذلك اللعب وبعده استمر لعدة سنوات.

اضطربت أجواء الأرض اضطرابًا شديدًا بفعل تقلبات درجات الحرارة، شيء من خسوفٍ يعقبه كسوف، وشيء من احتباسٍ حراري مفرط تعقبه عواصف ثلجيةٌ مريعة.

حدثت ظواهر طبيعية جديدة، لم تسبق أن حصلت ولم تُرصد من قبل، بعدما زاد قرب الأرض من الشمس، صارت السنين تمر كأنها عدة أشهر، وكانت الأرض تعوي عواءً، انفجرت البراكين، طغى الماء على اليابسة، وظنّ أهلُها أن قيامتهم قد قامت وأنّ الكوكب سينفجر أو تبتلعه الشمس، أو أية نهاية أخرى من هذا القبيل المأساوي، ولو لم يكن الكوكب الأحمر في معدة المارد الآن، لكان وجهتهم الأولى.

لحسن الحظ أحدَثتْ الدمعات التي نزلت من عينيه عندما سرَت بجسده تلك الرهبة، خمودًا كبيرًا بوهج الشمس ولهيبها وإلا لما استطاع الجنس البشري البقاء على قيد الحياة في ذلك الحين.

ورغم كل هذا اللغط وكلِ هذه الفوضى الكونية، ثمّة أمران يستحقان الوقوف عندهما، الأول أن المشهد كان موثّقًا؛ فالإعلاميّون مهما يكن لا يُوفوّتون شيئًا.

والثاني أنّ فئةً من العلماء وبعض الفلاسفة، جُنّ جنونهم، إذ ظلّت تدور في أذهانهم أسئلة كثيرة، نشِطَت بصورةٍ هيستيرية في أذهانهم بظهور المارد، أرادوا أن يسألوه عنها، لكن لم يتسنّ لهم ذلك. تلك الأسئلة من قبيل، هل بإمكاننا تجاوز سرعة الضوء؟

ماذا يوجد داخل الثقب الأسود؟

وهل هُنالك شيء بعد المفردة؟

ماهيّةُ السماوات السبع؟

ألهذا الكون نهاية؟ فالتوسّع المستمر لهذا الكون يرجح بشدة فكرة أن تكون له حدود وتكون له نهاية.

ولو كان كذلك ماذا بعد هذه الحدود؟

هل ما وراءه العدم؟

وأسئلة كثيرةٌ جدًّا لا حصر لها.

لكن الأهم، سؤالٌ واحد فقط، الهاجس الذي يشغلهم، ويشغلنا، طوال الوقت في كل عصرٍ من العصور؛ هل من كائناتٍ حيّةٍ أخرى تعيشُ معنا في هذا الكون المهيب؟

والخاتمةُ النهائيّة هي أننا نعرفُ القليلَ جدًّا، ومع ذلك فمن الغريب أن هذا القليل جدًّا كثير، وأغرب من ذلك أن هذه المعرفةَ القليلة جدًّا يمكن أن تعطينا كل هذه القوة. [ألف باء النسبية - برتراند رَسِل] [5]

من قلب الفوضى ينبعثُ النظام، وحينما نعبثُ بالأشياء تتضح لنا أشياءُ جديدة، نلمحُ لمحاتٍ من الصورة الكاملة.. من زوايا عدة، نشهدُ المشهدَ البانورامي. من جزيئات الفسيفساء المبعثَرة التي لا توحي بشيءٍ وحدها، تبزغُ لوحةٌ أخّاذة.

نُجرِّب ونُجرّب.. بِكُلِّ الاحتمالات الممكنة، حتى نصل إلى النتيجة الأكثر قربًا. من يعبثُ يصل للنظام، بطريقة مشابهة، لِـ من يُخطِئ يصل إلى الحقيقة، كما أقر دوستويفسكي في جريمته وعقابه: إنّ الخطأ هو الميزةُ الوحيدة التي يمتاز بها الكائن الإنساني على سائر الكائنات الحيّة. من يُخطِئ يصل إلى الحقيقة.

على طرق هذه الأفكار أبواب عقلي، صحوتُ من تطوافي الخياليّ المريع بعدَ أن حططتُ رحالي في جزيرةِ اللاعبث مكتفيًا بهذا القدر من العبث! بالتزامن مع آخِر قطراتٍ من وقود الإيماجينولين الذي يُشعِلُ مُخيّلتي شطحًا، كادَ عقلي أن يصدر صوتًا ضاحِكًا بشدة، لما أحدثتُه من عبثٍ ولهوٍ واضطراب في مراكز المنطق لديه، وأن يفكر في كل ما دار برَحاهُ، وأن يبكي أيضًا، وأن يتأمّل، وأن يسلك عدة مسالك، ويتصرف عدة تصرفات، لكنه كان متعبًا، فألقى بكل ذلك في لاوعيه ليختمر ببطء، وأوكل له كل المهام التي أراد أن يقوم بها، وذهب ليستريح.

أما أنا فقد لُذتُ بالفرار إلى الفراش لكي ينام عقلي هانئًا، وعلّني حين أستيقِظ يكونُ خزانُ وقُودِي ذاكَ قد أُعيد ملؤُه لأعبثَ وأتخيل، وأفترض وأفتعل من جديد. نِمتُ وكأنّ شيئًا من كلُ ذلك -البتّةَ- لمْ يكُن.

الهامش:

[1]: من قصة (يوتوبيا رجل متعب).

[2]: هذه الأبيات للشاعر سيد أحمد الحردلو.

[3]: المعلّقات: هي قصائد طويلة، تعد أفضل ما قيل من الشعر في العصر الجاهلي، وهي قصائد كل من (زهير بن أبي سلمى، امرؤ القيس، الحارث بن حلزة، عمرو بن كلثوم، عنترة بن شداد، لبيد بن ربيعة، طرفة بن العبد)، ويذهب البعض إلى أنها عشرة وليست سبعة.

[4]: بنية الثقب الأسود: قرص في الجزء العلوي يسمى بأفق الحدث والنقطة عالية الكثافة في نهايته، والتي تعرف بالمفردة أو المتفردة.

[5]: بالأصح: هي نظام كامل من الحلقات تشكلت من عدد هائل من الجسيمات الصغيرة، تتكون نسبةٌ كبيرة منها من الجليد، ومن الفتات الصخري. ويُعتقد بأنها بقايا قمر قديم للكوكب.

القصة الثالثة: شهادة حب

تأليف: عبد الصادق السرواي

الدولة: المغرب

شهادةُ حُب

روحي ترفرف وسط فوضى كونية، في عوالم ملغومة، ليست سماء وليست أرضًا، كان عالمًا غامضًا وملغومًا كالسحر. وحيدًا أمضي في هذا الغموض، أخبط خبط عشواء في العتمة ولا شيء أتحسسه من حولي غير العدم. يظهر أمامي فجأة طيف امرأة، امرأة تخفي ملامحها عني، تمشي أمامي في غنج، تمضي على أطراف أصابعها في ثبات، مولية ظهرها عني تجر من ورائها ثوبًا حريريًّا ملائكيًّا مرصعًا بالنجوم المتلألئة. ثم أمضي من ورائها أتبعها، أهرول متلهفًا لاكتشاف ملامحها فلا ألاحقها. أخِرُّ ساقطًا فأحبو على أطرافي الأربعة كرضيع وراء ذلك الطيف الملائكي وهو يبتعد عني، ثم يختفي ليذوب في الظلام فجأة كما ظهر، تتملّكني رغبة جامحة في الصراخ، لأفتح عيني على بياض سقف الغرفة.

أدركت بعدما استرجعت أنفاسي أنني كنت غارقًا في كوابيس مزعجة فلعنت الشّيطان في سرّي. لم أشغل تفكيري بذلك الطيف. تناسيته وجلست على حافة السرير أحاول تصفية مزاجي المخربق هذا الصباح على غير عادتي. عينان ذاويتان وجسدي ثقيل كصخرة صمّاء لا أقوى على تحريكه. نظرتُ إلى السّاعة الحائطية البكماء، لم يتبق عن موعد العمل سوى ساعة إلاّ ربع. فكّرت في أن أجري اتصالًا بمدير مكتب الجريدة أخبره أنّني متعب لن أستطيع الذّهاب إلى العمل هذا الصّباح، غير أني تراجعت عن هذا القرار، وجاهدتُ نفسي على النهوض. بادرت بحمل جسدي الثّقيل بجهد قاهر، قصدت الحمّام، رتّبت هندامي، ارتديت ملابسي في عجل وحملت محفظتي وهممت بالخروج مؤجّلًا وجبة الفطور الخفيفة إلى مقرّ الجريدة.

عند عتبة الباب، وجدت ساعي البريد قد رمى لي من أسفل الباب الحديديّ الصّدئ بظرف ومذكّرة ملفوفة في غلاف جلديّ أنيق ونفيس، لعلّه كَلَّ من طرق باب الغرفة بينما كنت في سبات عميق، غارقًا في تلك الكوابيس الملعونة، فقد اعتاد أن يطرق الباب ليسلّمني رسائلي يده إلى يدي ويلقي عليّ تحيّة الصّباح قبل أن يمضي لبقيّة يومه .

التقطتُ الظّرف والمذكّرة من على الأرض، الظّرف لم يحمل اسم المرسل أو أيّة إشارة تدلّ عليه غير اسمي أنا المرسل إليه وعنوان سكناي. فتحتُ في تطلّع إلى أول صفحة المذكّرة، ليشهد الحبُ... هكذا كتب العنوان على الصّفحة الأولى بلون أحمر بارز عريض. طفقتُ أبحث على غلاف المذكّرة عن اسمٍ أو توقيع أو إشارة تبيّن مصدر المذكّرة، فلم أعثر على أية إشارة من ذلك غير العنوان اليتيم!

تملّكتني الدّهشة والاستغراب، فبادرت إلى فتح أولى صفحات الكتاب لأقرأ بخطّ ليس غريبًا عنّي :

إهــــداء...

هذا كتابي إليك، إليك وحدك، ليشهد الحبّ أنّي كنت مخلصة لك وصادقة في حبّك، وليكون شاهدًا على ذلك أمام التّاريخ وأمام الله ...

أحسست بقطعة حديد غُرِزَت في قلبي وأصِبتُ بدوّار خفيف، حاولتُ أن أتماسك جسدي اتّقاء السّقوط. آهٍ يا هاجر، لقد أيقظت جراحًا خلتها قد اندملت، وأشعلت فتيل الذّاكرة بنار مؤجّجة. بعد هذه المدّة التي حاولتُ أن أغيّر مكانك في الذّاكرة، وأن أعيد ترميم دواخلي بالوصفات الطبيّة، وحصص التنويم المغناطسيّ والعلاج النّفسي، وبالأدب والشّعر كي أتناسى؛ لأنّ ما يوشَم على الذّاكرة وينقش عليها لا ينسى إلا بالموت، ها ذكراك المدفونة في تابوت الماضي تبعثينها من جديد.

عدتُ أدراجي إلى الغرفة بالسّطح منكسرًا، وضعت المذكّرة والظّرف على الطّاولة، ورميت بجسدي الثّقيل على الأريكة. حين التقطت أنفاسي، أخرجت هاتفي النّقّال لأجري اتصالًا بمدير الجريدة أخبره أنني لن أستطيع الحضور للعمل هذا الصّباح، كما فكّرت أوّل ما استيقظت.

هاتفته، وجاء صوته دون طول انتظار:

- صباح الخير سي وديع
- صباح الخير سيّدي المدير
- ما بال صوتك على غير عادته، وكأنّي بك متعب!
- نعم سعادة المدير، أحسّ بتعب شديد، ولهذا اتصلت بك لأخبرك أنني لن أتمكّن من الحضور إلى العمل اليوم.
- كنت انتظر وصولك، لدينا مقالات كثيرة تنتظر التّحرير، لكن راحتك أولى عندنا .

لستُ أدري كيف جاءتني فكرة طلب إجازة استراحة فبادرتُ بالقول:

- لو سمحت سيّدي المدير، أنا في حاجة إلى إجازة، أحسّ نفسي جدّ متعب، أحتاج بضعة أيام للراحة لأجدّد طاقتي وأعيد نشاطي.

تأخّر صوته قليلًا ثم أجاب:

- حقّا لقد اشتغلت شهورًا متواصلة دون أن تطلب إجازة، كنت تعمل في جهد وتتأخر معي في المقرّ، أعلم أنّك تحب عملك كثيرًا، لذلك لن أردّ طلبك رغم حاجتنا الماسّة إليك.

شكرتُ له مدحه وإطراءه الذي لم يحرّك فِيَّ أدنى شعور.

- إذن استرح واستمتع بإجازتك، على ألاّ تطول، فلم نعد نستطيع الاستغناء عنك، مع السّلامة.
- حسنًا، أشكرك سيّدي المدير، طاب يومك.

هكذا فكّرت في أخذ إجازة، وكأنّي أخرّتها إلى يومها الأَنسب، فالكثير من اللحظات هي ما تختارنا ولسنا نحن من يختارها. وسط هذه الإجازة سأختلي بنفسي بعيدًا عن ضغوطات العمل، لأقرأ كتاب هاجر إليّ. فأنا على علم يقين أنّه سيفتح أمامي نوافذ على

شارع الماضي الممتدّ، وسيطلعني على ملفّات من حقائب الذاكرة، وسيوقظ كثيرًا من الجراح النائمة، كما يشي بذلك عنوانه المُثير ...

هممت بفتح الظّرف الذي لم يختم هو الآخر باسم المرسلِ غير اسمي أنا المرسل إليه، ثمّ فتحت الورقة المطوية المقبورة داخله، كان الخطّ نفسه الذي كتب به إهداء الكتاب. الكتاب والظرف إذن منك يا هاجر .

هكذا تعرّفت على مصدر الكتاب والظّرف من خطّ أناملها الذي حفظته عن ظهر عين، ثمّ طفقتُ أقرأ الورقة والرّعشة تلبسني:

عزيزي وديع،

...أما قبلُ، طالما حملتُ همّ هذا الكتاب بعد فراقنا. تردّدتُ في كتابته أكثر من مرّة، فكلّما حرّكتني دواخلي لأكتب همّ ما أحمله تجاهك، أجد شيئًا ما يصدّني عن ذلك، ربما همّ ما أحمله تجاهك أكبر من أن يترجم على بياض الورق! وحين عقدتُ العزم وجاهدت نفسي على ذلك، بدأت مُحاولةَ تخفيفِ هذا الهمّ على بياض الورق لعلّي أنظّف دواخلي من بقاياك التي لا تزال تلازمني، ولعلّي أُشفى من الذّاكرة ولو قليلًا. منك انتقلت إليّ عدوى القراءة ومنك أصابني مسُّ الكتابة يوم دخلت عالمك الغامض، أخذتُ بقولك يوم سألتك لماذا تكتب؟ فأجبت: أكتب كي لا أموت اختناقًا، وأكتب لكي أنظّف دواخلي ولكي أشفى من الذاكرة. هكذا فعلتُ الآن، وأدركتُ كم أنّ المِداد قادر على امتصاص همومنا وأحزاننا، وأنّ البياض أهل لأن نودعه خيباتنا ونكباتنا وأنه قادر على تخفيف ثقل الآلام عنّا. كم كنت تهزئ بي لأنني لم أكتب يومًا ولو نصًّا رغم بعض الخواطر التي كنت أكتبها، لا لشيء إلا لإرضائك. كنتَ تحثّني على مداومة القراءة ومحاولة الكتابة، بفضلك قرأت رواياتٍ كثيرةً، وكم عشقت الرّوايات الرومانسية التي لم تكن تحبّها. أما الكتابة فلم أنشغل بها، كنتَ حينها كلّ شيء بالنّسبة إليّ، لذلك لم أكن أحسّ بنقصان يدفعني للكتابة، وطالما ردّدت أنّ الكتابة تعويض عن الفَقد. أمّا الآن فها أنا أكتب إليك، ليس نصًّا، بل كتابًا بعدما افتقدتك، وأدركت حقًّا أنّ الألم والحرمان والنّقص هو ما يدفعنا إلى الكتابة. فاقرأ كتابي هذا لعلّك تغفر لي ذنبي الذي اقترفتُه في حقّك، وارحم أخطائي وهفواتي، وتقبّل تفاصيلي المملّة وإطنابي الفظيع، هنا ستجد اعترافًا وبوحًا، وأجوبةً عن أسئلةٍ كثيرة طالما أرهقتك، وستجد أسرارًا لم أطلعك عليها يومًا لم تعد الآن سرًّا بالنّسبة إليّ، وهنا أقتبس من أحد نصوصك قولك: «مهما ادعينا من وضوح وشفافيّة، فهناك أشياء نحتفظ بها لذواتنا لا نستطيع البوح بها لأي شخص مهما كان، حتى ولو كان قريبًا منّا، حتّى أنفسنا نخشى أن تخذلنا فتفشيها إلينا...» فخذ منه ما شئت وتغاضى عمّا شئت فكل شيء كتبته إليك.

الحاضرة الغائبة هاجر.. إسبانيا: 2014

آآهٍ يا هاجر... أربع سنوات ونصف مرّت على فراقنا، وقد كانت كفيلة بأن ننسى أو بالأحرى نتناسى بعضنا بشكل تدريجيّ كما اتفقنا. ورغم ادّعائي بأني شُفيتُ منكِ فإنني لم أشفَ منك قطّ، فقط غيّرتُ مكانك في القلب والذّاكرة، ثمّ ها أنتِ تؤكّدين لي

أنك لم تستطيعي أن تشفي منّي أيضا بأن فكّرت في أن تكتبي إليّ كتابك هذا، بعد أن انقطعت أخبارك وانقطع الاتصال بيننا بالمرّة بعدما انعطف مسارك في الحياة مع رجل آخر وفي بلد أخرى.

نَضوتُ ربطة العنق التي تخنقني، والتي أضعها مكرها لدواعي العمل، وارتديتُ بيجامتي السّوداء الفضفاضة والمريحة، ثمّ حملت الظرف والكتاب ومحفظتي وعلبة السّجائر إلى مكتبي بالغرفة التي أختلي فيها بنفسي لوقت طويل، أمارس فيها طقوسي الخاصة؛ أقرأ وأكتب وأحرّر بعض المقالات على أنغام الموسيقى الهادئة، وبها سأختلي لأقرأ كتاب هاجر إليّ.

أدرك جيّدا أن هذا الكتاب يتطلّب منّي استعدادًا نفسيًّا وذهنيًّا كبيرين، لن أقرأه في نهمٍ كما ألتهم الجرائد كلّ يوم والكتب والروايات والمجاميع القصصيّة كل شهر، فالأمر يتعلّق بفترة مهمّة من فترات حياتي قضيتها مع هاجر، غيّرت كثيرا من مبادئي وأفكاري ونظرتي للحياة وتركتني أردّد: هناك شيئان يستطيعان تغيير الرّجل وقلبُهُ رأسا على عقب؛ الظّروف والأنثى!

سيكون كتابًا مليئًا بالبوح والاعتراف والألم والجراح، كما أشارت في رسالتها، لذا سيحتاج منّي جهدًا كبيرًا ومزاجًا صحوًا لقراءته بتمعّن وتريّث كبيرين، سأتوقّف عند لحظات كثيرة من تاريخ ذاكرة حبٍّ كتبتها هاجر.

أشعلتُ أوّل سيجارةٍ ثمّ فتحت الكتاب على أوّل فصل :

ربيع البداية...

خسرتُ أشياءَ كثيرةً لأربحكِ... وإن خسرتُكِ فقد خسرتُ كلّ شيء...

أكثر عباراتك التي تحدث بداخلي زلزالًا وتفجّر حمائم البركان في قلبي كلّما تذكّرتها. كانت أول عبارة كتبتها إليّ بعد تعلّقي بك أو تعلّقك بي، لست أدري، المهمّ أنّه تعلّق حدث. أذكر ذلك المساء حين عودتنا من الحديقة بعد جلسة بوح مطوّلة، فدسستَ الورقة في يدي حين صافحتني مودّعًا عند محطّة الباص. حين فتحت الورقة بعدما أخذت مكاني في الحافلة، قرأت عبارتك المكتوبة بلون أحمر غامق وبخط عربي أصيل، قفزت بانفعالية تلقائية كطفل باغته أبوه بلعبة ظلّ يحلم بها. أثرت انتباه بعض الرّكاب من حولي، فحاولت إخفاء دهشتي أمام عبارتك التي تختزل معاني كثيرة...

ظللت خلال طريقي إلى المنزل في غاية الفرح والسّرور، لأنني استطعت بعد صبر طويل أمام كبريائك وشموخك الذي لا يطاق أخيرًا أن تفتح لي قلبك المصون. أخذتُ هاتفي من الحقيبة بعد نزولي من الحافلة وكتبت إليك في رسالة نصية عبارة حاولت أن أحاكي فيها أسلوبك: «ربحتُكَ... إذن ربحتُ كلّ شيء.»

تركتُ الكتاب مفتوحًا على هذه البداية، أزحت نظّارتي فوق عيني، واسترخيت فوق كرسيّ مكتبي مسافرًا إلى فيافي الماضي، أنفث دخّان ما تبقي من السّيجارة أحاول استرجاع تفاصيل هذا اليوم، بدايتي نحو خيبة أخرى .

نعم فكّرت كثيرًا قبل أن ألتقي هاجر ذلك المساء، بتُّ طوال اللّيل ساهدًا بلا نوم، سؤال واحد أرهقني لم أجد له جوابًا: أحبّها نعم، لكن ماذا بعد...؟ نعم هاجر متعلّقة بي جدّا، تهتمّ لكلّ أموري الصّغيرة والكبيرة، وتشاركني كلّ تفاصيلها حتّى التافهة منها، وما تفتأ تسأل عنّي كلّ وقت وحين، ولا تنفكّ تزفّ إليّ كل مرة عبارات الإطراء والاعجاب بشخصيّتي. أنا أيضًا أحسّ بإحساس تجاهها لكنّني أحاول إخفاءه؛ لم أعد أستطيع أن يمرّ يوم دون أن أراها وأتحدّث إليها، جمعتني بها الصّدفة في مرحلة أعاني منها فراغًا عاطفيًّا جامحًا وفي فترة حصدتُ فيها الكثير من الخيبات؛ فترة خسرتُ فيها نفسي وتخلى عنّي فيها حتّى من لم أخلْهُ يوما سيتركني، صديقي الوحيد. أنا أحتاج إليها في هذه المرحلة بالذّات، ولعلّ الأقدار ساقتها إليّ ولم تسقني إليها لتردُم هذا الفراغ الجامح، ولتخفف عنّي عبء خيباتي التي لا تنقضي. أنا أيضًا متعلّق بها، إذن سأبوح لها بشعوري بعد كلّ هذه المدّة وليكن ما يكون، هكذا انتهى بي التفكير، لكن سؤال: ماذا بعد هذا الحبّ؟ سرعان ما عاد ليطوّق تفكيري ويحاصره.

هذا الـما بعد فتح أمامي باب تفكير على مصراعيه من جديد، أنا الذي يضربُ ألف حساب لأبسط خطوة أنوي خطوها في حياتي التعيسة هذه، كي أتحاشى المزيد من الهزائم. فكّرت بعقلي بدل قلبي، احتمالات كثيرة خطرت ببالي؛ البدايات دائمًا تكون جميلة، لكن ماذا عن النّهايات؟ هل هي الأخرى جميلة أم أن الجمال خاصيّة للبداية، والحزن والألم سمة خاصة بالنهاية كما حدث مع عائشة؟

حاولت أن أقنع نفسي الثّكلى والمعطوبة بأنّ النهايات أيضًا باستطاعتنا أن نجعلها جميلة كما البدايات. كنتُ متأكدًا أنني سأخسر أشياء كثيرة كي أربحها، سأخسر بعض مبادئي وقناعتي التي لم تعد تصلح فيما أنا سائر إليه، سأخسر بعضًا ممّن حولي، وقد خسرت أكثرهم من قبل، وسأخسر حتى البعض من ذاتي، إنّها معادلة الخسارة والرّبح التي تحكم تجاربنا في هذا الذي نسمّيه زورًا حياة.

حين قرّرت أخيرًا أن نعقد لقاء خاصا للتواضح والتّصارح قبل أن أبوح لها بشعوري اتجاهها، كتبت إليها هذه العبارة لتشهد أنّ نوعيّة النّهاية مرتبطة بها، هي من سيجعلها جميلة أو غير ذلك، لغبائي أو لحكمتي لست أدري! خيبتي الأولى رسّخت في الخوف من النهايات، ومن لدغه الثّعبان يخشى الحبل كما يقال.

قاطع تفكري رنين الهاتف، أطللت على شاشاته وإذا به رقم مدير الجريدة. تناولت السّماعة، وجاء صوته:

- أهلا سي وديع، طمئني عليك.
- لا داعي للقلق سيدي المدير، فقط قليل من التعب وسيزول.
- حسنًا، نسيت أن أسألك عن مدّة الإجازة، لأدبّر الأمر فلدينا كثير من العمل .
- المدّة مرتبطة بدرجة التعب، لكن أظنّ شهرًا يكفيني لأعيد نشاطي.
- حسنًا، أتمنّى ألا تطلب التمديد، فنحن بحاجة إليك، اعتنِ بنفسك واستمتع بإجازتك، ولا تنسَ أن تزور والدتك.
- شكرًا على اهتمامك سعادة المدير، إلى اللقاء.

أنهيت المكالمة وقرّرت أن أغلق الهاتف، هذا الجهاز المزعج الذي أكثر من منافعه يتسبب لنا في مشاكل عديدة، حتّى أستمتع بإجازتي وأتفرّغ لقراءة كتاب هاجر.

ثم عدتُ مرّة أخرى إلى الكتاب لأتمم القراءة:

كانت تلك الجلسة المسائية طافحة بالاعتراف، كنتَ فيها شفّافًا وواضحًا كالزّجاج، وكأنكَ جعلتها تمهيدًا لعلاقة حب قرّرت أخيرًا أن تربطها معي، وقد هيّأت تلك الورقة سلفًا. كنت منشدّة إليك وأنت تتحدّث عن ماضيك ومشاكلك، حسبت ذلك سينفرني منك، وكأنّك تضعني أمام خيّار، لكن ما كان لكل ما حكيته لي إلا أن زاد من اقترابي منك، فحين نحب شخصًا نحبّه بكلّ ما فيه، بعيوبه ومحاسنه، بهزائمه وانتصاراته.

أذكر سؤالك الذي استفتحت به حديثنا: لماذا أنتِ متعلّقة بي إلى هذا الحد؟

كنتُ قد قرأتُ في عينيك هذا السؤال قبل اليوم، ولأنك طرحته عليّ اليوم مباشرة، فقد أجبتك أنني أطرح السؤال نفسه على نفسي ولا أجد لهُ جوابًا، شيء فيك يجذبني إليك لا أدري ما هو. فنحن لا نكبح جماح أنفسنا حين تجذبنا الأشياء إليها، ولا نستطيع لجم قلوبنا حين تدفعنا إلى شخص آخر، هذه خصائص إنسانية معقّدة جدًّا يستعصي تفسيرها مهما ادعينا القدرة على ذلك.

ثمّ باغتتني بسؤال آخر وقفتُ عاجزة عن إيجاد جواب له: ما «الحبّ» بالنسبة إليك؟

صمت لبرهة أبحث في طيّات ذاكرتي عن تعريف يليق بمستواك ويناسب المقام، غير أنني لم أجد غير تعاريف سطحيّة، فحاولت أن أقدّم إليك تعريفًا من عندي فقلتُ: «الحبّ شعور غريب يصعب وصفه، فهو إحساس تجاه شخص ما يشدّك إليه شيء ما قد تجهل طبيعته.»

ابتسمتَ وحسبتك تسخر من تعريفي هذا، أعرف أنني لم أقدّم تعريفًا دقيقًا ومقنعًا، لكنّك باغتني بالقول:

تعريفك هذا قريب شيئًا ما إلى تعريف ابن حزم الذي يعتبر معاني الحبّ دقيقة وجليلة يصعب وصفها، ولا تدرك حقيقتها إلا بالمعاناة. كنتُ أعرف أنّك تكبرني ثقافة ومعرفة لاطلاعك الواسع، وكنتُ متيقّنة أن في ذاكرتك تعاريف أخرى لفلاسفة وشعراء ومتصوّفة، لذلك لم أطرح عليك السّؤال نفسه، رغم اندفاعي وقتها إلى ذلك .

هكذا جعلت أرضيّة الحديث عن هذا الموضوع المستعصي الشائك فأجبت دون أن أسألك: الحبّ بالنسبة إليّ شعور مقدّس يعاش ولا يقال، فالمُحبّ هو من يفعل وليس من يقول، وليس كل من يقول كلمة أحبّك فهو فعلا يحبّك؛ فالذي يحبّك يعبّر لك عن حبه من خلال تصرّفاته وأفعاله، يسأل عنك، ويغار عليك، يهتّم لأمورك الصّغيرة والكبيرة، يحسّ ما تحسّه، يكون لك

وطنًا وملجأً حين تضيق بك الدّنيا، وهذا في تقديري الخاص عين الصّواب. لم أستغرب حينها من قولك هذا لأني عهدت فيك نظرتك المخالفة للأشياء .

بهذه الطريقة اخترت أن تطلعني على شخصيتك الفريدة وماضيك الأليم، أدركت أن مبادئك ثابتة ومعدنك نفيس، تأكّد لي ذلك حين حدثني عن طفولتك الصعبة التي عشتها، وعن الخيبات التي تجرّعت مرارتها، حدّثني عن انتحار أبيك الذي تجهل تفاصيله، وعن غرق أختك الوحيدة ومرض أمّك المزمن وعن خصومات عائلتك، فكأني بك تبني صرحًا متينًا لعلاقتنا كي أفهمك جيدًا، وأن توضح لي أن شخصيتك نتاج واقع عشته، أكّدت لي قول ألفريد دي موسيه أن لا شيء يجعلنا عظماء غير ألم عظيم، وكم كنت عظيمًا في عيني يا وديع.

ستجدني أذنًا صاغية إليك منذ اليوم، وبئرًا لحفظ أسرارك، فأنا مستعدّة لمشاركتك هذا الهمّ إن أذنت لي، ومصرّة على اقتحام عوالمك يا وديع، لعلّني أمنحك القليل ممّا افتقدته. هكذا أجبتك مكسّرة أفق انتظارك من ردّة فعلي. انخرطتَ في صمت لا عمر له، احتضنتُ يدك بشّدة ونظرت في عينيك وقلتُ بكلّ جرأة وكل ما أوتيتُ من حبٍّ: أحبّك يا وديع. سألتك وعيناي في عينيك وأنت؟ نظرت إليّ بنظرات تقول أشياء كثيرة، انتظرت كلمة أحبّك تخرج من قلبك، لتخرج بعد تردّد كالمحتضر ينطق الشّهادة أخيرًا: وأنا أحبّك أيضًا يا هاجر. انشرح صدري وتفتّح قلبي، وتمنّيت لو التحمنا لحظتها وانخرطنا في عناق لا نهاية له...

هكذا بدأت علاقة حبّنا بعد أشهر من الرفقة والصداقة.

صادقة يا وديع أعترف لك أنّي لم أستفد شيئًا من هذه الشّعبة التي تسجّلت بها مكرهة غير تعرّفي عليك، وكأنّ القدر ساقني إليها لأجلك، ولعمري هذا أكبر فضل ربحته منها، بل وفي كلّ حياتي الدّراسية.

بعد تكرار سنة الباكالوريا، حصلتُ على تلك الشهادة التي لم تكن لها قيمة بالنسبة إليّ. احترت فيما سأفعله بها، بعد تفكير ليس بالطّويل، قرّرت أن أتسجّل بكلية الحقوق لأدرس القانون. لم يكن هدفي من ذلك الحصول على وظيفة، فقط أردت أن أدرس القانون حبًّا ورغبة كما كنتُ مدمنة على متابعة مسلسل «مداولة»، وعلى الانصات للمشاكل الزوجية والعائلية التي تبث على إذاعات الرّاديو، وقصص المشاكل العائلية والخصام بين الأزواج وكلّ ما تحكيه الجارات لأمي أو التي أستمع إليها من صديقاتي. غير أن أخي الأكبر الذي كانت له سلطة علينا نحن أخواته الثلاث الأصغر منه منعني من ذلك، وقرّر أن يسجّلني بكلية الآداب بشعبة اللغة العربية التي درس بها هو أيضًا، مع أنّه تخرّج فيها واشتغل في وظيفة لا علاقة لها بهذه الشعبة. وما أصعب أن يُفرضَ عليك شيء لم تختره، كان هذا سببًا في عدم اهتمامي وفي إخفاقي المتكرّر لأنّ اختيار الشيء عن حبّ وقناعة أساس في إتقانه والنجاح فيه.

لا أحبّ هذه المادة مذ كنت تلميذة، أكره الشّعر وتعقيداته، أكره النّحو والصرف كثيرًا. لكن بعد تعرّفي عليك أصبحتُ أحبّها وأحبّ الشعر والرواية والقصّة بفضلك، وأحببت النحو أكثر، لا لشيء إلا لكونه السّبب في التعرّف عليك والجلوس إليك أول مرّة، فله الشّكر جزاءَ ذلك.

أتذكر أول لقاء بيننا يا وديع؟ كل شيء يجري بقدر، وكي يحدث هذا المقدّر يُحدِثُ القدر لذلك سببًا.

لعلّك تذكر، كان صباح اثنينٍ إبريل، قصدتُ الخزانة البلدية لأنجز بحثًا حول النّحو التوليدي كلّفنا به أستاذ اللسانيات. هي المرّة الثانية التي أقصد فيها هذه الخزانة، لا أقصدها للمطالعة أو حبًّا في القراءة، وإنما لأجل جمع معلومات متفرقة من الكتب لأنجز بعض العروض يكلفنا بها الأساتذة، والتّكليف بالنسبة إليّ إكراه لذلك يثقل كاهلي كثيرًا .

دخلت الخزانة، كانت في ذلك الصّباح ما تزال خالية من القرّاء غيرك وطالبين والقائمين عليها. ألقيت تحيّة صباحية منخفضة حفاظًا على هدوء القاعة، وشرعتُ أجوب بين الرّفوف. وقفتَ وذهبت مباشرة إلى رفّ وقصدت كتابًا مباشرة بخفة دون عناء بحث. أثارت حركتك الخفيفة تلك انتباهي، فتقدّمت إليك إلى الطاولة حيث تجلس، وطلبت منك أن تدلّني على كتاب خاص بالنحو التوليدي، قبلت طلبي، لم تبتسم وكأني أزعجتك، قصدت الجناح الخاص باللسانيات، ولم أكن أعلم أن لكل حقل معرفي جناح، قصدت رفًّا مميّزًا برقم وأخرجت من بين الكتب كتاب نعوم تشومسكي وأشرت إلى كتب أخرى إلى جانبه. أدركت حينها أنك طالب جادّ مطلع على الكتب وحافظ لرفوف الخزانة الواسعة جدًّا.

لا أخفيك يا وديع، لم تجذبني إليك صورتك ولا شكل هندامك. جذبتني إليك معرفتك بهذا الفضاء الذي أدوخ حين ألج إليه، أتساءل في كلّ مرّة ما حاجتنا إلى هذا السّخط المتراكم من الكتب الذي يغطّي كلّ هذا الفضاء! تقدّمت إليك بعدما قلّبت صفحات الكتاب الذي كان مقرّزًا لأنّي أبحث عن شيء أهرب منه، وطلبت منك بخجل، لأنك تبدو جديًّا وأكثر صرامة، ولم تتصدّق عليّ بابتسامة حتّى طلبت منك أن تساعدني في تشجير جملة. لم ترد طلبي، أخذت الجملة وأعربتها أولًا إعرابًا تامًّا بخفة ودقة متناهية وأنا مشدودة إليك، ثمّ شرعت في تشجير الجملة بتلك الرّموز التي تبدو لي كطلسم ملغوم. قرأتَ دهشتي في عينيّ، فشرحت لي كيف أنّ النحو سهل وممتع جدًّا، فقط بسبب نظرتنا القدحيّة له وهروبنا منه وأحكامنا المُسبقة عنه يبدو شيئًا معقدًا وهو ليس كذلك. أعجبت كثيرًا بطريقة شرحك في تلك اللحظة الوجيزة، وطلبتك أن تراجع معي بعض الدّروس في مادة النحو والتركيب. قبلت طلبي بعد لحظة صمت قصيرة، لست أدري ماذا دار فيها بينك وبين نفسك، ثم حددت لنا موعدًا يوم غد بقاعة المطالعة الجماعية في الجناح الثّاني للخزانة .

بعد حلول الموعد الذي ضربته لي، بتُّ أفكر فيك، قلتُ أنبت الله في طريقي من يأخذ بيدي ويعينني على أمور الدّراسة حتّى أستطيع الخروج من هذه المتاهة التي دخلتُ فيها رغمًا عنّي، اتقاء سخط أخي الأكبر وأسرتي، واتقاء شرّ ألسنة الناس. ولم أكن أعلم وقتها أن صنفين من الطّلبة يجذبان الطّالبات إليهما : الوسيم والمجتهد !

وجدتك حاضرًا قبلي إلى الخزانة وركنتَ إلى كتبك وحاسوبك في ركن القاعة، شخصت أمامك، لم تقف، فقط صافحتني جالسًا وأمرتني بأن أتفضل بالجلوس. قبل أن نبدأ المراجعة بادرتُ بتعريف نفسي دون أن تطلب ذلك: اسمي هاجر متوكل، هذه سنتي الثانية بالجامعة في شعبة اللغة العربية. أظنّك أيضًا في الشّعبة نفسها. أجبت في ثبات وباقتصاد: أنا وديع مِفضال، مجاز في الأدب العربي، طالب باحث بالسّنة الأولى من سلك الماستر تخصّص مهن الكتابة والصّحافة.

بعد ساعتين تتبعت فيهما شرحك المفصل والمفيد، استفدت منه ما لم أستفده من أستاذ المادة المحاضر في مدرجات الكلية المزدحمة، استأذنتك في الانصراف بعد شكري وامتناني لك كي لا يفوتني موعد الحافلة التي أستقلها من البيت إلى الكلية. قبل أن أنصرف فكّرت، وطلبت منك أن أرافقك في طريقك إلى الخزانة في المرّة القادمة وأن ألجأ إليك بين الفينة والأخرى لتساعدني إن احتجت مساعدة، قبلت طلبي بصدر رحب وأطلعتني على برنامجك اليومي الذي خصّصته للخزانة. اكتشفت من خلاله أنّك طالب منظم ونبيه، تحمل كلمة طالب بما تتضمنه من معنى، وهذا سرّ تفوّقك كما تأكّد لي بعد ذلك. كانت لتلك المسافة التي نقطعها كل ثلاثة أيام في الأسبوع بين الكلية والخزانة فضل كبير في أن أستفيد منك، وأن أتقرّب منك كثيرًا.

كنت حينها لا تتحدّثُ إلا عن الدراسة والكتب وشؤون الثقافة، وكم كنتُ أكرهها؟ لكن حبّي لك يتركني أستسيغ الأمر. أخبرتني ذات نقاش أنك مولع بالأدب وأن لك محاولات في كتابة القصّة والمقالة، تنشر بعضها على صفحة فيسبوكيّة خاصّة بك، وبعضها في جرائد ومجلات وطنية وعربيّة.

سألتك ذات مرّة ونحن في طريق العودة من الخزانة عن سبب اختيارك لشعبة اللغة العربيّة فأجبت: كنت مولعًا بهذه المادة مذ كنت تلميذًا في الابتدائية، كان معلّم اللغة العربية يحثّنا على القراءة، يأتينا كلّ يوم بقصص جحا، ومجلّة العربي الصّغير ومجلة ماجد، نتبادل المجموعة والأعداد فيما بيننا نحن تلاميذ الفصل، كنت مولعًا بالأفلام التاريخية والرّسوم المتحرّكة باللغة العربية. وفي السّلك الاعدادي حظيت بالتّلمذة على يد أستاذ للغة العربية كان لي قدوة في الأخلاق والعلم. منذ هذه الفترة وأنا أحلم أن أصير مدرّسًا للغة العربية رغم أن مستواي فيها لم يكن بالجيّد، لكن حبّي لها كان عظيمًا، وبعد حصولي على الباكالوريا تسجّلت بشعبة اللغة العربيّة لأحقّق حلمي. والأولى من كلّ هذا أنّ الأدب كان سببًا في ترميم دواخلي التي تهشّمت ذات عمر، فقرّرت أن أدرس الأدب وأبحر فيه.

أدركت حينها أن هذا سرّ من أسرار تفّوقك ونجاحك، فاختيار مسار ما عن حبّ وقناعة خطوة أولى نحو النّجاح فيه، وهذا ما لم يحصل معي للأسف.

بهذه الشّخصيّة الفريدة أصبحت لغزًا بالنّسبة لي يا وديع، أصبحت لغزًا لأنّك تدسّ في أجوبتك أشياء تخفي من ورائها الكثير، أدركت حينها أنّك لست شخصًا عاديًّا، لهذا أخذت زمام المغامرة لسبر أغوارك والنفاذ إلى أعماقك لأعرف عنك الكثير، ولم أكن أعلم أن هذه المغامرة ستجرّني إلى متاهات لن أستطيع الخروج منها.

لست أدري كيف فكّرت في أن أتجسّس على صفحتك في الفيسبوك لأتتبع كتاباتك، ولم أكن أعلم حينها أن الكتابة هي العالم الأقرب لذات الكاتب، وأنّ القراءة طريق لاكتشاف فلسفته ورؤيته للأشياء وللعالم. لم يكن شيئا من هذا غير الفضول.

أخذت الصفحة طريقًا إليك، وفي نصوصك أبحث عن مفتاح لولوجك. رغم أنني طالبة بشعبة اللغة العربية، فإنّني لم أقرأ قط كتابًا أو رواية أو ديوانًا شعريًّا أو حتى جريدة، عدا نصوص المطالعة التي كنت أقرأها في المقررات الدراسية كما أخبرتك ذات لقاء. حتّى الروايات التي تكون مقررة في مختلف الأسلاك الدّراسية لم أكن أقرأها، وأكتفي فقط ببعض الملخصات التي تعجّ بها مواقع الشبكة العنكبوتية، هذه الآفة التي أسهمت في «تكليخنا!»

انسقتُ وراء نصوصكَ التي ألهمتني كثيرًا، التهمها في نهم، أتابع تغريداتكَ بفضول كبير. كان جلّها يلفه الحزن والألم وقليل من التفاؤل والأمل بين الفينة والأخرى. لا زلت أذكر بعض عناوين نصوصكَ أو مقتطفات منها: جراح لن تندمل، الوجع، مخاض عسير، طفولة يتيمة، الأُفُول، وليمة بكاء، خيوط الشمس، على شفى الحلم... أدركت من خلال هذه النّصوص الشائكة الشائقة حجم الخراب الذي عشته، وشدّة الحزن الذي عشعش بداخلك. كنت أجد صعوبة كبيرة في فهم معانيها وفكّ رموزها ربما لعدم تمرّسي على قراءة النصوص ومحاورتها، أو لصعوبة أسلوبك المعقّد الذي تكتب فيه كثيرًا بضمير الغائب، وبالإشارات والرّموز، كانت تتطلّب منّي جهدًا كبيرًا، أقرأ وأعيد لعلّني أجد فيها رأس خيط السرّ أو مفتاحًا لولوجك.

أخبرتك أنني سجّلت إعجابي بصفحتك وأنّني أطلع على محاولاتك في الكتابة. أبديت لك إعجابي بها، وأنها نصوص تستحق القراءة، يمكن اعتبارها كتابات لها وزنها وليس محاولة كما صرّحت. كانت ربّما مجاملة منّي، لست أدري، فحمّلتني ما لا طاقة لي به أن طلبت منّي تدوين ملاحظاتي وارتساماتي عن نصوصك التي قرأت. لا أخفيك كم أربكْتَنِي يا وديع، دائمًا أرفض القيام بشيء يُفرض عليّ، ثمّ إنني كنت أجد صعوبة كبيرة منذ سنوات الدّراسة في تحليل النصوص الأدبيّة والتعليق عليها أو انتقادها، كنت أعتمد على الحفظ والتّقليد كالببّغاء دون أي إبداع أو نقد أو تعبير عن رأي شخصي، وهذا ما ربّتنا عليها المناهج الدراسية الكميّة ومؤسساتنا التعليمية العقيمة. رغم هذا، ولأنك شخص مميّز بالنسبة لي، تقبّلت طلبك رغم ثقله عليّ؛ لأنني أبدو نملة أمام ثقافتك.

لجأت إلى طريقة سهلة بالنّسبة إليّ، مفيدة بالنسبة إليك، أقرأ وأدوّن أسئلة، أناقشك فيها بين الفينة والأخرى كلّما كنا في طريقنا إلى الخزانة، لم تكن نيّتي من ذلك انتقادك أو مناقشتك، وأنا متأكدّة أنك كنت تعلم هذا؛ لأن مثل هذه الأمور لا تخفى على أمثالك، وإنّما كان هدفي معرفة بعض الأشياء عنك. أذكر أنّ أول سؤال استفتحتك به كان: لماذا تحتفي جلّ كتاباتك بتِيمَتيْ الحزن والألم؟

وقفت صامتًا أمام هذا السّؤال، كنت أعرف أن صمتك ليس عجزًا، لكن كما كنت تقول: كثير من الأسئلة لا تسعفنا اللغة في صياغة أجوبة دقيقة لها. بعد قليل من الصمت أجبت: ليس بالضّرورة كل ما أكتب يعبّر عنّي، أحيانًا أكتب عمّا أحسّ به بارتداء أقنعة، وفي أحايين كثيرة أكتب بصوت من لا صوت لهم؛ فالكاتب أولًا هو حامل همّ وصاحب قضيّة.

كنت بالنّسبة لي ظاهرة وليس قضية، ظاهرة اجتماعية ونفسية وأنثروبولوجية تستعصي على الفهم، وكم ضحكت؟ وقليلًا ما كنت تضحك، حين قلت لك مازحة: سأجعلك موضوع بحثي لنيل الإجازة.

شيء ما أثار انتباهي بعد تقرّبي إليك، ففكّرت أكثر من مرّة أن أسألك لماذا تذهب وتجيء وحيدًا، لا يصحبك صديق أو صديقة في الدّراسة وكأنك لا تملك أصدقاء! وحين قرأت مقطعًا من نص نشرته على صفحتك بعنوان أنيس الوحدة، تأكّد لي أن سؤالي وجيه وعليّ طرحه رغم ما يحمله من فضول.

أخبرتني أنّك عبدٌ للوحدة، ليس لك أصدقاء رغم كثرة الذين تعرفهم، وأنك لم تعد تثق في أحد! تسرّب إليّ ظن بأنك تعرّضت لخيانة من أحد أصدقائك أو أقاربك، لم تبح لي بشيء، فقط أخبرتني أنّ الوحدة والعزلة تلهمك. حين ألححتُ عليك في السؤال، لماذا لم تتخذ من معارفك أصدقاء لك؟ أخبرتني عن صديقك الوحيد الذي خذلك فابتعد عنك، إن حقًّا لك أن تعتبره خذلانًا.

تذكّرت صديقي الذي لست أدري أين قذفت به أمواج الحياة؟ كان صديقي الوحيد الذي وهبه لي رحم الحياة. أحد أبناء قريتي الصّغيرة تعرّفت عليه في المرحلة الابتدائية، ثمّ واصلنا مسيرتنا الدّراسيّة معا جنبًا إلى جنب نحتل الرتب الأولى على التوالي حتى بلغنا الجامعة دون أن نفترق يومًا. تسجلنا في الشعبة نفسها في كلية واحدة بمدينة واحدة، يقاسمني كلّ كبيرة وصغيرة، ينصحني إذا هاويت، ويأخذ بيدي إذا ضللت، ويمد لي يد المساعدة إذا سقطت، وأنا كذلك، كان توأم روحي وكاتم أسراري. مررنا خلال سنوات الجامعة الأولى بفترات عصيبة بعد بعدنا عن القرية والأهل لضيق الحال وقلّة الشيء. ورغم نقاشاتنا المتكرّرة كما يحدث بين الأصدقاء، بل بين الأزواج والإخوة والآباء والأبناء، فلم تفرّق السّبل بيننا. فجأة وبدون سابق إخبار، بدأت أحس محاولة ابتعاده عنّي، حاولت أن أكشف عن شيء ربمّا اقترفته في حقّه دفع به إلى الاشمئزاز منّي. حين فشلت في ذلك، سألته عن سبب جفائه، فاكتفى بالتبرير أنّه يمرّ من فترة عصيبة وسيتجاوزها. تفهّمت الأمر لأنّنا أحيانًا نحتاج الهروب إلى ذواتنا بعيدًا عن العالم لنتصالح مع أنفسنا ونعيد ترتيب الكثير من الأوراق. بعد ثلاثة أيّام لم ألتقه على غير العادة، مدّني بورقة بعد خروجنا من المسرح بعد مشاهدة عرض مسرحي وقال لي: هنا تجد جوابًا عن كلّ الأسئلة التي سألتني، ثم انصرف بمفرده متأبطًا قلقه.

قرأت رسالته في الطّريق دون انتظار بكل حزن وأسى، أدركت من خلالها أنّه كلّ من مرافقتي، وأنّي أحرمه من أشياء كثيرة، كما جاء في رسالته التي ما زلت أحتفظ بها: لا يكون لاختياري وهروبي إلى عالم الوحدة ركبًا للإهمال والنسيان، بل رحت أبحث عن نفسي، عن الحلقة المفقودة في الحياة، رحت أبحث عن الذي يمكن يومًا أن أخسره غدًا.

بعدها لم نعد نلتقي إلا في بعض المناسبات القليلة، نكتفي بالسلام والسؤال عن الأحوال ولا نتعداه إلى السؤال عن شيء آخر، وبعدها غاب بالمرّة شاقًّا طريقه نحو الوجهة التي اختارها. أذكر وعدنا الذي قطعناه معا ألا نفترق عن بعضنا حتّى نحقّق أحلامنا

التي رسمناها معًا، وألا تفرّق بيننا فتاة مهما بلغ الأمر، كنّا نسمع من الذين سبقونا أن علاقات الحبّ والعشق متاحة بسهولة هنا بالمدينة وفي فضاء الجامعة، فقطعنا مع هذه الأشياء منذ البداية، تواضعنا عليها كي لا نفتح بابًا يمكن أن يبعدنا عن بعضنا أو أن يصرفنا عمّا نحن مغتربين لأجله، لكنّه نقض العهد.

علّمتني كل المواقف التي وضعتني فيها الحياة أن أجعل في كلّ علاقاتي بين الذين تفرضهم الظروف علينا الالتقاء بهم أن أترك مسافة أمان واسعة؛ لأنها تقينا الكثير من الصّدمات، وهي قابلة للتقصير أو التّطويل، أطوّلها كلّما أحسست بخطر مُحذق، وأقصرها كلّما اطمأننت لذلك. لهذا جعلت في البداية بيني وبين هاجر مسافة أمان رغم ادعائي من قربي لها، ولذلك كنت أتحاشى اطلاعها على كلّ شيء لفقداني الثّقة في أقربائي، وبعدما اطمأننت إليها وقرّبني منها الفقدان والحاجة، بدأت أخبرها بكلّ شيء، رغم أن أشياء كثيرة أحتفظ بها لنفسي ولا أبديها لها.

أعلم يا وديع أن الطيبين حين يخذلون ينصرفون بجرحهم في صمت دون ضجيج مرّة واحدة فقط، دون ترك فرصة أخرى للخذلان أن ينال منهم... هنا بدأت أشفق عليك وأخشى عليك من سلطان الوحدة الذي أسرك، فقرّرت محاولة انتشالك منها لعلّني أستطيع إلى ذلك سبيلًا. كانت هذه أول كوّة ضوء ظهرت لي على سورك الحصين، ستساعدني لكي أطلّ على أعماقك وأكتشف ما بدواخلك.

كان هدفي مرسومًا، وكنت مشروعي الذي بات يشغل تفكيري أكثر من أي شيء آخر. لتنفيذ قراري، اقترحت عليك أن نلتقي خارج أسوار الخزانة وأن نخرج بين الفينة والأخرى من مستنقع الكتب والدراسة ونقاشاتها التي لا تكلّ منها ولا تملّ. تردّدت في البداية بحجّة واهية هي أن برنامجك اليومي كثيف، وأن وآخر أيام الأسبوع تخصصها لشؤون البيت أو مشاهدة بعض الأفلام بالمنزل. أعلم أنّك تتهرب من ذلك لأنك اتخذت موقفًا سابقًا، والذي كنت أحاول أن أوصله إليك أن بعض المواقف تحتّم علينا أن نعيد النظر في بعض القناعات والمبادئ التي نتّخذها وهذا ما لم ترد أن تستوعبه. حاولت معك أكثر من مرّة لتعطي لنفسك حقّها من الراحة وتروح عنها وتجدّد من حيويتها، ثم دلّلت كبرياءك أخيرًا بعد إلحاح طويل وقبلت طلبي.

آه كم كنت تتعبني في إقناعك بشيء يا وديع، كنت أمرّغ وجهي في التراب كي أقنعك، لم أجد أكثر منك عنادًا وأكبر منك رفضًا.

بدأنا نخرج بعيدًا عن أسوار الخزانة التي تجمعنا وطريقها الذي يحتضن نقاشاتنا. عرّفتك على أماكنَ في المدينة لم تطأها قدمك قط، رغم مكوثك الطويل بها وتردّدنا على حدائق كثيرة لم تكن تحسب أنها موجودة بها. اعترفت لي أن ذلك يكسبك نفسًا جديدًا للتأمل والكتابة، رغم أنّك تكون أكثر إلهامًا في حضرة الوحدة. أكّدت لي بهذا الاعتراف أنني في الطريق الصحيح إليك وأني باستطاعتي الوصول إليك. أصبحت أنت أول اهتماماتي وأهم شيء بالنسبة لي، حتى من تلك الشهادة التي أنا مقبلة عليها.

بعد لقاءات قليلة خارج إطار الدراسة والكتب والبحث، بدأت ألمح انعطافًا واضحًا في كتاباتك التي تنشر مقاطع منها على صفحتك في الفيسبوك، وأضحت لقاءاتنا وأحاديثنا أيضًا من أهم موضوعاتك وأبرز تيمات نصوصك.

قرأت ذات اطلاع على صفحتك مقتطفًا من نص لم تضع له عنوانًا كعادتك، حملت نفسي على صبر أغواره علّني أجد فيه خيطًا لفهم شعورك. كنت تتحدث فيه بلغة فلسفية استعصى عليّ فهمها، لكن وجدت عبارة فهمت من خلالها أنّك عشت قصّة حبّ قديمة لايزال أثرها في قلبك محفورًا.

سافرت إلى فيافي الذّاكرة لعلني أتذكر هذا النص الذي استوقف هاجر يومها أكثر من غيره. تذكرت مذكرتي التي كنت أسوّد بياض صفحاتها ببعض الخواطر التي كنت أحشر فيها بعض مواقفي وتأملاتي، وأدسّ فيها بعض أحاسيسي ومشاعري بين الفينة والأخرى، أحتفظ بها لنفسي ولا أطلع عليها أحدًا، فقط أودعها البياض؛ لأنه أهل للائتمان عليها.

وضعت الكتاب على المكتب وقصدت قمطرًا أسفل خزانتي خبّأت فيه بعض الذكريات؛ صور لبعض ذكريات الطفولة، وبعض التذكارات وقارورات العطر وأشياء أخرى، كانت هدايا رمزية من هاجر. أخرجت تلك المذكرة التي حشرتها مع هذه الذّكريات بعدما كنتُ أتحاشاها حين تركتني هاجر؛ لأنها تبعث من رماد الماضي ذكريات أصبحت مؤلمة بالنسبة لي، ولا تبعث إلا على الحنين واليأس والنّدم...

طفقت أبحث عن هذا النص الذي ذكرته هاجر لأقرأ تفاصيله بدقة. كان نصًا كتبته إلى طيف عائشة الذي لا يفارقني في كلّ وقت وحين، رسالة كتبتها إلى طيفها أخبرها فيه أنني تورّطت في شيء ما يشبه الحبّ وأعلن لها أنني في طريقي إلى نقض ذلك العهد القديم الذي قطعناه معا رغم أنها نقضته قبلي ومنذ زمن بعيد.

عائشة هذه، كانت أول فتاة أحببتها بصدق، خطفت قلبي من أول نظرة إليها في ساحة المدرسة، كان حبًّا طفوليًّا بريئًا لكنه صادق، ظللت أكتمه في قلبي ست سنوات، ست سنوات من الألم والانتظار والكتمان، أنظر إليها وأتأملها من بعيد ولا أستطيع أن أكلّمها حتّى. فتاة بدوية وديعة، تأسرني عيناها كلما سرقت نظرة إلى وجهها الصّبوح. كانت نظراتها تشبه نظرات أختي الوحيدة التي ماتت غرقًا أمام عيني في سنّها الثالثة على ضفاف الوادي القريب إلى منزلنا الطيني بالقرية. أذكر آخر نظرة رشقتني بها وهي تستنجدني والمياه تجرفها إلى العمق إلى أن توارت عن ناظري ولم أستطع فعل شيء غير الصّراخ.

حين كبرت قليلًا، وكبرت عائشة أيضًا، لم أعد أستطيع كتم ما أحسّه تجاهها، كتبت أول رسالة حب صادقة حشدت بها مشاعري تجاه عائشة، لكن لم أستطع أن أمدّ إليها الرسالة أو حتى أن أقترب منها، فظلت الرسالة معي أحملها في جيبي كلما قصدت المدرسة ثم أرجعها وأدسها وسط حقيبة ملابسي حتى لا يعثر عليها أحد. أذكر أنني تشاجرت مع أخي الأكبر شجارًا عنيفًا ذات مرة حيث وجدته يفتش ملابسي. مزّقت تلك الرسالة بعدما ذبلت تلك الورقة ولم أجد سبيلًا لأبوح بحبّي لعائشة. ما مرّة فكّرت أن أجعل إحدى صديقاتها أو أحد أصدقائي رسولًا بيننا، لكن أي خوف هذا الذي يتملكني تجاهها؟

عثا فيَّ كتمان حب عائشة لسنوات طوال فسادًا، فقرّرت أن أطلع أمّي على سري بعدما تردّدت أكثر من مرّة. لم أتوقّع جوابها خصوصًا في هذا الموضوع الذي كان عليها أن تكون حكيمة في التعامل معي، وما أكثرها العقد النفسية التي تربت فينا منذ

الصغر بمجرّد خطأ بسيط في التواصل أو بسبب غياب ثقافة الحوار وكيفية التعاطي مع المواضيع والقضايا الحساسة. خاطبتني أمّي خطابًا عنيفًا، لست أدري أَلِحِرْصِها على مصلحتي أم أن ذلك كان عقابًا بسبب ذنب عظيم اقترفته أو سأقترفه!؟ أكّدت لي أن كتمان حبّي لعائشة والخوف من نتائج البوح به كان سيجرّني نحو متاهات كبيرة في هذا المجتمع المريض الذي يعتبر الحبّ جريمة والعلاقة بين الذكر والأنثى عيبًا وعارًا إن هي خرجت عن نطاق الزواج. أي مجتمع هذا الذي يكرّس فينا منذ الصّغر هذه الثقافة التي تصيبنا بإعاقة في الأحاسيس والمشاعر بذريعة العيب والحشمة. صرخت أمّي في وجهي ووبختني لأبتعد عن هذه الخزعبلات وأركّز على دراستي لأنها لا تقدر على مشكل أو فضيحة، بدعوى أنني لم أصل بعد سنًّا تسمح لي التعاطي مع مثل هذه المواضيع، وكنت أتساءل وقتها ما علاقة السن بالمشاعر؟ أمرتني أن أنسى أمرها منذ ذلك اليوم، وطمأنتني بأنها ستزوجني أحسن فتاة ستنسيني هذه الـ «العائشة».

تأكّد لي حينها أن الحب في قريتنا غير متاح وأن لا مجال للتعبير عن المشاعر تجاه أنثى فيها. شكّل لي هذا الكتمان وهذا الألم عقدة نفسية ظلّت تلازمني وتكبر معي حتّى اليوم. جرّاء كلّ هذا حملت نفسي على أن أعلن حبّي لعائشة ثورة على هذه التقاليد التي تجرّم الحبّ وتقمع المشاعر. تعرضت لعائشة ذات مساء حين عودتها من المدرسة بعد أن اقتنصت فرصة تفرّدها، وبُحتُ لها بإحساسي تجاهها. وما انتظرت أنها كانت تبادلني الشّعور نفسه وأنها تكتم مشاعر الحب تجاهي، هي أيضًا وطالما انتظرت بوحي إليها لكوني ذكرًا؛ فالذّكور قوّامون على الإناث حتّى في البوح بالمشاعر. أحسست حينها بالنّدم على كل هذه الفترة التي لم أجرؤ على البوح بصدق ما أكنّه لها من حبّ. كانت تدرك حجم الخسارة التي ستنالنا لو ذاع سرّنا في القرية. لذلك اشترطت أن نكتم ما بيننا وأن يكون حبّنا حبًّا سريًّا.

بعد ذلك المساء، سرقنا موعدًا خاطفًا بعد العودة من المدرسة بعيدًا عن القرية تحت شجرة طلح وارفة الظّلال، شامخة تصارع جفاف أديم الأرض القاحلة، علمتُ أنّ هذا اللّقاء تحت هذه الطّلحة الشّوكيّة مؤشّر على حياة مفترشة بالأشواك والعقبات، وقد حدث فعلًا. أمعنّا النّظر إلى بعضنا، بعدها طبعت عائشة قبلة حبّ على يدي، كانت أول قبلة حبّ وأول حبّ، لم أجرؤ يومها على طبع قبلة على يدها كما فعلت، ولست أدري ما الذي وقف حاجزًا حينها أمام ذلك؟ أهو الخوف أم الخجل أم الحياء أم صدقُ الحب؟ غمرتني أمنًا وهي تضمّ يدي إلى صدرها، وزرعت في بذور الأمل وقطعت لي وعدًا بأن نكون لبعضنا مهما طال الزمن، وتواعدنا بأن لا يخون الواحد منّا الآخر.

بعد هذه اللحظة التي ظلّت موشومة في ذاكرتي بكل تفاصيلها، لم تكن سوى لقاءات العين وخطاب الإشارة في ساحة المدرسة بين أقراننا من أطفال القرية الذين يترصدون كل هفوة من أجل أن يذيعونها بين آبائهم وأمهاتهم لتنتشر في أهل القرية كانتشار النار في الهشيم. تصيّد زلّات الآخرين وتتبع عيوبهم والبحث بفضول في شؤونهم أشياء تُربّى فينا منذ الصّغر، وذنبنا أنّنا ضحيّة مجتمع مريض فرض علينا ثقافته وعاداته الفاسدة التي ابتدعها وأقرّها دستور يعتبر الخروج عن سننه جريمة، يكونون لها بالمرصاد ويعيشونك في العذاب الأليم، أخفّه لوك الألسنة عنك.

كثير من الخطوات التي قد نقبل عليها في هذه الحياة قد نؤذي بها الآخرين ونتركهم في جحيم لا يطاق مدى حياتهم دون أن نعي ذلك. حين بلغت عائشة سنها السادسة عشرة، أي بعد سنتين من ذلك اللقاء الذي ظل محفورًا في ذاكرتي بأدقّ تفاصيله، زفّها أبوها زوجة إلى ابن أخيه دون علم منها أو مشاورتها حتى، فسلطة الأب في القرية لا تعلوها سلطة، وأي أمر دبّره ولو فيه ضرر للعالمين أجمع عليه أن ينفّذ، وهو من يقرّر مصير كل أبناء صلبه وأحفاده، وكل من نصّب نفسه إلهًا عليهم، فأي تجبر وتسلط بعد هذا؟!! في قريتنا، بإمكان الأب وأخيه أو صديقه، أو الأم أو أختها وصديقتها أو جارتها أن يطبخا طبخة في زريبة داخل سوق أو داخل بستان أو في المراح على صينيّة شاي تخصّ مصير أبنائهم وبناتهم تحت ذريعة هم أدرى بمصلحتهم! أو تحت ذريعة خيرنا لنا لا لغيرنا وإن كان في ذلك قبر لحياتهم، يا للحماقة!!

ذاع الخبر في القرية، وغادرت عائشة مقاعد الدراسة حيث كنا ننظر إلى بعضنا ونطمئن على حبنا الذي لا يعلمه أحد سوانا. رُتّبت الأمور في الخفاء على نحو سريع، وأقيم حفل زفاف عائشة. في الليلة المشؤومة تلك، وقد كنت وقتها أهذي جراء شرّ ألمّ بي لا أستطيع وصفه، قرّرت عائشة أن تضع حدًّا لحياتها لتقلب حفل زفافها موكب عزاء بعد أن أدركت أنّها ستعيش في جحيم مع رجل فُرض عليها قسرًا ولم تختره، فاختارت العيش في جحيم الآخرة على جحيم الدّنيا.

كانت أسوأ ليلة في حياتي بعد اليوم الأسود الذي جرفت فيه سيول الوادي جسد أختي مريم. تفاقمت أزمتي ليلتها بعدما وصلني خبر الفاجعة، دخلت على إثرها في أزمة نفسية حادة غبت بسببها عن هذا العالم، ولم أذكر شيئًا ما حدث في تلك الليلة بعد الفاجعة. كانت ثاني أزمة نفسية أمر بها بعد فاجعة مريم، غادرت بسببها مقاعد الدّراسة، وجعلت النّاس يقولون إنّي صرتُ أحمق أو أنني أصبت بمسّ من الجن دون أن يدرك أحد ما كان بيني وبين عائشة غير أمّي التي جمعت أشلائي وطفقت تجوب بي الأضرحة والفقهاء والأولياء الصالحين رفقة جدّتي طلبا لشفاء مرضي.

كثيرًا من الخيبات التي نمرّ بها تدفعنا للكفر بكثير من المبادئ التي كنا نؤمن بها. بعد شهور لست أدري ماذا حل بي خلالها نتيجة الصّدمة، استعدت عافيّتي وعدت في الموسم الآخر إلى صفوف الدراسة شخصًا آخر غير الذي كنته. تشكّلت لدي عقد نفسية تجاه ثقافة المجتمع الذي أعيش فيه، وعقد نفسيّة تجاه الجنس الآخر.

بعد حبّ عائشة، لم يمِلْ قلبي إلى فتاة غيرها. رغم موتها، لازال قلبي يحمل الشعور نفسه اتجاهها، ظلت صورتها المزوجة بصورة مريم لا تفارق عيني، ولازال العهد الذي قطعته إليها يثقل كاهلي. رغم الوساوس التي كبرت معي ولا تفارقني، لم أعتبر انتحار عائشة هروبًا من جحيم حياة ستعيشها، بل اعتبرته أرقى وفاء للعهد الذي كان بيني وبينها، حتّى وإن كان خطأً، كنت أوهم نفسي بعكس ذلك؛ لأن الوهم أحيانًا يكون جرعات مساعدة على التخلص من كثير من الحقائق...

حملتني هذه العاصفة التي مرّت بي على رفض ثقافة قريتي التي عشت فيها أيامًا لا رحمة الله عليها. ودفعتني بذلك إلى تغيير الأفكار الفاسدة التي عشش في فكري، فاقتحمت عالم الكتب وجعلته طريقًا أسلكها لفهم كثير من الظواهر الاجتماعية والنفسية

لتغيير ذاتي. هنا بدأت علاقتي مع الكتب، قرأت الشّعر والفلسفة وعلم الاجتماع، وعشقت الفنّ والموسيقى. وجدت في شعر مجنون بني عامر أنيسًا مؤنسًا، حفظت الكثير من شعره عن ظهر قلب، أردده وكأنه دواء يعالج سقمي. ألتهم شعره كل مرة وأعيده دون كلل ولا ملل، أحببت شعره؛ لأنه يتحدث بشعوري بدلًا عنّي ويشاركني ما أحسّه، دفع بي حبّ شعره إلى مطالعة قصّته، أدركت كم أنّ الحبّ الصادق كثيرًا ما يواجه بالرفض، وأنّه لا يجلب سوى المتاعب، فالإنسان مجبول على حبّ الكذب والنّفاق. عشقت فكر هذا الرجل كضحية مجتمع يجرّم الحب الصادق ولا يقدّر المشاعر الإنسانيّة كما حصل معي، مجتمع لا يرى في الحبّ إلا النّكاح في إطار علاقة تقنّن بعقد يبرّر هذه الممارسة ويزيل عنها صفة الاغتصاب، وهو اغتصاب للطفولة وللحياة أولًا قبل شيء آخر.

ظلت عائشة تسكن روحي ووجداني كلّما تقدّم بي العمر، لا يفارقني طيفها في كل وقت وحين. أشكو إلى طيفها آلامي كل وقت وأكتب إليها رغم أنّ ما أكتبه إليها لا يصلها وكأنّها تسمع أنّاتي وتحسّ آلامي.

بعد عائشة، لم أستطع أن أحبّ فتاة أخرى، وكأنها أوصدت أبواب قلبي يوم دخلته بسبب تلك النظرة التي تذكرني بمريم دائمًا وانصرفت إلى مثواها الأخير. رغم رحيلها عن هذا العالم المشؤوم، لم يفارقني طيفها. كنت أخال نفسي مريضًا، وأحاول تفسير هذا الشّعور الذي يؤرقني ويقض مضجعي حتّى وجدت في قول ألبير كامي الذي أحببت كتاباته جوابًا لسؤالي: الإنسان يعشق مرّة واحدة بصدق فقط، غيرها لا يمكن أن يحبّ بالدّرجة نفسها ولو ادعى ذلك.

الوعد الذي قطعته لعائشة ظل كجبل على رقبتي لم أستطع نقضه؛ لأنها ضحّت بحياتها وفاء للعهد. كلما أقدم على التفكير في نقضه أتذكر ذلك اللقاء وتلك القبلة فأعود إلى صوابي أو حمقي، لست أدري! لذلك قرّرت أن أصوم عن الحبّ رغم رحلتي الطويلة في القراءة عن الحب وعن العشق وقصص العاشقين والمحبين في مختلف الثقافات.

لست ملاكًا حتّى أدعي أنه لا يحرّكني شعور تجاه أنثى، كثيرات هنّ اللواتي تجذبني إليهن العين إما لجمالهنّ أو خلقهنّ، لكن مرّة واحدة فقط نحبّ بصدق، بعدها لا يعدو ذلك سوى ادّعاء وكذب ولو تظاهرنا بغير ذلك، وأوّل حبّ صادق لعائشة، فأي حبّ بعده سيكون؟

كنت أردد دائمًا إلى متى سأظلّ وفيًّا لعهد عائشة؟ وهل هو حقّ عهد بهذا الحجم وهذا الجلل الذي أتصوّره؟ كلّما تقدّم بي العُمرُ يكبر معي هذا السّؤال، وأعمق التفكير فيه أكثر من المرّات السابقة.

شققت طريقي وحيدًا مهزومًا مكلومًا ورافضًا لكل ما يُفرض علينا، نأتي إلى هذا العالم الذي يملأه الشؤم صفحة بيضاء لكن المجتمع الذي نعيش فيه يربي فينا كثيرًا من الحقد واليأس والألم والكفر ويفسد صفاءنا ونقاءنا. خلال هذه الفترة بعد خيباتي الكبيرة، غرق مريم وزواج عائشة ومرض أمّي، وقبلها انتحار أبي بعدما قذفني في رحم أمّي، لم أجد غير صديقي الوحيد الذي كنت أشاركه بعضًا من همومي وأسئلتي الفلسفية المحيّرة. عدا صديقي هذا لم تكن علاقتي بكل المحيطين بي سوى علاقة سطحية بينها مسافة

أمان طويلة، طالما آمنت أنّ البعد عن أسود الرّأس يقينًا كثيرًا من المشاكل. حين ابتعد عنّي صديقي الذي عاش أيضًا خيبات وهزائم مثلي، واصلت الطريق نحو حلمي الذي سأهزم به كثيرًا من العادات الفاسدة كما كنتُ أتوهّم، وفي قلبي هكذا هزائم وخيبات.

مرضت بالسّؤال أكثر من أي وقت مضى، ابتعدت عن العالم الذي عشته فيه اليأس والحرمان وأصبت فيه بأزمات نفسية تفاقمت وخلّفت في نفسي حممًا من البركان. أمام مرضي بالسّؤال هذا، وأمام فراق صديقي وتفكيري الكبير في وفائي لعهد عائشة الذي يثقل كاهلي ومرض أمّي المزمن، انبثقت هاجر في طريقي وكأنّ القدر ساقها إلي لتقلب حياتي رأسًا على عقب وتؤكد لي أنني ما خلقت إلا لأهزم، وأن كثيرًا من الخيبات لا تزال تلاحقني.

ذلك النصّ الذي كتبته، والذي ذكرته هاجر في كتابها، كان نتيجة هذه الأزمة التي مررت بها، كنت في حاجة إلى من يخفّف عنّي حُزَم الهموم التي أثقلت كاهلي. وأمام خوفي الذي ظل يلاحقني منذ انتحار عائشة، كتبت إلى طيفها رسالة فلسفية بأسلوب الرافعي الذي تعلّمنا من كتاباته، أستنجدها وأنا على وشك أن أنقض العهد الذي بيننا؛ لأنني لم أعد أطيق كلّ هذا الجحيم وهذا النّحس الذي يلازمني، لا أخت لي تحن عليّ ولا أم منذ ابتعدتُ عنها إثر أزمتي النفسيّة تجفّف دموعي، ولا أخ تربطني به علاقة أخوّة صادقة، لا حليبَ ثديٍ كالتي بيني وبين أخي الوحيد، ولا خليل لي بعدما خذلني صديقي الذي كنت ألجأ إليه كلّما أحسست بضيق. ولأنني أحسست باهتمام من هاجر بعدما جمعتنا الصّدفة أو القدرة الإلهية أو إرادة الطبيعة، لست أدري، بسبب ذلك العرض حول النحو التوليدي، اهتمامًا لم توله إلي من حملت بي تسعة أشهر، مال قلبي إليها، والنّفس تميل لمن تدلّلها وكم كانت هاجر تدلّلني؟

بعد كل هذا الجحيم الذي مررت به، كانت هاجر تسألني كلّ مرة عن سبب شرودي الكثير، وعن سبب وجهي العبوس الذي لا تعرف الابتسامة إليه طريقًا إلا لمامًا.

أعدت قراءة هذا النصّ الذي أشعل فتيل الذاكرة بداخلي، ودفعني إلى تصفّح ملفّات قديمة في قِمطر الذاكرة، واكتشفت فيه أشياء لم أحسّها يوم كتبته، ثمّ عدتُ لأتمم كتاب هاجر حيث توقّفت:

لم أسألك مباشرة هل كانت لك علاقة حبّ بأنثى من قبل؟ بل جعلت السؤال مهذبًا فسألتك عن نظرتك للأنثى أو إلى الجنس اللطيف، بعدما استرجعت التعريف المختلف الذي قدّمته للحب. بعد صمت طويل، كعادتك، والذي أحاول دائمًا تفسير سببه، أجبت: الأنثى وطن نلجأ إليه حين يضيق بنا الوطن، وملجأ نهرب إليه حين تلاحقنا الهزائم، ودواء يرمّم دواخلنا حين تتهشّم ويجبر جدار أرواحنا حين تتكسّر، لهذا أعتبره جبان كل من يخدش مشاعرها أو يعبث بها، أو يكون سببًا في سكب دموعها.

فاجأني رأيك هذا، وتركني أتساءل هل كل من تحمل تاء التأنيث أنثى ينطبق عليها قولك؟ هل تتحدث بصفة عامة أم أنك رسمت لرأيك إطارًا محدّدًا حشرتني فيه؟ فهل لي من أبجديات التحليل النّفسي ما يفسّر وجهة نظرك؟ ورغم ذلك طمأنني قولك هذا أنّك تقصدني وتحتاجني وطنًا وملجأً إليك، وقد كنتُ لك كلّ هذا يا وديع.

مع ذلك لم ينجل شكّي ولم تنطفئ شرارة السؤّال بداخلي، ألححت عليك أكثر من أي وقت مضى بأن تخبرني عن سبب كتابة ذلك النّص الفائض بجراح الماضي المفتوحة التي لم تضمّدها الأيام، لكنّك اتخذت المراوغة وسيلة لثنائي وقد نجحت في ذلك.

ليتك يا هاجر قرأت قول مولانا جلال الدّين الرّومي حين نطق بالحكمة فقال: «ليس كلّ ما في القلب قابل للبوح...هناك ما يولد ويموت، ولا يُفصح عنه».

القصة الرابعة: ليلة التحول

تأليف: أحمد موسى

الدولة: الإمارات

ليلة التحول

كنتُ في العشرين من عمري عندما بدأ حجمي يتقلص، وبدأ ظهري يتقوس، وبدأت أشعر بضمورٍ حادٍ في عضلاتي. كان ذلك في مساء يومٍ مشمسٍ وأنا في طريق عودتي إلى البيت، المكون من غرفتين صغيرتين: واحدةٌ للنوم، والأخرى لقضاء الحاجة.

وكنتُ قضيتُ أربع عشرة ساعة، وأنا أجوب الشوارع، والأزقة، أبحثُ عن عملٍ يُعيلني بعد أن درستُ أربعةَ أعوامٍ في كلية التجارة، وقد استلفتُ سترةً سوداء، وربطةَ عنقٍ سوداء رفيعة، وقميصًا أبيضَ من صديقٍ قديم.

بتُ أحفظ ما أريد قوله عن ظهر قلب، وأردده ليل نهار، وأثناء النوم؛ كلما طرقتُ الباب على صاحبِ عملٍ كنتُ أتحدث إليه، مثل روبوت أو أسطوانة مسجلةٍ بدقةٍ عالية الجودة.

«أنا لهيف وثيل، خريج من كلية التجارة، ولدي العديد من الشهادات التطوعية والتدريبية، ولدي خبرة جيدة في صنع الشاي والقهوة، ولدي مقدرة جيدة على الترتيب وحفظ نظافة المكان، وأبحثُ عن عملٍ منذ عامين، هل لديكم شاغرٌ ما...؟»

كانتْ جميع ردودهم واحدة: «اترك أوراقك وسنتصل بك لاحقًا!».

أما اليوم فكان الأمر مختلفًا؛ لقد طُردتُ ثلاث مراتٍ ووُصفتُ بالمتسول القذر، ولم أكن أعلم ما هذه الصدفة بهذا الفعل لهذا اليوم تحديدًا.

سئمتُ نفسي عندما قيدني آخرهم، ومزق سترتي، واتصل برجلٍ صديقٍ لهُ يعمل في السلطة، وصار ينظر إلي نظرةَ مجرمٍ حقير، وأمسك طرف سترتي باشمئزاز، بعد أن لطمني على وجهي بقوة، حتى شعرتُ بحروقٍ شديدةٍ على خدي الأيسر، وصرفني خارجًا ثم ركلني بقدمه العفنة، وبدأوا يضحكون كالحمقى وهم ينظرون إلي، وأنا أجر نفسي عائدًا من حيث أتيت!

سرتُ بخطىً هزيلة، لا أعرف إلى أين أذهب، وماذا أفعل؛ فكرتُ في الانتحار، قضيتُ وقتًا لا بأس به وأنا أُفاضل بين أن ألقي نفسي تحتَ سيارةٍ كبيرة، أو أن أنفض أحشائي بسكينٍ ما. وسوستُ لنفسي قائلًا:

«إن هذه الحياة مظلمة، ولا يحق لنا العيش فيها، إنها ليست لنا، إنها بلاد الأقوياء، وحياة الأقوياء، أصحاب الأموال والسلطة، هم وحدهم الذين يمتلكون القوة، ويستطيعون العيش في هذه البلاد، أما نحن الضعفاء الفقراء فليس لنا حياة هنا، ولا يُرغبُ فينا، الجميع يرانا سفهاء، وضعفاء، وقليلي شأن، كم نحن مقززون في نظر هذا المجتمع الظالم!».

لكني جبان في اتخاذ قرارٍ حقيقيٍ بهذا الشأن. بقيتُ أسير على طول الشارع الذي تحدّه من الجهة الشمالية حديقةُ أشجار كبيرة، ومن الجهة الجنوبية مبانٍ قديمة مضى على عمرها عدة سنوات.

عندما بدأت أقترب من نهاية الشارع شعرتُ بدوارٍ شديد، وكنتُ أتعرق بغزارة، وأشعر بأن حرارة جسمي تهبط من رأسي بسرعة، وأصاب بالغثيان، وكأن معدتي قد انقلبتْ بأكملها. حاولتُ التركيز والبحث عن مكانٍ أستلقي فيه، حتى أستعيد توازني، لكني لم أجد إلا ثغرةً صغيرةً في سياج الحديقة المجاورة؛ أظن أن كلاب الحي قد افتعلتها، حتى تتمكن من الدخول والخروج بحرية. لم أتردد في خوض تجربةَ الكلاب تلك في التسلل، والاستراحة بين الأشجار والحدائق!

مددتُ جسمي العلوي داخل الثغرة، ووضعتُ كفي على الأرضية الترابية، وسحبتُ قدمي إلى الداخل بهدوء كي أتجنب تمزق جسمي بفعل السلك الشائك الموضوع على حواف الحديقة بأكملها. مشيتُ بضع خطوات على أطرافي الأربعة، وابتعدتُ عن الثغرة قليلًا، ثم وقفتُ ونفضتُ الرمل والغبار الذي التصق بثيابي، كان أمامي الكثير من أشجار الرمان، والزيتون، ونخلتين أو ثلاث، وشجرة تينٍ عملاقة، وبضع خضراوات موسمية.

الأرض نظيفة جدًا، وخالية بعض الشيء من الحشائش الضارة التي تصاحب الخضراوات. أحسستُ بأن حيويتي بدأتْ تعود وأنا أتلفتُ يمنةً ويسرة بين هذه الطبيعة، وكأن روحي قد التحمتْ بكل عناصرها وخصائصها. مقابلي تمامًا بعض بيوت النحل المستخدمة في إنتاج العسل، وكان على جوانبها الكثير من الأزهار المتنوعة، وبعض أشجار الحمضيات والتي لم أستطع تمييز نوعها بدقة.

جلستُ، وسندتُ ظهري إلى إحدى أشجار النخيل، وأنا مندمجٌ جدًا بهذا المنظر المريح، وأراقب النحل وهو يتسول بين الأزهار سريعًا، ثم يعود إلى بيته ويقوم بعمله على أكمل وجه. ما شد انتباهي في ذلك الوقت، بين كل هذا هو شجارٌ حاد بين نحلةٍ تسير على الأرض بتخبط وهي تلعن كل شيء أمامها، وقد أصيبتْ بضجرٍ لا مثيل له، بعد أن حاولت الطيران مرارًا ولكنها كانت تهوي في آخر الأمر، وبين نملةٍ كبيرة تركض نحوها، وتضربها بأرجلها الأمامية على رأسها وتحاول انتزاع أجنحتها بفمها الذي يشبه المقص. للحظة تيقنتُ أن هذه النحلة المسكينة بحاجة ماسة للمساعدة العاجلة، أخرجت ورقةً من سترتي، وطردتُ النملة بعيدًا والتي كانت بدورها تشتمني بأشد اللعنات، ورفعتُ النحلة إلى إحدى الأغصان القريبة من موضع جلستي. سارتْ إلى الأعلى بعد أن ألقت التحية عليَّ برأسها؛ رددتُ عليها بتحيةٍ مشابهةٍ، وأنا أبادلها الابتسام، وعدت للنهوض. كان مزاجي قد تحسن قليلًا، وشعرتُ بالفخر لِمَا فعلتهُ من أجل تلك المسكينة. «نحن لسنا بحاجة إلى القوة حينما يتوجب علينا مساعدةُ أحدهم، نحن بحاجة إلى الإنسانية فقط!».

تمتمت لنفسي بذلك وخرجتُ من الحديقة، وأنا أُودّع الأشجار التي كانت تبتسم لي بحب، وتتحرك بلطفٍ وهي تصدر نغمةً جميلة وكأنها تؤدي رقصةً خاصة في التوديع.

سرتُ على جانبِ الشارع بهدوء، صافي الذهن، مرتاح البال، وقد رُسِمَتْ على شفتيَ ابتسامةً عريضة. كانت الطريق تتزين بالفتيات المراهقات وهنَّ يتضاحكنَ ويتغامزن فيما بينهنّ، ويرتدين حقائبهنَّ المدرسية؛ بينما الباعة المتجولون من الأطفال والفتيات

الصغار يتسولون من الجميع بطريقةٍ شرعية! وهم يحملون علب العلكة، والبسكويت، ويتعلقون ويتوسلون الجميع أن يشتروا منهم، بينما تلاحقهم السلطات وتهرب من أمامهم الفتيات، ويصرخ في وجههم الشبان!

كانت ملامحي تبهت من جديد، وعيوني أخذت تتورم. وكلما تقدمتُ بضع خطواتٍ جديدة، أشعر بأنني أسير بصعوبةٍ بالغة وكأن لياقتي قد فُقِدَتْ فجأة، جاهدتُ نفسي أكثر على المسير، وخفقات قلبي تزداد أكثر فأكثر، وجسمي يتعرق بغزارة، وأنا أتمايل في عرض الشارع كقطٍ جائعٍ مشرد، ونظري يتراجع بشكل ملحوظ؛ فقدتُ مقدرتي على الوقوف بشكلٍ ثابت، وأصبح الألم يتمركز في عمودِيَ الفقري الذي بدأتُ أحس بانحنائه!

استندتُ إلى جدران المباني المجاورة، وجررتُ نفسي بخطىً ثقيلة. لا أعلم كم من الوقت قضيتُ وأنا على هذه الحالة، ولكن في كل الأحوال كان الليل قد أسدل ستاره، وخَلتْ الشوارع والأزقة من الآدميين، وأغلقتْ جميع المحلات التجارية، ولم أكنْ أسمع إلا عواء الكلاب، وشتائم القطط وهي تخوض معاركها الملحمية مع بعضها!

أسير وأنا أتلفتُ يمنةً ويسرةً، برعبٍ شديد، بينما تتمايل الظلال من جانبي ومن أمامي، وخلفي، وكأنني مراقب من جميع الاتجاهات!

عندما اقتربتُ من باب المبنى الذي أسكنُ فيه، صرختُ بأعلى صوتي، لعل أحدهم يأتي ويخلصني من كل هذه الوحدة والألم والخوف، ولكن ما أرعبني أكثر هو فقدان قدرتي على الصراخ، وأصبح صوتي يسمع كذبذبات نملةٍ صغيرة، أعدتُ المحاولة مرةً أخرى. قلت لنفسي: «لا بد هناك خطأ ما». ولكن دون جدوى. اقتربتُ من مقبض الباب الذي أصبح فوق رأسي، ولم يعد بوسعي الاعتدال حتى أفتحهُ، حاولتُ التقاطه، قفزتُ، ولكن أيضًا دون جدوى. كانت قفزتي لا تتعدى المليمترات، لقد فقدتُ حيويتي وطاقتي بالكامل، أصبتُ بصدمةٍ حادة مما حصل لي. وكأنني في حلمٍ مرعب، ضربتُ الباب بقبضتي بقوة، حتى تألمتُ أشد الألم، وأنا أسمع طقطقةً في يدي، صرختُ بأعلى صوتي، وعضضتُ على يدي الأخرى بقوة؛ ولكن ما أذهلني وأفقدني قدرتي على الشعور هو أنه لم يعد في فمي أسنان!

تحسستُ لثتي بخوف شديد، تحسستُ وجهي، وعَينَيَ، وأنفي، وشفتي، وشعري، حتى أتأكد من أن كل شيء على ما يرام، يا إلهي ماذا حصل؟ ماذا يجري لي؟ أصبح وجهي لزجًا أكثر من اللازم، وعيناي تضيقان كثيرًا، وأنفي يختفي شيئًا فشيئًا ويتساوى مع وجهي ويلتصق به، وشعري يسقط بغزارة مريعة، وأُصبتُ بضمورٍ حادٍ في حجم رأسي، تحسستُ جسمي، وإذ بحجمه يتقلص، وحرارته تتراجع، وملابسي تتسع على جسمي، وأحسستُ بفضفضتها كثيرًا.

أُصبتُ بالعجز عن فعلِ شيء، منذهلًا مما يحصل لي، ومتعبًا أشد التعب، كأنني مصابٌ بإعياءٍ بالغ الخطورة، لم أستطع الوقوف أكثر من ذلك، همدتُ على الأرض كعجوزٍ هرم، وبكيتُ بعجزٍ تام وأنا أنظر إلى يديّ وقدمي، وجسمي وأردد: «يا إله القوة، يا إله كل شيء، ماذا حصل لي؟ لماذا أصبتُ بكل هذا الضعف، وكل هذا الإعياء؟ ماذا يجري لي؟».

كنتُ أشعر ببرودةٍ حادة، تعصر عظامي، وتنهش جسمي، لم أستطع الجلوس أكثر من ذلك. بدأتُ أصابُ بنوبات أفكارٍ وهلعٍ مخيف، وأنا أتساءل في نفسي، وكأنني اثنان: أحدهما يفكر ويقترح، والآخر ينفي ويؤكد.

- ماذا لو أصبحتُ جرثومة الآن؟
- لا، لا؛ هذا مستحيل. لا يمكن حدوث ذلك!
- هل هذه أعراض الموت؟ هل سأموت؟
- لا يجدر بي الموت الآن؛ لم أفعل شيئًا حتى أستحق الموت بهذه الطريقة!
- لماذا حجمي صَغُرَ هكذا؟ هل هذا بسبب قلة النوم والطعام؟ يا إلهي لم آكل منذ أيام!
- نعم، لا بد أن هذا هو السبب!
- أجل، لا بد من ذلك! سأكبر وأعود كما كنتُ الآن عندما آكل!
- يا إلهي!
- ماذا سأفعل إن لم أجد شيئًا من الطعام ككل ليلة! هل سأختفي في الصباح؟
- لا بد من وجود خبزٍ يابس!
- نعم، لا بد من ذلك! سأجد الخبز وأغمسه بالماء الدافئ! أجل ... أجل!
- سأعود إلى حجمي الطبيعي!

قلتُ ذلك كله وضحكتُ بأملٍ وعجزٍ كبيرين! وتعلقتُ بأطراف الباب، بعد أن اقتنعتُ تمامًا بأني يجب أن أحصل على الطعام حتى أعود كما كنت في السابق؛ طويل القامة، متسع العينين، وذا حيويةٍ عالية!

التقطت مقبض الباب، وتعلقتُ بأطراف أصابعي على حوافه السفلية، وأدخلتُ المفتاح، ولكن وجدتُ صعوبةً شديدةً في إدارته، لقد كان متينًا جدًا، حاولتُ مرةً أخرى بكلتا يدَي، وأنا أعض قبضة البابِ بفمي، وأخيرًا أدرته مرة، ابتسمت لهذا؛ وإذا بي أنسى القبضة الموجودة بين شفتيّ وأسقط على ظهري، صرختُ بقوة بعد أن شعرتُ بألمٍ حاد، وكنتُ قد انقلبتُ على ظهري مثل السلحفاة، ولا يمكنني قلب نفسي.

حاولتُ الانقلاب مستعملًا أطرافي ولكنني وجدتُ هيكلي يستدير بشكل دائري. كنتُ على وشك فقد الأمل، وأنا أحاول وأحاول... حتى تعبتُ وتوقفتُ عن الدوران، شعرتُ بالإرهاق الشديد، لم يكنْ أمامي إلا النواح بهدوء وأنا أنظر إلى السماء؛ كانت صافيةً تمامًا، والقمر يسير بهدوء وأنا أراقب حركته، أدرتُ رأسي نحو الباب قليلًا، وعدتُ للنظر إلى بطني وأنا أتحامل على رقبتي بصعوبة، كأنني أتفقد ما قد حصل لي، بأسىً وحزنٍ شديدين!

تلَفَتُّ حولي، أبحثُ عن شيءٍ يساعدني على الوقوف، ولكن في كل مرة كنت أصاب بيأسٍ أكبر، عدتُ للنظر إلى القمر، ولكنه استغل انشغالي في التفكير وأصبح يسير خلفي، كان عليّ إدارة رأسي إلى الوراء بشكل مؤلم حتى أراه!

تنهدتُ وحاولت تحريك نفسي حتى أتمكن من النظر إليه بزاويةٍ مريحة، وإذا بإحدى قدميّ ترتبط بشيءٍ ما، حاولتُ سحبها ولكن دون جدوى، كان ذلك مؤلمًا جدًا ويصيبني بالقشعريرة، لم أستطع احتمال كل ذلك الألم. أدرتُ نفسي بقوة وأنا أسحب قدمي، فإذا بي أنقلب بسرعةٍ على بطني، سحبتُ قدمي، وجررتُ نفسي بهدوء حتى وصلتُ إلى عتبة الباب. كنتُ متعبًا جدًا من كل ذلك، نظرتُ إلى القبضة مرةً أخرى وأنا أتنهد. خائفًا من القفز هذه المرة، خشيتُ من أن أكرر السقوط، أو أن يقضى عليّ تمامًا. شرعتُ أفكر وأنا أشيح برأسي هنا وهناك، وأتنفس بصعوبة، ولكن لم يكن لدي خيارٌ آخر؛ يجب أن أستعيد حجمي بسرعة...!

قفزتُ على الباب وتمسكتُ بقبضته، كان يصيبني ألم حاد يشبه التمزق العضلي، ينهش ذراعيّ، تشبثتُ بقوةٍ أكبر خشية السقوط وأنا أبكي؛ كانت أنفاسي تزداد، وعيناي تذبلان من الألم، أصبح جسمي هزيلًا جدًا وأصبتُ بحُمّى مُهلكة. وكانت القبضة تتملص من بين أصابعي. وأخيرا فتح الباب عندما أصبح ثقل جسمي يُحمل على أطراف القبضة.

سقطتُ على بطني هذه المرة على حافة المدخل، كنتُ متعبًا جدًا ومُجهدًا، نظرتُ أمامي بفخرٍ لما فعلته هذه الليلة، وأغمضت عينَي.

رأيتُ نفسي أقف على حافة طبقٍ عملاق طوله متران وعرضه متر ونصف، ورائحة الطعام المنبعثة منه زكية جدًا، وكان يجلس إلى جانبه سيدٌ سمين، وله وجهٌ مستدير، وعينان واسعتان، وأنفٌ مذبب، ويرتدي ثيابًا غالية الثمن، ربما أحتاج أعواما وأعواما من التوفير حتى أتمكن من ارتدائها، ويملأُ أصابعه بالخواتم الفضية والذهبية، وينظر إليّ بكِبرٍ عظيم، وكانت تجلس على جانبه الأيمن امرأة مذهلة، بصدرٍ عارٍ، ومن الجهة الأخرى امرأة أجمل. يا لسعادته بهذا النعيم، ما أجمل المال، والطعام، والنساء! شعرتُ بغصةٍ حادةٍ في قلبي، كان يأكل بشراهة مروعة من اللحم المشوي الموضوع أمامه، وهو يستعمل كلتا يديه، كنتُ أشعر بالجوع الشديد وبالضعف القاتل، تقدمتُ خطوتين نحوه وركعتُ بالقرب منه وقلتُ لهُ متوسلًا:

- سيدي أيها الملك، القوي، العزيز، يا صاحب المال والسلطة، إنني أشعر بالجوع ولم آكل اللحم منذ شهرين أو ثلاثة، يا سيدي الكريم، هل تمنحني قليلا منه، لأطعم نفسي وأهل بيتي!؟

كنت أتحدث إليه وأحاول منع نفسي من البكاء أمامه، وأنا أشعر بامتلاء عيني بالدمع، وبضيق في صدري، وارتجاف شفتيّ بهذا التوسل، ظننتُ أنني سأحصل على شيءٍ من الطعام يعيد لي عافيتي، ولكن طلبي هذا زاد غضبه وصار يلعنني، ويبصق في وجهي ببقايا الطعام المتعفن الملتصق بين أسنانه، وهو يقول لي:

- أيها الحشرة القذرة، هل تحسدني على الطعام، بتوسلك هذا، أيها الفقير القذر، البائس! لا يحق لكم أن تأكلوا من أكلنا ولا أن تشربوا من شربنا، أنتم قاذورة وذباب، كان عليك أن تقبِّل يدي لأنني أجعلك تعمل في بيتي مقابل أن أطعمك، وجبةً واحدةً في اليوم! أنتم خلقتم على هذه الأرض لخدمتنا فقط، لا يحق لكم الطلب، أنتم عبيد تنفذون ولا تطلبون، تتوسلون ولا تأخذون!

قال لي ذلك ودفع الطبق بقدمه وبعثره على الأرض، كانت دموعي تسقط رغمًا عني، وألم ظهري يزداد أكثر فأكثر، وكأن سكينًا كبيرة تغرس في أحشائي وتقطعها من الجوع، لم أتردد في محاولة أكل شيء من الطعام المبعثر، إذ به يقف ويضربني بقدمه على بطني، وهو يقول:

- متسولٌ قذر، أخرج من بيتي...!

فتحتُ عيني من شدة الألم، نظرتُ حولي لم أجد شيئا؛ كان الظلام يملأُ كل شيء من حولي، حمدتُ الله أنني كنتُ أرى حلمًا، ولم يحصل ذلك حقيقةً، وقفتُ في مكاني وتحاملتُ على نفسي، وبحثُ عن شيءٍ من الطعام، بحثتُ في الغرفة وتحت الفراش، وبين الأواني، وفي زوايا البيت، ولكنني لم أجد، كان جسمي يتعوج أكثر.

سرتُ ببطءٍ شديد حتى وصلتُ إلى الغرفة، كانت الفوضى تعمّ المكان، ثيابٌ ملقاة، وأواني فارغة تملأ المكان، وفتاتُ أوراقٍ ممزقة. خلعتُ سترتي، بصعوبةٍ وأنا أتألم بشدة في كتفيّ، وظهري، وذراعي، حتى بكيتُ من ذلك الألم، وألقيتها في وسط الغرفة. كنتُ أشعر بالتقشف وبحكةٍ حادة في بلعومي، رغم حبي وتفضيلي للصيف، إلا أنني لم أستطع تحمل هذه الحرارة، وبدأت أبحث في أركان البيت عن بعضٍ من الرطوبة قبل أن يُقضَى عَلي، كانت حرارتي مرتفعة جدًا، وكنتُ بالكاد ألتقط أنفاسي، وأصبتُ بصداعٍ لا مثيل له على الإطلاق، وأحسستُ بتغيراتٍ بيولوجيةٍ رهيبة في جسمي، بتُ أشعر بأن معدتي أصبحت أعلى من القلب في موضعها، وكان يخرج من جبهتي قرنان صغيران، حاولت تحسسهما، ولكن يداي تقلصتا جدًا، ولم يعد بإمكاني الاستفادة منهما، وكنتُ أشعر بألمٍ حادٍ جدًا أسفل بطني، اقتربتُ من إحدى زوايا الغرفة، وأنا أتسكع، كالمخمور، كانت رطبة جدًا وتنتشر بها بعض قطرات الماء، ومناسبة لحرارة جسمي الجديد، تكورت على نفسي بشكل جيد، ووضعتُ رأسي بين قدمي، وغفوت من التعب.

لا أعلم كم من الوقت أمضيتُ بتلك الحالة، هل كان عليّ أن أحسبهُ بالساعات، أم بالدقائق، أم بالثواني؟ ولكني شعرتُ بأن الألم قد زال تمامًا، كنتُ سعيدًا بهذه الراحة التي لم أنعم بها كل تلك المدة، ولكني لم أزل أتحسس من حرارة الجو المرتفعة. أخرجتُ رأسي، وهممتُ بالمسير، وأنا أتلفّتُ بهدوءٍ في المكان، وأحاول التعرف على الأشياء بالرائحة، كانت قدماي قد اندثرتا تمامًا، وأصبحتُ أشعر بقدمٍ عضليةٍ واحدةٍ فقط، وأصبح جسمي رطبًا جدًا ولزجًا، وكان يلتصق بي مجسمٌ جيريٌ متين، يُشعرني بالدفء وبالاطمئنان، وبرز لي قرنان آخران في رأسي، يحملان عينيّ عليهما، وكنتُ أشعر بأن حاسة الشم لدي أصبحت متطورةً جدًا، تستقبل أدق الروائح.

حاولتُ السير ولكن شعرتُ بوجعٍ شديد أسفل جسمي، كانت الأرضية التي أسير عليها جافة جدًا، وصار نظري يتراجع كثيرًا حتى أصبحتُ لا أرى إلا تخيُّلًا، كنتُ متحمسًا جدًا لأرى نفسي الجديدة في المرآة، كانت حركتي بطيئة جدًا، قضيتُ وقتًا لا بأس به وأنا أسير على حواف الجدران، حتى وصلت إلى بوابة الخروج من المنزل، كان الباب مفتوحًا منذ دخولي، والهواء القادم من الخارج قبيل دقائق الفجر بقليل، منعش ويغذي الروح.

أصبحتْ حركتي أكثر رشاقةً، وبقيتُ أسيرُ حتى وصلت إلى عتبة الباب، كانت هناك بقع ماءٍ صغيرة، تضيء أثر انعكاس مصابيح الطرقات عليها، وكنتُ متعبًا وبحاجة ماسة لرشفةِ ماء، اقتربتُ منها وخفضتُ رأسي قليلًا وأخرجتُ لساني وشربت، حتى ارتويت. خفضتُ عَينَي أكثر لأتمكن من رؤية نفسي. فصُدمتُ بخوفٍ شديد وتراجعتُ عدةَ خطواتٍ إلى الخلف.

شعرتُ بالحزن الشديد، وكأنني أصبحتُ بهمٍ لا مثيل له على الإطلاق، جررتُ نفسي وذهبتُ إلى المحاصيل المجاورة وأنا أخفض رأسي من الحزن، والبؤس الذي أصابني. كانت تقابلني الكثير من الحلزونات متباينة الأحجام، منها بحجم العقلة ومنها بحجم الكف، ويبدو أنني كنتُ أكبرها حجمًا!

شعرتُ بجوعٍ مؤلم، وخشيتُ إن لم آكل الآن، سيزداد وضعي سوءًا وربما أُسخَطُ أكثر من هذا، أو ربما أصبح دودة مقززة! فقد مرّ وقتٌ لا بأس بهِ على عدم تناولي أي لُقيمة!

كانت جميع الحلزونات والديدان الموجودة تنظر إليّ نظرةَ حبٍ واطمئنان لا مثيلَ لها، ولم أشعر بها قط في أعين الآدميين الذين كنتُ أتعايش بينهم!

تابعتُ المسير، دون أن أتحدثَ إلى أي منها، حتى وصلتُ إلى إحدى أوراق الخس الملقاة، قضمتُ القليل منها، وتابعتُ سيري ببطء، لم أكن أدرك بعد أنني أصبحتُ كائنًا مخنثًا! إلا عندما حاول أحد الحلزونات الذي يصغرني قليلًا الالتصاق بي، فتهيجت أعضائي التناسلية الذكورية والأنثوية على حدٍ سواء!

خلصتُ نفسي منه بعد أن لعنته وعضضته، وهربتُ إلى أحد الجذوع القريبة، شعرتُ بالقرف والتقزز من كل شيء، ووددتُ البكاء ولكنني خشيت من استهزاء هذه الكائنات مني رغم لطفها وبشاشة وجهها! فيبدو أنها تتعايش مع كل هذه الظروف بشكل طبيعيٍ جدًا وهي مستمتعة بهذه الحياة التي تعيشها!

وقفتُ على الجذع أراقبهم وأشم رائحتهم وهم يتزاوجون، وأراقبهم وهم يتلاعبون ويتضاحكون، ويأكلون. أصبتُ بكآبةٍ وحزنٍ عظيمين مما قد حصل لي، لقد كنتُ آدميًا، ذا هيئةٍ مقبولة، لولا الفقر وهذا الألم الذي حل بي فجأة، وغيّر من هيئتي إلى هذا الشكل الفظيع!

لم أتمكن من تقبل هذه الفكرة أن أتحول وتتبدل هيئتي الآدمية القوية البسيطة الجميلة، إلى حيوانٍ، أو حشرةٍ ضعيفة، ورخوية، حاولتُ تسخير دماغي للتفكير في طريقةٍ أستعيد بها نفسي، وأنا أتساءل عما حدث لي هذه الليلة، أعدتُ التفكير بكل شيء منذ خروجي للبحث عن عمل مرورًا بالألم الذي مسني، وصولًا إلى هذا المكان وعلى هذه الهيئة، كنتُ متعبًا جدًا؛ لم أستطع التفكير بشكلٍ جيد، وكنتُ مضطربًا، فبدأت أشعر بخللٍ في إفرازاتي الهرمونية، ما جعلني أفقد السيطرةَ على نفسي وأسقط، وبشكلٍ فطري رأيت نفسي أحتمي داخل القوقعة التي أصبحتْ تشكل بيتي ومأمني، والتي أشعر بثقلٍ شديدٍ وأنا أحملها، وأسير بها ذهابًا وإيابًا، ما حاجتي إلى كل هذا التعب! يا إلهي ماذا جرى؟ ماذا فعلتُ بنفسي؟ ماذا فُعِل بي حتى أتحول هكذا إلى هذا الشكل؟!

بكيتُ وانتحبتُ داخل القوقعة، بصوتٍ مختنق، وأنا أفكر في طريقةٍ أستعيد بها آدميتي المسلوبة. وحينما هدأتُ قليلًا سمعتُ ذبذبة أصواتٍ وأحاديث جانبيةً كثيرةً من حولي...

كان يقول أحدهم: «يا له من مسكين!».

ويقول الآخر: «لا بد أنهُ لم يأكل منذ أيام!».

ويقول صوت ثالث: «لا بد أنه تعرض لإهانة قاسيةٍ حتى أصبح مثلنا!».

ويقول حلزون رابع: «ملعونٌ هذا الفقر الذي غير من هيئتنا!».

اجتاحتني السعادة بعض الشيء، لقدرتي على فهم الذبذبات اللغوية القادمة، وكررتُ ما قالهُ الصوت الأخير بينهم... «ملعونٌ هذا الفقر...!».

وخرجتُ من قوقعتي بسرعة، وأنا أنظر إلى جميع من أتى من الحلزونات، والديدان، والفراشات، وصرختُ بهم متسائلًا بذهول:

- هل كنتم آدميين؟!!!

قالوا جميعهم بصوتٍ واحد، وكأنهم مصابون بلعنةٍ جماعيةٍ وهم يتأسفون على أنفسهم، وينكسون رؤوسهم:

- نعم، لقد كنا؛ لولا الفقر والجوع والإهانة!

فقلتُ باستغرابٍ وخوفٍ شديد:

- وهل سنبقى هكذا بقية حياتنا؟!

فقالتْ دودةٌ كبيرة لها عددٌ كبيرٌ من الأرجل وهي تبكي:

- كنتُ فتاةً مذهلة، ولي بشرةٌ صافية وناعمة، وأتزين بشعرٍ بنيٍ يصل إلى خاصرتي، وتميزني عيونٌ جميلة ونظرةٌ حادة، ولكن ماذا حصل؟ لقد أصبحت دودةً على هذه الهيئة، كما ترى، لأنني فقيرة وابنة عائلة فقيرة، لقد حصل كل ذلك عندما حاول أحد أفراد السلطة الأقوياء الأغنياء سلب جسدي رغمًا عني، لقد بصق في وجهي، وبال على جسدي، وهو يضحك كالسكير، ونعتني بالقاذورة العفنة، وحرمني الطعام والشراب والمنام!

وقالتْ فراشةٌ صغيرة، ذات لونٍ رمادي، ومنطفئ:

- «لم أنعم بيومٍ جيدٍ منذ ولادتي، كان الجميع ينعتني بالطفلة القذرة، وكانوا يسمونني شؤم الحي؛ لأنني أجلس على مفترقات الطرق لأتسول، وأستيقظ مبكرًا لأبحث عن بقايا الطعام في سلاَّتِ المهملات، وعن بعض الألبسة القديمة. قضيت أيامًا لا بأس بها، بصحبة البرد والجوع!»

وقال حلزونٌ صغير، يبكي بشدة وهو بحجم عقلة أصبعي عندما كنتُ آدميًا:

- «كنتُ عاجزًا وأكره حياتي جدًا، لأنني لا أستطيع إحداث أي تغييرٍ جذريٍ فيها، كنتُ أتعرض للضرب دومًا من الجميع؛ من أمي، وأبي، وإخوتي، كان الجميع يطلب مني العمل، وعندما لا أعمل كنتُ أحرم من وجبتي في المساء. وذات يوم كانت لدي رغبة في أن أصبح تلميذًا في إحدى المدارس الكبيرة التي أجمع الخبز اليابس منها كل مساء، وعندما ذهبتُ إليها وطلبتُ من المدرسين تعليمي ووضعي في أحد فصولها، صاروا يتضاحكون ويسخرون من هيئتي الفقيرة، وطردوني...!»

بقيتُ أستمع إلى قصصهم واحدًا تلو الآخر، لم يكنْ باستطاعتي مواساةَ أحد فيهم، كنتُ أكتفي بالبكاء على دموعهم، وقصصهم، جميعنا أصبنا بلعنة الفقر، والذل. لم يكنْ تغير هيئتنا، ومظهرنا، وفسيولوجيتنا صدفة، هكذا هو العالم يتغير تدريجيًا؛ على قدر ما تملك من المال والسلطة، من آدميٍ مُعَزّ، إلى حشرةٍ مُذَلَّةٍ، أو ربما إلى حيوانٍ مفترسٍ وبشع، حسب القدر، والطريقة التي يتعرض لها الفرد من الذل والإهانة في هذا المجتمع!

وفي أثناء حديثنا، اقترب منا حيوان ما بين الكلب والإنسان، يبدو أن هيئته ستتغير وتتبدل وسيصبح كلبًا كبيرًا. وقف مقابلنا وبدأ يتحدث:

لقد مرت عدة سنواتٍ وأنا على هيئة كلبٍ لقيط، ومشرد، قبل أن يعتني بي أحد الآدميين الأقوياء من أغنياء السلطة الحاكمة؛ أصبح يطعمني، ويسقيني، ويجعلني أنام على باب بيته، مقابل الحراسة التي أقدمها له ليلًا ونهارًا، وها أنا... كما ترون؛ لقد بدأت هيئتي ترجع إلى سابق عهدها، وإلى آدميتها. إن الطعام والمال يجعل لنا قيمة وصورة جميلة حتى في هيئتنا! لا أعلم كم من الوقت سأحتاج حتى أعود إلى كامل هيئتي القديمة، ولكنني سأعود بالتأكيد؛ وها أنتم كما ترون لقد تحولت إلى كلبٍ، وعندما أصبحتُ ذا قيمةٍ وألازم الأقوياء والأغنياء، وأصحاب النفوذ، صرت أنال كل شيءٍ أريده من الاحترام، والطعام، والمأمن وأواجه الفقراء

التعساء أمثالكم، الذي يتسولون ليلًا ونهارًا، بين الأزقة! إن كنتم تريدون استعادة آدميتكم، ها أنا أقولها لكم... إن كنت تريدون أن تعودوا كما كنتم آدميين، سأساعدكم في ذلك.

قال ذلك، فهتف الجميع:

- كيف؟ هيا قل لنا! نتوسل إليك!

فقال وهو يضحك بنشوة المنتصر:

- يا أصدقائي الأعزاء، إنني مؤمنٌ بقضيتكم هذه وبحاجتكم الماسة إلى أن تعودوا إلى هيئتكم الأصلية الجميلة، كما ولدتكم أمهاتكم، وأنا مستعدٌ لأساعدكم، ولكن عليكم أن تساعدوني في البداية لأكون سيدكم، وأن تنفذوا كل ما أطلبه منكم بدقة، فإن أصبحتُ قويًا وذا نفوذٍ أكبر سأجعلكم ترافقونني حتى تعودوا كما كنتم...!

لم تعجبني هذه اللهجة، رفعتُ يدي وطلبتُ الاستئذان، وقلتُ له قبل أن انسحب من المكان:

- أنا مستمتعٌ بهذه الهيئة الجديدة، لا أريد العودة، ولا أحب المقايضات...!

كان يضحك بينما أنا أنسحب من مكاني إلى جذع شجرةٍ قريبة. كانت جميع الكائنات المجتمعة ترى بأن هذا الحيوان الغريب، إنسان عظيم ومنقذ صادق، وهذه النظرة التي منحها إياه الجميع كانت كفيلة بجعله يتحول أمام عيوننا جميعًا من كلب، إلى آدمي، وكأنهُ فِعلُ ساحر، كان الجميع منذهل بهذا التحول الكامل، وكانوا ينظرون إلى أجسادهم ربما يكون قد أصابهم شيءٌ من هذا السحر...!

وعندما استعاد كامل هيئته الآدمية، صار يضحك وقد أصابته نوبةٌ من السعادة، وذهب وترك الجميع! أدركتُ ما حصل أن نظرتنا للأشياء بجانب المتغيرات الأخرى هي التي تغير هيئتنا، ربما يتغير من كلبٍ لقيط وأجرب، إلى آدميٍ محترم، أو ربما من إنسانٍ طيب إلى حشرةٍ قذرة. المال والاحترام، هما ميزان هذا العالم!

وبعد وقتٍ يسير، جاء أحد الآدميين الغرباء وكانت ملامحه وملابسه وطريقة كلامه غريبة إلى حدٍ مزعج، وبدأ يأمرنا بأن نخرج من بين المحاصيل بسرعة، وهو يخوض تفاوضًا حثيثًا على المبلغ الذي سيبيع به المحصول مع أحد التجار، بعد أن دهس بعض الحلزونات بقدمه الثقيلة، وحطم جمجمتها. وهو يقول:

- استمعي لي أيتها الحشرات القذرة الضارة، لقد تحملتكم بما فيه الكفاية، إن فتح أحدكم فمه وأكل شيئًا من هذه المحاصيل سيكون مصيركم الموت جميعًا، هل تفهمون!؟

فقال له ذلك الزبون المتعجرف الذي يصاحبه:

- إن هذه المحاصيل تعجُّ بالحشرات، لن أدفع لك فلسًا واحدًا، إلا إذا قمتَ بطردها وقتلها؛ حتى ينمو المحصول بشكل أفضل، ويلقى ترويجًا، وبيعًا أكثر!

ووصف له نوعًا فتاكًا من الكيماويات السامة!

القصة الخامسة: وجهان لعملة واحدة

تأليف: ياسمين إدريس

الدولة: تونس

وجهان لعملة واحدة

تسألني يا سيدي القاضي لماذا قتلت نرجس؟ وتريد أن تعرف السبب بكل إصرار، لكنني في الحقيقة لم أقتلها يا سيدي، ولا يمكنني أن أفكّر أبدًا في هذا الأمر. لا شك أنك تتوهم الأمر، أو أن بعض الوشاة قد أخبروك بهذا الأمر وافتروا عليّ زورًا وبهتانًا على أمل الإيقاع بي، رغم أنني لا أعرف لي عاذلًا أو عدوًّا قد يتهمني بتهمة من العيار الثقيل كهذه على أمل التخلص مني أو الزج بي في السجن، أو لعلها مزحة ثقيلة من مخططات أصدقائي؛ فقد عهدت مقالبهم الّتي تكاد تودي بحياة الفرد لولا ألطاف الله، لو أن الأمر كذلك فلتخرجوا من مقاعدكم وكفى، لقد ضقت بهذا ذرعًا.

كيف أتّهم بهذه الجريمة النكراء، والجميع يعرف صلتي الوثيقة بنرجس والمودة الّتي تجمعنا والألفة الّتي توحّدنا، إنها صديقتي، وإن صحّ القول فهي توأم روحي وأختي الّتي لم تنجبها أمّي مذ سنين عديدة، لا أتمكّن من إحصائها نظرًا لكثرتها، لقد كنت أعشقها، كانت مرآة روحي، كانت بئرًا عذبة أستقي منها عند الظمأ، وأودعها كلّ أسراري، كانت بدري في الليالي الأشد حلكة وشمسي المشرقة في أيام الشتاء الملبّدة بالسّحب. كانت ملاذي. لطالما ساعدتني على تجاوز الصّعاب، ولطالما قابلت صنيعها الطّيب بالمثل وأكثر، كنت أجود عليها بأشياء قد أحرم نفسي منها وأقول في قرارة نفسي هي أنا وأنا هي، وسعادتها من سعادتي، ولم أمنّ عليها بشيء بتاتًا، كانت لروحي غذاء ولكلومي دواء، فكيف أتهم بإراقة دمها؟

«لماذا وضعت حدًّا لحياة نرجس؟»

أيطرح عليّ أنا هذا السؤال، أنا الّتي أسير على الأرض كملاك خشية أن أطأ ـ دون قصد ـ حشرة وألحق بها الأذى، ليس هناك في هذا الكون الكئيب أشد فظاعة عندي من مرأى الدّماء حتّى دماء الحشرات، أنا الّتي أمقت مناظر القتل والحروب حيثما حلّت، ولطالما حلمت بمدينة فاضلة كمدينة أفلاطون تخلو من المجازر وأم قشعم والدّماء حتّى نأيت عن مجال الطّب، ولم أقتف خطى أبي الّذي برع فيه؛ لأن لا قوة لي على ولوج غرفة العمليات لأشاهد سيول الدّماء الغزيرة المتدفقة، حتى إن خياطة جرح ضئيل أو معالجة نزيف بسيط يصيبانني بالدوار من هول منظرهما. أنا الّتي ترفض رفضًا باتًّا حضور مراسيم ذبح الأكباش يوم عيد الأضحى، متجاهلة قدسيتها والأجر الّذي قد يطالني بفضلها، كيف لي أن أشاهد مصرع صديقي الخروف الّذي نزل ضيفًا عندنا طيلة أسبوع وأجزلنا العطاء له وأكرمنا مثواه، أبسهولة أغدره وأراه صريعًا يتخبّط في دمائه؟ هذا حيوان جاورني أسبوعًا أرفض مشاهدته قتيلًا، فما بالك بقتل صديقتي الّتي كانت بمنزلة رفيقة عمر لي، هل تتصورني أهشّم رأسها أو أطعنها أو أبقر بطنها ببشاعة.

لا أحفل بدمائها المتدفقة في كلّ الأرجاء؟ لا يا سيدي القاضي أبدًا، هذه تهمة مغرضة وجور صريح، هذا حدث مستحيل الوقوع، فكيف تصدّق مثل هذا الهراء؟

يا سيدي، لست بمجرمة قتلت رفيقة دربها، فلو أنّك تقبل هذا أساسًا لاستجوابي، سوّل لي أن أروي لك خلاصة ما قد يهمّك من قصّة حياتي وعلاقتي بنرجس.

منذ سنوات لا تكاد تحصى، في مطلع طفولتي انتقلت نرجستي وأسرتها للسكن بحيّنا، كنّا طفلتين في عمر متقارب، فقد كانت تكبرني بسنة ونيف، لم نتعرف على بعضنا حينها، كنت أعرف اسمها ومنزلها فحسب، وهي كذلك على الأرجح.

مرّت سنوات وسنوات إلى أن نظمت وكالة أسفار رحلة إلى إحدى المدن الشمالية الرائعة الّتي تعجّ بالآثار والمناظر الخلابة والمروج الممتدة، فأصرّت أمّي على المشاركة فيها واصطحابنا معها، ولم نعص لها أمرًا .

في الحافلة الّتي ستقلنا إلى هناك، فوجئت بأنّ نرجس كانت من جملة الرّكاب، وبالصدفة كنّا الطّفلتين الوحيدتين، جلسنا معًا، ثم رحنا نتبادل مختلف أطراف الحديث حتى وصلنا للمدينة الّتي يممنا شطرها .

لم نفترق طوال اليوم، رحنا نلتقط الصّور على مقربة من الآثار ونطلق العنان لأنفسنا في المروج الممتدة، نركض ونعبث والبسمة لا تفارق وجوهنا حتّى أنهكنا التعب، فقفلنا عائدين نحو مدينتنا .

منذ ذلك اليوم، كنا نحيي بعضنا البعض عند كلّ لقاء ونبقى لساعات طويلة نتبادل أطراف الحديث دون كلل حتى يسدل الليل ستائره المعتمة فنفترق مكرهتين.

مرّت أيّام وأيّام، وأعاد القدر جمعنا في قاعة رياضة، كنّا هاويتين لكرة السلّة، نكاد نتمرّن يوميًّا، لا من فرط حرصنا على التّمارين وإنّما ليتسنّى لنا أن نلتقي باستمرار، وهكذا توطّدت علاقتنا، كنّا نتمرّن نهارًا، ونتجوّل في مدينتنا ليلًا لنتسامر حتى مطلع الصّباح، أصبحت نرجس خبزي اليومي وإكسير حياتي الّذي لا أقوى على الحياة بدونه، لك أن تشبه علاقتنا حينها بعلاقة مولاي جلال الدّين الرّومي وتوأمُ روحه شمس الدّين التبريزي.

زاولنا دراستنا في المرحلة المتوسطة بالمدرسة نفسِها الّتي تقع بعيد منزلينا، كنا نسير معًا في طريقي الذهاب والإياب، ونجلس معًا في الفسحة. حتى عندما ارتقت للمرحلة الثانوية بنجاح وانتقلت لمعهد آخر حزّ في نفسي فراقها وآلمني بعادها رغم أننا كنا نلتقي من فترة إلى أخرى، لكن هذا لم يكن كفيلًا بسدّ رمقي إليها .

ما قد لا تعرفه يا سيّدي القاضي أننا كنّا متشابهتين حدّ التطابق، متناقضتين حدّ الغرابة، كنا وجهين لعملة واحدة ولكن لكل واحدة ما تتفرّد به، فأنا مثلًا شغفت حبًّا بالآداب والتّاريخ والعلوم الإنسانية حتى تخصصت فيها، أمّا هي فقد نبغت في العلوم والرّياضيات، أنا كنت شقراء بعينين عسليتين، وهي كانت سمراء بشعر ليلكيّ ، أنا كنت أحب العطور الّتي ترتكز على رائحة الأزهار وهي تحب العطور الّتي ترتكز على روائح الفاكهة، أنا كنت أفضّل الموسيقى الرّاقية والهادئة، أما هي فكانت تميل للموسيقى الصّاخبة، أنا كنت أهوى الثياب الكلاسيكيّة ممّا جعلني مميّزة عن البقية، أمّا هي فتنافس بنات جيلنا على الملابس الأكثر حداثة.

كنّا سعيدتين معًا، كل تعيش في كوكبها وتوحّدنا مجموعة شمسيّة واحدة، كنّا متكاملتين ومختلفتين لا متخالفتين، ولم أفكر يومًا أنّها قد تدنو من عالمي وتقتنص منه شيئًا، كنت واثقة بها فلم أضع حواجز تفصلنا أبدًا، كانت على دراية بكلّ ما أفعله، تعلم مليًّا أنشطتي ومشاريعي المستقبليّة، كانت نجمة دريّة تسبح برويّة وشغف في فلكها، فمن أدراني أنّها قد تخترق فلكي وتعيث فيه فسادًا؟

كنت مطالعة شغوفة، أتيه دومًا في غيهب الكتاب ولا أبالي، أمضي السّاعات في المكتبة؛ فلا تراني إلا أطالع كتابًا، أو أناقش أحدهم حول رواية، أو أدون ملاحظاتي المتعلّقة بإحداها، وربّما ألقي على مسامع الرّواد آخر ما كتبت، فقد كانت الكتابة هي الأخرى من هواياتي. فوجئت بأن نرجستي أصبحت تطالع فتسألني عن عناوين كتب قيّمة أو تقترض منّي بعضها ولم أكن لأعترض، بل بالعكس سعدت لها وشجعتها ثم حاولت جرّها نحو هذا الإدمان المحمود بكلّ ما أوتيت من قوّة.

ذات مساء، كنت جالسة في غرفتي بوداعة وقد أنهكني تعب يوم بأسره حتّى قدمت، عمّتني فرحة عظيمة لرؤيتها، فقد اشتقتها كثيرا ولم تكن لتتكرم بزيارتي أو حتى مهاتفتي، جلسنا قليلًا كعادتنا وأنبأتني بأخبارها وتقصّت أخباري، ومن ثمّة نظرت لي باستعطاف وقالت: أتسدين لي معروفًا وأكون لك شاكرة؟

قبلت على الفور وبسمة صبوح تعلو وجهي، هل لي أن أرفض مساعدة حبيبتي؟ كلا وألف كلا. التمعت عيناها من فرط الفرح وقالت: «في الحقيقة، سينظّم معهدي تظاهرة ضدّ العنف، وعندما هممنا بتوزيع الأدوار سألتنا الأستاذة إذا كان هنالك أحد منّا يجيد نظم الشّعر، فأومأت أن أنا، فطلبت منّي كتابة قصيدة في الغرض لألقيها يوم التّظاهرة، وأنت تدرين مليًّا أن لا علاقة لي لا بنظم شعر ولا بكتابة نثر ولا أفقه من فنون العرض والإلقاء شيئًا، هل لك أن تقرضيني بعضا من كلماتك وتلقنيني كيفيّة استعراضها؟ أرجوك يا حبيبتي، لا تنسي، فأنا أنت وأنت أنا وكلماتك هي كلماتي».

أصابني كلامها بالانزعاج، واعتراني ضيق مفاجئ و تبرّمت، لم أتصوّر أنّها قد تطلب منّي طلبا كهذا يا سيدي القاضي، معك حق لو لم تتفهم موقفي، أنت لا تعلم معنى أن يكتب كاتب نصًّا أو قصيدة فيودعه أحلامه ويسبّحه بحروف من فضّة يتلقاه من الإلهام كأنّه هديّة السّماء إليه، يكتبه بحبر الوجع وقلم على ورق من شغف، يتمخّضه كما تتمخّض أم، ويا لألم المخاض ما أشدّه، ما أوجعه، يعتبره ابنًا له، فهل تفرّط الأمّ بأبنائها وترتضي أن ينسبوا لامرأة أخرى لم تتعذّب لتنجبهم ولم تشهد ويلات مخاضهم ولم تسهد اللّيل لتحرسهم وترعاهم؟ امرأة غريبة أخرى لا تحمل تجاههم ذرة مشاعر، لا تعطف عليهم ولا تفهم تركيبتهم، لا يا سيّدي القاضي، لا أظنّ هذا، عاتبتها كيف تنوّط بعدتها مهمة لا تمتّ لها بصلّة، فأردفت دون مبالاة «قد لا تمت لي ولكنها تمتّ لك على كل حال، هيا ألست شاعرة كما تزعمين؟ أعطني قصيدة ودربيني عليها».

بلغ منّي الحنق مبلغًا كبيرًا، لكنّني حافظت على برودة أعصابي وتحجّجت بأنني أعاني من وعكة إلهام في الوقت الحالي، وأن لا قصائد سابقة لي في الموضوع الّذي تطلبه، وأن الكتابة ليست عملًا فوريًّا ولا معادلة رياضيّة، كلّما أردت حلّها تسنّى لي ذلك، بل هي عمل يتطلّب الدّقة والتّروي وبالطّبع حضور الإلهام الّذي قد يحضر وقد لا يفعل. رمقتني بنظرة شزر وصرخت: «لا يهمّني، اعتصري دماغك أو افعلي ما شئت، المهم لا تضعيني في حرج أمام زملائي وأساتذتي، أليس الصّديق وقت الضيق؟ هيا أنقذيني وبرهني حبّك لي». تمالكت أعصابي ليلتها ولم تبدر منّي أية إساءة رغم عمق الأذى الّذي تسببت لي به.

منذ ذلك اليوم أصبحت تتصل بي يوميًّا ملحّة في طلبها، فلم أملك إلا أن أذعن لها وكلّي أسى ولوعة، أما ليلة التظاهرة فقد زارتني حوالي السّاعة السّادسة مساء، بمجرّد انتهاء الدّوام المدرسي لم تبرح المنزل إلا عندما قارب اللّيل أن ينتصف، أمضينا مساء وأنا ألقنها القصيدة وطريقة إلقائها، كان نفسي طويلًا لحسن حظّها، صبرت وقاومت على الرّغم من أنّني كائن نهاريّ يخلد لنومه مبكّرًا.

وبرغم المرض الّذي ألمّ بي يومها، غادرت المنزل وقد تشرّبت كلماتي وثملت بها، كلماتي الّتي ثكلتها عن طيب خاطر مكلوم بحجّة إكرام الصّديق ولكن ما أدراني أن المتنبي قد صدق ليلتها في قوله :

«إذا أكرمت الكريم كسبته ... وإن أكرمت اللئيم تمردا»

مرّت تلك التّظاهرة على خير وقد برعت نرجس فيها، وأشاد الجميع ببراعتها وسلاسة حرفها وبلاغتها وإتقانها للإلقاء، عفوًا! أقصد سلاسة حرفي وبلاغتي، ألست أنا هي وهي أنا؟

حسبت أن هذا الحدث قد مر وانتهى ولن يعكر صفوي من جديد، وإذ بها بعد أسبوعين تطلب منّي قصيدة من جديد، ربّاه ما هذا؟ ولكن هذه المرّة لم تطلب قصيدة فحسب، بل طلبت منّي ثوبي التّقليدي المطرّز بخيوط الذّهب وحليّي الثمين، حيث إنّ تظاهرة هذه المرّة تتمحور حول الأصالة والتقاليد، فلبيت طلبها وذقت ويلات وتحمّلت إساءات منها حتّى أتّمت عرضها بنجاح، سأحتفظ بهذه الإساءات لنفسي، ربما لم تقصدها ولم تتعمّد إهانتي .

مرت الأيام دواليك والتظاهرات دواليك وهي تستنزفني، وتتقمص شخصيتي، وتمتطي صهوة حروفي، وترتدي نفيس ثيابي، وكلّما هممت بالاعتراض أشادت بصداقتنا وردّدت مقولتنا الشّهيرة: ألست أنا أنت وأنت أنا؟

هذه المرّة تظاهرة أخرى، إلاّ أنّها ارتقّت في سلم تنظيم التظاهرات، هي تعلم مليًّا أنني أشتغل في تنشيط الحفلات والتّظاهرات، فطلبت منّي أن أعلمها مهارات التنشيط وإحياء الحفلات؛ لأنّها قد كلّفت بالأمر ولا تريد أن تقع في حرج، تجاهلت كل شيء وصوت متحشرج كسير يهتف في داخلي: «لقنيها، ألست أنت هي وهي أنت؟»

توالت الأيام يا سيّدي القاضي تباعًا، ولم تترك نرجس شيئا من أشيائي لم تحشر أنفها فيه، حتى فرقتي المسرحيّة شاركت فيها، وزاحمتني على دوري الأثير في شتى المسرحيات وأنا أتجاهل الأمر، يا سيدي القاضي لن أضيع مزيدًا من الوقت لأعدد لك ما اغتصبت من أشيائي وما زاحمتني عليه من نواد ومناصب وأدوار، كل هذا وأنا أبتسم كالبلهاء وأهتف في قرارة نفسي: لا عليك، إنها صديقتك وتريد التقرب منك أكثر، ألست أنت هي وهي أنت؟

لم أخبرك أنني كنت رئيسة نادٍ للأدب، كالعادة أقحمت نفسها فيه، وكالعادة تقبلت ذلك برحابة صدر ولكن هذه المرّة لم تكن مسالمة بل راحت تزرع الدّسائس في كلّ مكان، وتضمر الشرّ وتؤلب روّاد النّادي ضدّي وتستغل جفاء بعضهم لي دون رحمة، حتى قدم اليوم البائس، ويا ليته لم يقدم، ولجت مكتبي فوجدتها جالسة خلفه يحيط بها كلّ الرّوّاد والأصدقاء. تساءلت عن سبب ولوجهم لمكتبي دون إذن فتقدّمت منّي إحداهن، ولم تكن تستلطفني لأنني ذات مرة رفضت لها طلبًا سخيفًا، كما أنّني كنت حريصة على تطبيق القوانين ولا أسمح بالتسيّب والتجاوزات ممّا ولّد الضغينة في قلبها وقلوب الكثيرين تجاهي وقالت: «عذرًا أنت لم دخلت دون إذن؟» بقيت فاغرة فاهي لا أدري بم أجيب حتّى تناهى إلى سمعي صوت نرجس تقول في خيلاء وكبر: «دعيها دعيها تدخل، ألم تعلموها بالجديد؟» وضحكت باستهزاء فواصلت: «لقد ارتأيت أنا وروّاد النّادي أن نزيحك عن الرئاسة؛ لأننا لم نلتمس فيك الكفاءة المطلوبة، هذا وقد خلفتك في هذا المنصب على أمل أن أصلح ما ارتكبته من أخطاء جسيمة،

على كلّ حال شكرًا على جميع مجهوداتك رغم فشلها.» قالت هذا وحدجتني باحتقار وتبعها في ذلك جميع الحضور، لم أتمالك نفسي فهويت على رأسها بالمزهرية الّتي تحتضن أزهار نرجس اخترتها بعناية كرمًا لها وحبًّا فيها، ثم غشيت الظلمة عينيّ فلم أعد أعي شيئًا حتى وجدت نفسي ماثلة بين يدي المحقّق ثم بين يديك .

هذا كل ما في الأمر يا سيدي، أما زلت مصرًّا أنني لست بريئة من دماء نرجستي؟ أليست هي أنا وأنا هي؟

القصة السادسة: كبائر صغيرة

تأليف: لبنى صالح

الدولة: السعودية

كبائر صغيرة

امتدت يدُ كرم تتناول الأوراق الدافئة التي تلفظها آلة الطباعة أمامه الواحدة تلو الأخرى. تفقدها ليتأكد من اكتمال النسخ الثلاثة التي يحتاجها. في الواقع، هو يحتاج واحدة منها فقط، لكن مبدأه كان دومًا: إذا كان المزيد مجانيًا فلم لا!

تلفت حوله بردة فعل عفوية لكن بغير اكتراث حقيقي على صوت خافت تهيأ له سماعه. المكان خالٍ من أي شخص سواه. لقد غادر الموظفون منذ وقت طويل، وبقي هو مثل كل يوم ينجز بعض الأعمال المهمة.

لم يراوده أدنى شعور بالقلق من ظهور أحد الموظفين أو رئيس قسمه أو حتى مدير المكتب وما قد يثيره تواجده حتى هذا الوقت المتأخر من شكوك أو تساؤلات، فالجميع يَشهدُ له بأنه الموظف المجتهد صاحب العمل الدؤوب والإخلاص المنقطع النظير! هو نفسه لا يكاد يتذكر يومًا لم يتأخر فيه ساعتين أو أكثر بعد انتهاء الدوام من أجل إتمام مزيد من الاعمال.

لقد تم تكريمه الشهر الماضي بصفته موظف الشهر وتم منحه مكافأة مالية، ليست مجزية لكن لا بأس بها!

كان قد بدأ بجمع اغراضه من أجل المغادرة لكن الصوت استوقفه فقد كان واضحًا جليًا هذه المرة، يبدو قادمًا من مكتب المدير المحاذي لغرفة الطباعة.

قادته خطواته نحو المكتب، فتح الباب سريعًا وأضاء الغرفة المظلمة. تفقدها بنظراته المتفحصة التي تنقلت بسرعة علّها تعثر على مصدر الصوت، لكن بحثه هذا لم يسفر عن شيء. الغرفة فارغة تمامًا. أطفأ الضوء وأغلق الباب خلفه. بالكاد تحرك خطوتين مبتعدًا حتى استوقفه صوت يهمس باسمه في أُذنه: «كرم!».

استدار بسرعة آملًا أن يطرد أوهامه بوجود شخص ما. لكنه أطلق صيحة ذعر صغيرة عندما تفاجأ بشاب ضخم عريض الكتفين طويل يقف في مواجهته! من أين ظهر؟! ومتى؟! هل انشقت الأرض وأخرجته من بطنها هكذا بلا مقدمات!

تلعثمت الكلمات في جوفه لتخرج أحرفًا مبعثرة لا معنى لها، وهو يلتفت حوله بسرعة علّه يلتقط شيئًا يدافع به عن نفسه أمام هذا الدخيل بينما أخذ الشاب يحاول تهدئته:

- «لا بأس! اهدأ. أنا هنا لمساعدتك لا تخف مني!».

استجمع كرم شجاعته وهو يقف مواجهًا للغريب متخذًا وضعية التأهب للهجوم وهو يصيح:

- «من أنت وكيف دخلت إلى هنا؟! تكلم بسرعة قبل أن أطلب لك الشرطة أو أقذف بك خارجًا.»

بهدوء تكلم الغريب:

- لن يساعدك ذلك يا كرم ولن يكون في مصلحتك. أنا هنا لنجدتك وإنقاذك من خطر محدق. خطر لن يستطيع حتى رجال الشرطة مواجهته أو التصدي له! إن أردت النجاة عليك أن تأتي معي الآن. ونصيحتي لك: افهم أن الوقت أثمن من أن تضيعه في نقاش أو جدال. وجودك في خطر يا كرم! ولا سبيل للنجاة إلا الطريق الذي أرشدك إليه. أسرع إنهم قادمون، أنا أشعر بهم يقتربون.

كانت ملامح وجه الشاب صاحب الشعر البني الفاتح والعينين العسليتين الواسعتين مسالمة جدًا ومتناسقة رغم ضخامة جثته. في الواقع كان وسيمًا على نحو ملفت! وهندامه مرتب وبسيط اقتصر فقط على قميص أبيض ناصع مع بنطلون جينز باللون الأزرق الغامق.

يحاول كرم أن يفهم: «من هؤلاء الذين يتحدث عنهم؟! لماذا يريد أي شخص في العالم إيذائي؟! ليس لي عداوة مع أي أحد! ولست أملك ما قد يطمع به شخص عاقل! ثم لماذا أستمع إليه أو أُصدق أي حماقة يتفوه بها؟! أنا لا أعلم من هو وعن أي جحيم يتحدث!!»

لمعت عيناه لجزء من الثانية حتى خُيل لكرم أنه لمح لونًا أحمرًا يشع منهما، قبل أن يغلقهما ويأخذ نفسًا طويلًا ثم يسرع بالقول:

- أنت تضيع الوقت وتعرض حياتك للخطر! استخدم عقلك وفكر لو أردتُ إيذاءك لكنت فعلت! أنا أَصْدُقك القول حين أقول إنهم أشرار جدًا. إنهم الشَّر المُجسد على الأرض! وأنت من يستهدفون! لأنك بارع جدًا فيما تفعله. اسمع، دعنا على الأقل نغادر المكتب لحسب. هذا سيمنحنا دقائق قليلة لكنها ستكون كافية. تعال وسأشرح لك، ولن تندم! لكن أَسرع أرجوك!

سَخِرَ في نفسه. ما الذي قد يجعل حياته عُرضة للخطر؟! إنه مهندس يقضي جُل وقته مُنكبًا على طاولة في مكتبه. يُصمم المخططات الإنشائية مع ثلاثة آخرين يؤدون مهامه ذاتها. وهناك من هو أكثر مهارةً وتفوقًا منه. وعمله لا يَمت بصلة إلى تقديم العطاءات والعقود وأي وثائق ماليّة. لذا لا يمكن أن يَستهدفه المنافسون من الشركات الأخرى! ما هذا الجنون! لكنه فكر بسرعة. في جميع الأحوال من الأفضل بالتأكيد الخروج من المكتب. الذهاب إلى مكان آخر فيه بعض البشر. سيكون أكثر أمنًا من البقاء في هذا المكان المقفل. سواء أكان هذا الرجل الواقف أمامه مجنونًا أم قاتلًا مأجورًا أم لصًا أم بطلًا صادقًا يريد إنقاذ حياته أم وَغدًا يُنفذ مقلبًا سخيفًا بالتعاون مع شخص أكثر سماجة من معارفه! في جميع الأحوال الخروج من المكتب أفضل.

حسم كرم أمره بعد تردد وقال:

- سأحضر حاجياتي وأغلق المكتب وستخرج أمامي!

باستسلام أذعن الغريب:

- حسنًا كما تريد. تفضل.

أحضر كرم أوراقه وخرجَ يتقدمه الغريب من المكتب وأغلق الباب وعيناه مستمرة في مراقبة رفيقه. وجسده كله في حالة تأهب للتعامل مع أي حركة مفاجئة قد يقدم عليها زائر المساء هذا.

ضغط زر المصعد الذي فتح بابه على الفور. دخل الغريب وتبعه. ما أن أُغلق باب المصعد حتى امتدت يد كرم نحو لوحة الازرار يريد اختيار الطابق الأرضي لكن يد الغريب استوقفته برفق:

- لا داعي يا كرم، سنخرج من هذا الباب.

التفت كرم نحوه مذهولًا وهو يراقبه يفتح بابًا يظهر منه درج يؤدي إلى الشارع:

- ما هذا؟! من أين ظهر هذا الباب في المصعد؟! وكيف يعقل وجوده اصلًا؟

استغل الغريب صدمته ودفعه برفق لنزول الدرجات القليلة المؤدية إلى الشارع وهو يقول:

- لقد كان دائمًا موجودًا هنا لكنك لم تُعره أي انتباه من قبل.

ما أن خطت قدماه الشارع حتى كان كرم على وشك الانفجار في وجه مرافقه وقد بدأ الخوف يستبد منه. لكن الغريب أسكته وهو يجره بسرعة للاختباء خلف حاوية للقمامة وهو يهمس:

- أغلق فمك إن أردت النجاة! لقد تأخرنا بسبب جدالك العقيم. انظر! لقد حضروا.

وجه كرم نظراته إلى حيث أشار الغريب فرأى سيارة حمراء فارهة تشبه الفيراري ظهرت من العدم أمام المدخل الرئيسي للبناية. خرج منها أربعة من الرجال يرتدون معاطف جلدية طويلة وكأنهم من فيلم «ذا ماتريكس».

تقدم ثلاثة منهم واخترقوا جدار البناية وكأنهم أشباح. بينما أخذ كرم يهز رأسه غير مصدق ما يراه بأم عينه في هذه الليلة العجيبة التي تأبى أن تنتهي! بينما يحكم الغريب إغلاق فمه بكفه خشية أن يصدر أي صوت يلفت نحوهما الأنظار. لكن الصدمة أخرست كرم فلم ينبس ببنت شفة.

اتسعت عيناه ذُعرًا عندما تكرر المشهد والظلال الثلاثة تخرج من المبنى بنفس الطريقة التي دخلته بها بينما صوت أحدهم يتعالى:

- «لم نعثر عليه! لقد هرب! لا بد أن عز سبقنا وحذره! الحثالة! لن يستسلم بسهولة.»

أجاب الرجل الذي كان في انتظارهم:

- الوغد! تبًا له بل، تبًا لهما! لكن لا بأس، الليلة بأكملها أمامنا وسنمسك بهما لا محالة!
- لن ينجح الأمر! لقد اكتشف اللعين مخبأنا! علينا الهرب. اركض الآن!

صمت قليلا وهو يرفع رأسه وكأنه ذئب يشتم رائحة فريسته العالقة في الهواء قبل أن يبدأ في شن مطاردته. فتح عينيه وهو يقول بلهجة من ضمن الانتصار:

- «أشعر بهما! عز يحاول أن يُخفي حقيقة أنهما في مكان هنا! مكان قريب جدًا!»

أصبحت الظلال الأربعة أشد سوادًا وظُلمة واصطفت كسطر واحد. واشتعلت عيونهم جميعًا بلون النار الأحمر. وأخذوا يتقدمون كصف من الرجال الآليين بخطوات هادئة لكن سريعة نحو مخبأ كرم والغريب عز.

همس عز:

- أخذ يهرول مسرعًا وهو يجر كرم معه، الذي استجابت ساقاه أخيرًا لكمية الأدرنالين التي ضخها جسده. فانطلق يركض بأقصى طاقته حتى أفلت يد الغريب وسبقه بمراحل.

كرات نارية ملتهبة تتطاير من حولهما وصراخ مرافقه يحثه:

- أسرع! لا تنظر خلفك. اتجه نحو المسجد على اليمين.

يهرول، لكن تخونه التفاتة منه للوراء نحو المعركة الدائرة؛ فرقة الظلال السوداء تطلق بكثافة كرات النار الملتهبة بينما يحاول مرافقه بشجاعة وصمود التصدي لهم، وقد شكل بتقاطع ذراعيه ما يشبه الدرع من أشعة حمراء يرتطم به سيل المقذوفات النارية، وقد بدا جليًا أنه لن يصمد طويلًا. زاد كرم من سرعته وهو يعيد نظره إلى الطريق أمامه ويطلق لعنات كثيرة متتالية لا يدري حقًا على من يصبها! بينما تعمل كل خلايا مخه من أجل إصدار الأوامر الكفيلة بإيصال جسده بأسرع وقت ممكن إلى المسجد.

بحركات خرقاء خلع نعليه وضعهما في المكان المخصص للأحذية ودخل المسجد يكاد يقتلع شعره من جذوره وهو يشده بكفيه من شدة توتره. كابوس غبي. أجل ما هذا سوى كابوس سخيف! سيظهر الآن بعض مصاصي الدماء على باب المسجد دون أن يتمكنوا من الدخول لأن أحدًا لن يدعوهم! هو لن يفعل ذلك بالتأكيد! سيصرخون والدماء تتقاطر من وجوههم المقيتة بعض الوقت ومن ثم سيستيقظ. ويقسم لن يتناول الطعام الدسم على وجبة العشاء بعد هذه الليلة أبدًا أبدًا.

- ليس كابوسًا، ولن ينتهي قريبًا.

أطلق كرم صرخة رعب من أعماق قلبه وهو يلتفت إلى قائل هذه الجملة ليجد عز أمامه:

- هل تريد قتلي؟! كدت تصيبني بأزمة قلبية!

أمسك بمقدمة قميصه يجذبه بعنف وهو يهتف بهستيرية:

- عليك اللعنة كيف تظهر هكذا فجأة من العدم! هل نحن في مأمن هنا؟! كيف نجوت منهم! ألا يستطيعون الدخول إلى هنا؟ هل سينصرفون مع شروق الشمس؟! هم ليسوا بشرًا! أليس كذلك؟! هل هذه نهاية العالم؟! هل قضوا على كل الناس وأنا البشريّ الأخير؟!.... لا... لا.... إنه كابوس! سأستيقظ قريبًا وسيختفي كل هذا! وستختفي أنت أيضًا يا مصدر الشؤم أيها اللعين!

مرت ساعة وهو جالس على سجاد المسجد يدعو تارة ويلعن تارة أخرى. يفرك عينيه عل صورة الشؤم المدعو «عز» تختفي من أمامه. لكن في كل مرة يفتح عينيه يراه جالسًا أمامه محافظًا على ثباته صامتًا ينظر إليه فقط بين الفينة والأخرى، يضع يده على صدره ويضغطها ويغلق عينيه لثانية كمن يتألم.

ما سمعه من فم هذا المخلوق فاق أي خيال خطر بباله يومًا.

إنهم مجموعة من الشياطين يلاحقونهما بهدف محدد لا بديل عنه. الحصول على كرم! لماذا؟! وما الذي سيفعلونه به في حال وقع بين براثنهم؟ امتنع عز عن تقديم أي إجابات قائلا بأن لا فائدة سيجنيها الآن من معرفة أي معلومات إضافية.

قطع عز حبل أفكاره الشائكة:

- هذا يكفي. أظن أنك هدأت بما يكفي! لنواصل رحلتنا هيا بنا لقد حان الوقت للذهاب.
- إلى إين سنذهب؟ وهل سنظل نهرب إلى الأبد؟! ألا نستطيع مواجهتهم؟! ألا يملك الملائكة سلاحًا أو قوة خارقة لدحر الشياطين؟! ارتسمت الحيرة على ملامح عز وهو يتساءل:
- عن أي هراء تتحدث؟!

شرح كرم وجهة نظره:

- أنت كملاك لا بد أن يكون لك السلطة واليد العليا في موقف كهذا!

جحظت عينا عز وهو يقول:

- بماذا دعوتني للتو؟!

تراجع كرم إلى الوراء قليلا وهو يرى انزعاج الغريب وقال بصوت منخفض:

- ظننت أن الأمر بديهي إذا كانت هناك فرقة من الشياطين تطاردني وفي المقابل جئت أنت لمساعدتي فأنت ستكون نقيضًا لهم! أي أنك لا محالة ستكون ملا...

قاطعه عز موبخًا:

- دع عنك استنتاجاتك العبقرية هذه. سنقوم بادخارها الآن وسنستمتع بمخرجات عقلك العبقري فيما بعد. لكن صدقني من العلم ما قتل! كلما كان لديك معلومات أقل كنت في مأمن. هيا انهض!

نهض كرم متثاقلًا وأطلق احتجاجًا أخيرا:

- إن كانوا لا يستطيعون دخول المسجد أليس من الأفضل أن نبقى فيه؟!

حثه عز على ارتداء نعله بسرعة:

- أسرع هيّا. أنا لم أقل إنهم لا يستطيعون دخول المسجد أو الكنيسة أو أي دار عبادة إذا رغبوا في ذلك.

استفسر كرم وقد ارتجف قليلًا عندما هبت نسمات آخر الليل الباردة:

- لماذا لم يفعلوا إذا؟!

واستمع إلى إجابة الغريب الذي تسارعت خطواته أمامه حتى اضطر كرم للهرولة من أجل اللحاق به.

- تم استدعاؤهم للعمل. الشياطين منضبطون جدًا فيما يخص ذلك، إنه أمر مقدس بالنسبة لهم. لذا لدينا فسحة من الزمن للهرب الآن، ولن تستمر هذه المهلة إلى الأبد!

بحنق قال كرم:

- «لم أفهم! كيف يكون العمل مقدسًا بالنسبة لهم ويختفون هكذا كي أتمكن من الهرب؟!

أجابه عز ببساطة:

- لستَ مُدرجًا على قائمة العمل النظامي.

جن جنونه وهتف:

- ماذا يعني هراء الجحيم هذا؟ اسأل كي أفهم فتدخلني في متاهة جديدة! هل أنا لست مُهمًا كفاية لإدراجي على قائمة عملهم اللعين الرسميّ! لماذا هذه المطاردة إذا؟

أراد عز إنهاء الحوار:

- إذًا افهم هذا فقط، أنت مطارد من قبل شياطين خارجين على القانون المقدس للشياطين! فتخيل حجم الجحيم الذي ينتظرك إذا وقعت بين براثنهم! نقطة وانتهى الأمر.

تضرع كرم:

- يا الله! ارحمني يا رب! ما لنا غير الدعاء في هذه الليلة!

تباطأت خطوات عز قليلا وبدا لثانية كمن يترنح، فأسرع كرم نحوه ومد ذراعيه نحوه يريد أن يسنده:

- هل أنت بخير؟ هل أصابوك؟ هل يؤلمك شيء؟

انفجر عز وهو يبعده عنه بحركة فظة:

- لا يؤلمني سوى صحبة غبيّ كثير الثرثرة مثلك! اغلق فمك واتبعني فقط!

أغلق كرم فمه جيدًا بعد هذا التوبيخ المباشر الصريح وسار وراء عز الذي قاده في أزقة مظلمة تخلو إلا من عدد قليل من المارة، الذين تجاهلوهما وكأنهما غير مرئيّين -وربما كانا كذلك فعلا في هذه الليلة العجيبة- واستسلم للصمت بعد أن يئس من الحصول على إجابة على أسئلته المتزايدة.

تقودهما خطواتهما إلى بناية قديمة. أخذ كرم يتبعه في صعود الدرج الذي بدا وكأنه يمتد إلى ما لا نهاية. بالتأكيد حظه العاثر سيجلبه إلى بناية دون مصعد! أخيرًا وصلا إلى سطح البناية المظلم. وقف عند باب السطح يلهث من التعب يحاول التقاط أنفاسه وعز يهمس له:

- انظر هناك.

التفت كرم حيث أشار فوجد ظلًا لرجل يجلس على حافة السطح. أخذ عز يشرح هامسًا:

هذا رجل بائس ضاقت عليه الحياة ويريد إنهاء حياته الليلة، وعليك إنقاذه.

ردد كرم بذكاء:

- رجل يريد القفز!

توقف عندما نبهه عز طالبًا منه أن يخفض صوته ففعل وتابع:

- رجل يريد القفز وإنهاء حياته وعليّ أنا إنقاذه! أنا الذي تطاردني الشياطين المتوحشة اللعينة عليّ الذهاب وانقاذه! ماذا أفعل؟ أنقضُ عليه وأجره بعيدًا عن الحافة بعد أن أُشبِعه ضربًا يُنهك قواه! أم أهوي بشيء ثقيل على رأسه

فأفقده وعيه ثم أسحبه إلى مكان آمن! وفي كلتا الحالتين هناك نسبة تسعين بالمئة أن يجرني هو معه فنسقط كلانا وتتهشم جمجمتي في هذه الليلة اللعينة! وإن نجحت بمعجزة ما وأنقذته الليلة فهنالك احتمال مئة بالمئة أن يعاود المحاولة غدًا أو بعد غد! وهكذا ترى أن اقتراحك لي بالتدخل عبث محض! أنا أصلًا لا أتدخل في شؤون الاخرين.. هذا ليس من شِيَمي!

تكلم عز وكأنه لم يسمع شيئا:

- لا تستخدم القوة ولا العنف. عليك إنقاذه عن طريق إقناعه بأنه إنسان محبوب له قيمة وحياته تعني شيئًا؛ فله هدف وغاية.

ازدادت ملامح الغباء على وجه كرم وهو يتذمر:

- عن طريق إقناعه! أنت تعلم أنه قد يكون اتخذ هذا القرار قبل عشر سنوات. وتريد مني أنا... أنا، شخص غريب لم يره قبل اليوم، أن اذهب اليه وأبتسم قائلًا: مرحبًا أنت لا تعرفني... لكن لا تقتل نفسك! فأنت شخص محبوب وحياتك التافهة لها قيمة وهدف! صحيح أنك لم تجده لحد الآن، لكن عليك أن تبحث بجد أكثر وستجد في النهاية كل الهراء الذي تريد! ظننتك قلت أنْ لا وقت لدينا نضيعه لإنقاذ حياتي أنا! هل تذكرتني؟!! أنا في خطر! تطاردني الشياطين، تلك المخلوقات المرعبة السوداء التي تطلق كرات النار!

بهدوء وضح عز وهو يدفعه برفق باتجاه الرجل:

- سيكون هذا عملًا فيه خير عظيم وإيثار، وهذا سيكون سلاحًا مفيدًا لنا جدًا في معركتنا ضد الشياطين. ورغم أنني لن أستطيع شرح آلية عمل منظومة الشياطين، لكن ثق بي. علينا أن نفعل ذلك. أنا لن أستطيع المساعدة في هذا. عليك إقناعه لوحدك!

خطا كرم عدة خطوات وهو يثرثر مع نفسه باعتراض: «ماذا يتوجب عليّ قوله؟!! أنا مهندس إنشائيّ لست طبيبًا نفسيًّا! عقلي مصمم لإرشادي كيفية أداء المهمة بطريقة أسرع ومضمونة النتائج أكثر وأبسط!» التفت فجأة نحو عز وهو يرجوه:

- ألا يمكنني فقط ضربه على رأسه وإفقاده وعيه!

بحزم همس عز:

- اذهب، الوقت يمضي!

تحرك كرم وأخذ يقترب ببطء من الظل الذي كان يقف الآن على حافة البناء. كان يسترجع عبثًا في رأسه كل المواقف الدرامية المؤثرة التي شاهدها يومًا على الشاشة، عله يجد فيها ضالته من الكلمات المفيدة في موقف كهذا.

صدر صوت تهشم شيء ما تحت قدمه اليمنى كان كافيًا لجذب انتباه الرجل الذي استدار بسرعة وسأل بعنف:

- مَن هناك، وماذا تريد؟

تجمدت خطوات كرم وهو يتحدث بخفوت:

- أنا لا أحد! مجرد عابر سبيل مسكين أرسله الله اليك في هذه الليلة لغاية ما!

نهره الرجل:

- ابتعد! ارحل ولا تتدخل فيما لا يعنيك!

جلس كرم على الأرض مقابلًا له وهو يتحدث بحرارة:

- أقسم لك بكل ما هو مقدس لديّ ولديك لا أحب على قلبي في هذه اللحظة من الرحيل والابتعاد والهرب من كل شيء. لكنني لا أستطيع!

ظهر التأثر جليا على ملامح الرجل:

- ضميرك أيها الغريب يمنعك من تركي ألاقي حتفي! يا لك من إنسان طيب حتى تأبه لأمر إنسان لا تعرفه!

كان كرم غارقًا في التفكير من أجل العثور على حلول سريعة غير مكترث أصلًا بما يظنه أو يقوله الرجل البائس، لذا قال وهو يهز رأسه:

- أجل... أجل...

حثه الرجل بصوت حزين:

اذهب أيها الرجل الطيب! ارحل! لقد انتهى الأمر! لا يوجد ما تستطيع فعله حيال ذلك!

أجابه كرم:

أخبرتك أنني لا أستطيع فعل ذلك! لذا ربما لو تحدثت معي بعض الوقت سنـ...

قاطعه الرجل بصوت مرتجف ينذر بأنه على وشك البكاء:

- لا! لا... مللت من الكلام وتعبت! لن أخوض في عذاباتي مجددًا مع أي أحد!

أخذ كرم يرجوه:

- إذا اسمعني فحسب! أنا سأتكلم... سأقول بضع كلمات لن تأخذ من وقتك الكثير ولن أؤخرك عن تنفيذ ما ستقرر فعله. في نهاية المطاف، إنها حياتك أنت، لكن ربما تسمح لي أن أنبهك إلى أمور قد تكون غائبة عنك! بالطبع هناك احتمال لا بأس به بأن هذه السقطة قد لا تقتلك، وإنما تتركك بأضرار بالغة في جمجمتك وعمودك الفقري! لينتهي بك الامر مُقعدًا على كرسي أو مصابًا بشلل رباعي، لا تستطيع مغادرة السرير طوال عمرك، ما سيجعل حياتك البائسة أكثر بؤسًا! وهناك بالتأكيد طرق أسرع وأسهل وأقل ألمًا، ومضمونة النتائج أكثر. وبالتأكيد لن نناقش هذه الطرق الآن لأن الوقت ليس مناسبًا! لكن ما أريد قوله هو أنك إنسان محبوب ولك قيمة وحياتك لها هدف ومعنى. لذا لا تقفز هذه الليلة! عد إلى بيتك وتناول كوب حليب دافئ واستلق في سريرك وتشبث بالغطاء جيدًا وغدًا صباحًا عندما تستيقظ اذهب لزيارة أحبائك وسيكون كل شيء أفضل! لذا هيا بنا!

رفض الرجل يد كرم الممدودة له وصاح:

- هل أنت مجنون! لا يوجد أحد يحبني! الجميع يكرهني! سأريح العالم أجمع من وجودي الكريه البائس الذي لا يأبه به أحد أصلًا! أنا نكرة لا يهتم أحد بشأني! الجميع يتمنى موتي! الجميع بلا استثناء!

تراجع كرم قليلًا نحو الوراء جراء انفجار الرجل في وجهه لكنه تماسك سريعًا:

- ربما هذا صحيح، أعني كونك مخلوقٌ مقيتٌ مثيرٌ للشفقة لا أحد يحبه! أعني أنت أعلم بهذا مني! وربما لا يوجد هناك أشخاص سيبكون ويحزنون على موتك المفاجئ بهذه الطريقة التقليدية الشنيعة. لكن صدقني هناك بالتأكيد الأوغاد الذين يكرهونك! الذين سيشمتون بموتك وسيذهبون إلى مطعمك المفضل ويستمتعون بتناول طبقك المفضل وستصبح حياتهم أفضل عند رحيلك! وأنا أعتقد أنه لا يمكنك منحهم هذا! لن يكون عدلًا أن يكون شخص حساس مميز مثلك تحت الثرى تلتهم جسده الديدان، بينما هم يستمتعون بحياتهم! عليك أن تبقى حيًا من أجل أن تُنغص عليهم حياتهم اللعينة! أنت مدين بهذا لنفسك أمام جميع الذين يكرهونك!

بعد ربع ساعة كان كرم ينزل الدرج وخطواته تتسارع كأنه على وشك الطيران بشكل عجائبي، فقد نجح في مهمته وترك الرجل وقد قرر أنه لن ينتحر. بل سيسخر كل دقيقة من عمره المتبقي من أجل الانتقام من الجميع!

كان كرم يثرثر بزهو وفخر:

- لقد نجحت! أظنني فهمت المغزى من الأمر أخيرًا! الموضوع بسيط جدًا! الشياطين تضعف قوتها أمامي عندما أقوم بأعمال صالحة! أنا إنسان جوهره الخير المُجرد، ولذا أنا مستهدف من قبل قوى الشر والظلام الممثلة بالشياطين اللعينة!

كانت أشعة الشمس الوليدة قد بدأت في محو ظلام آخر الليل المحتضر. قطع عز ثرثرة كرم:

- توقف واتبعني، سنذهب من هنا.

تبعه كرم وهو ما زال غارقًا في نشوة نجاحه:

- كما تريد أيها القائد!

سارا في طرق غريبة لم يدرك كرم وجودها من قبل قط، من جدار ما كان يفتح عز بابًا يقودهم إلى جدار آخر ويظهر باب آخر وهكذا، حتى انتهى بهما المطاف في مكان مهجور ينتشر فيه عدد من المباني المتهالكة.

صعدا الدرج الضيق وجلسا على آخر درجة في أعلاه عند باب غرفة ضيقة ذات نافذة وحيدة، وقد بدت علامات الإرهاق والتعب جلية على ملامح عز.

سأله كرم:

- وجهك يبدو شاحبًا جدًا، هل أنت مريض؟

تحامل عز على نفسه بصعوبة:

- يبدو أن هذه نهاية رحلتنا. أخطأت في تقدير قوتي أمام قوتهم... سأنهار قريبا...

بذعر هتف كرم:

- لا! أرجوك تماسك.. لا يمكنك الانهيار الآن! أنا لست في أمان! ماذا سأفعل من دونك؟! ألا يمكنك إرسال أحد يحل مكانك؟

قال عز محذرًا:

- إنهم قادمون. لقد نفد الوقت! لا مجال لمزيد من الألاعيب والحيل! عز هو اختصار لاسمي الحقيقي... عزازيل! هل سمعت بهذا الاسم من قبل! لا؟ إنه اسم دارج جدا في عالم الشياطين الذي أنتمي إليه. أنت كنت وظيفتي التي كنت مميزًا بها! أنت مميز! أنت تجرد الخطايا من جوهر الذنب أمام نفسك! تجد المبررات والأعذار حتى صارت الذنوب نظام حياتك اليومية! لقد قضيت على مفهوم التوبة عندما أقنعت نفسك بأنك لا ترتكب ذنوبًا! فكل شيء مبرر وكل

خطيئة صغيرة لها غاية نبيلة ودور في إحقاق العدل بطرق ملتوية، لكن في شريعتك لا بأس في ذلك! كنت أجلس بينما تزداد نقاطي في العمل دون أن أبذل أدنى مجهود يُذكر! وأنت تمارس حياتك اليومية بصورة عادية، لا أحتاج إلى إعداد خطط للتقدم في عملي وحصد النجاح! وأنت أخذت تنشر مبادئك بين البشر ومع تعليقاتك الألمعية على مواقع التواصل الاجتماعي تضاعفت نقاطي، ترقية تلو ترقية، أحصدها وأنا أُخفي سرك عن البقية بتقارير عن مقدار الجهود الجبارة التي بذلتها وأبذلها معك لأساعدك في الوصول إلى ما أنت عليه. منزلتي تعلو والحقد عليّ بين بقية الشياطين المنافسين لي يزيد وينتشر. ثم اجتمع أولئك الأنجاس الأربعة من أجل هدف واحد، وهو الحصول عليك وإثبات شكوكهم حولي بأن مصدر التميز أنت بطبعك المتأصل فيك، لا أنا بعملي واجتهادي! هم شياطين بالطبع، لن تنطلي عليهم الخدعة إلى الأبد! كان عليّ أن أدفعك لتقلب الآية ولو مؤقتًا. أن أُرشدك إلى طريق الهداية علك تقترف بعض الأعمال الخيرة ليزيد رصيدك من الحسنات، فأواجه رؤسائي بها في السجلات وعندها أستطيع إقناعهم بأنني ضحية مؤامرة! وكيف أن تدخل الشياطين ومحاولتهم الانقلاب علي نسفت مجهود عمل دؤوب لي امتد سنوات، وها أنت عدت إنسانًا صالحًا من جديد عندما قاموا بتعطيل عملي!

انا أضعف يا كرم، لأنني أسير في طريق ليس لي! طريق يخالف ماهيتي! أنا مثل جميع المخلوقات إذا خرجت من بيئتها التي تناسبها ضعفت وشارفت على الهلاك. إلا أنت أيها الانسان اللعين! كلما تجردت من احتياجاتك وقاومت غرائزك ورغباتك أصبحت أقوى وأصلب! لن أستطيع حمايتك بعد الآن! لن أستطيع مرافقتك. أنا ضعيف جدا! يمكنك أن تسلم نفسك لهم برضاك مقابل توفير الحماية لي. هذا الإيثار سيكون طوق نجاة لي ولك. هم لا يعرفون أنك تدرك حقيقتي وحقيقتهم. افعل ذلك الآن.

فكر كرم بسرعة يحاول استيعاب ما تفوه به عز أو عزازيل، أيًا كان اسمه، ولعنه الله في جميع الأحوال. ثم فجأة، ركله بقوة، فأخذ جسده يتدحرج نزولًا على الدرج للأسفل بينما قفز من النافذة الضيقة وسار على السطح حتى وصل حافته واستعان بالمواسير المثبتة على جدار المبنى في الهبوط بسرعة، وما إن لامست قدماه الأرض حتى انطلق هاربًا يسابق الريح. وهو يفكر بأنه أدرك النجاة أخيرًا! بما فعل سيربح كفة الأنجاس الأربعة كما دعاهم عز وستنتهي هذه المطاردة، وهذا هو ما يهمه. فليذهب عز إلى الجحيم، هو يستحق ذلك بالتأكيد!

فتح عزازيل عينيه ليجد أربعة أزواج من الأحذية السوداء اللامعة التي يعرفها جيدًا، رفع رأسه لتلاقي نظراته وجوه إخوته الأعداء ونظراتهم الساخرة: «ألقى بك بعد كل هذا العناء في سبيل إنقاذه! يا له من عمل شيطاني!

ابتسم عزازيل وهو يهز رأسه: إنه تحفة فنية! وغد لعين رائع! أليس كذلك؟

القصة السابعة: ولادة يسيرة

تأليف: عبد المجيد جعكو

الدولة: المغرب

وِلادة يسيرة

لم يَكُن شيئاً يحتمل الانتظار، فآلام الوضعِ تزدادُ، والسيدة إطُّو لا تحتمل المزيد. كان زوجها موحى يستعدُّ للخروج طلباً للمساعدة وكانت حركاتُه كلُّها مُبعثرةً كما أفكارُه يسبق بعضُها بعضاً، ولو استطاع طَيَّ الوقت لطواه طيّاً يُغنيه عن سماعِ أنينِ زوجته.

كان الفجر يوشك على البزوغِ، والصمتُ المطبقُ يعمُّ القرية، لولا النّباحُ المتقطع للكلاب الذي كان يخرِق سكون الليل كضربة رمحٍ سافِرةٍ غادرة.

أيقظت إطّو موحى من نومٍ عميق بيديها، وهمسَت في أذنه ببضع كلماتٍ فانتفض يبحثُ عن جلبابِه المصوّفِ وبَغلَتِه البالية. أشعل القنديل الزيتيّ الذي كان موضوعاً على الأرض قرب الباب، ثم عاد ليطمئن على زوجته وبادلها نظرةً حملت في كنفها كثيراً من الودِّ والشفقة. لفَّ عمامتَهُ البيضاءَ على رأسِه وعلّق جرابه على كتفِه ثم هرول نحو غرفة الطبخِ حيث كانت أمّه تُعِدُّ وجبة الإفطار على ضوءٍ خافتٍ يَصدُر من شُعلة قنديلٍ تُصارع البقاء. سَلّمَ عليها على عَجَلٍ وأخبرها بأن زوجته توشك على الوضع. تصارعت حينها في ذهنِه رغبتين، نَمَّت إحداهما عن الجوعِ الذي غزى أحشاءهُ في ليلةٍ من ليالي الشتاءِ الباردة فاشتهى شربَ الحساءِ الساخنِ، والأخرى عن العَجَلةِ التي كان فيها من أمرِه فلم يَجِد لنفسِه وقتاً يسمحُ له باحتساءِ الطعامِ دون الإحساس بحروقٍ في فِمِه.

يسكنُ موحى الملقب بـ «أكوزال» أي «القصير»، كما يحلو لأصحاب القرية أن ينادوه، في قريةٍ تدعى «بويكنيون» تمتد على واحة نخلٍ خضراءَ شاسعةٍ تتخللها قصورٌ[1] محاطةٌ بأسوارٍ مبنيةٍ بالترابِ المدكوك. وكانت تلك القصورُ الموجودةُ على السفوحِ الشرقيةِ لجبالِ الأطلس الكبير ساحرةً بجمالِها، وإن كانت تخفي بداخلها بعضاً من معاناة بني البشر من الفقر وضيق ذات اليد.

لم يكُنْ موحى معتاداً على إعداد نفسِه للخروجِ في مثل ذلك الوقت. ألِفَ أن يصلي صلاةَ الفجرِ ويتناول إفطارَه برويّة قبل أن ينهض لعمله. اعتاد شُربَ الحساءِ قبل موعدِ الصلاةِ ثم الجلوسَ بعدها لتناول الخبز الساخن المحشو بقليل من شحم الغنم والبصل المفروم والفلفلِ وبعض التوابل المحضّرة بوصفات محلية... تعثّر غير ما مرّةٍ في ردهة البيت ورحبتِهِ وهو يتنقّلُ لجمعِ ما يلزَمُه من بردعةٍ ولجامٍ وغيرهما تحت ضوءٍ لا يكادُ يضيء منبعُهُ إلاّ يدَهُ وكمَّ جلبابِه. كانت ظلالُ الأغراضِ المحيطة بالقنديلِ تتراقص على الجدران كالأشباح وهي تقلّدُ رقصة الشعلةِ الصغيرة. في الإسطبل، وجد موحى نفسه أمام حمارٍ لم يستسغ النهوض من النوم قبل الموعد المعتادِ ولم يكُن يرغب في تركِ مكانِه الدافئ للخروج في جوٍّ باردٍ وجاف.

خرج موحى أخيراً من منزله ممتطياً حمارَه، حَثَّهُ على الإسراع تارة آمِراً «رًا» وتارةً محرّكاً رجليه تُجاه بطن الحمارِ ضارباً بهما ضرباً خفيفاً، فكان الحمارُ يستجيب ولا يُطيلُ استجابته. لم تكن ضرباتُ موحى بيدِه وبعصاه على مؤخّرة الحمارِ لتغيّرَ شيئًا من ذلك الأمر، وكاد يجن جنونه من تقاعس حماره. اضطرَّ للتوقف قُبالةَ نخلةٍ احتلَّت نصفَ الطريق لينزع منها شوكةً وكأنّه يُعاقِبها على

تطاوُل سعفها الذي أضحى يُزعِجُ عابري تلك السبيل. نزعَ شوكةً حادّةً ولم ينتظر كثيراً ليغرسها في جِلدِ الحمارِ الكسول، وكانت النتيجةُ أن فَضّ الحيوانُ التعيسُ كسلَهُ واستجمع قُواهُ وسار كالسهمِ وسط الحقول.

ظلت همسات إطّو ترنُّ في رأسِ زوجِها كالنحلةِ التي دخلَتْ كيساً ولم تجِدْ مخرجاً منه، وكانت كالوقودِ الذي يحركُ شوكتَهُ في يدِه. لازمتْهُ صورةُ عينيها وهي تتوسلُ مساعدتَه في مأزقٍ يعرفُ أنّ له نصيباً فيه، كيف لا والجميع يعلم أن زوجة موحى وَلدَت منذ سنتين ولادةً عسيرةً لم ينجُ منها مولودها وإن نجت هي بأعجوبة. جعل ذلك موحى يفكرُ في الأمر منذ أن علم أنّ زوجتَه حاملٌ، وها هو يصارعُ الزمنَ لتفادي تكرارِ حدَثٍ قد يكون النصرُ فيه للموتِ لا للحياة.

كان يوماً من أيام الشتاء، وكانت السماءُ ملبدةً بالغيوم تُصدِرُ أصواتاً بين الفينة والأخرى، وكأنها تستعِدّ هي الأخرى لِوضعِ حَملِها. تحت ضوء شفق الصباح، مرّت حقول البرسيم وَالنَّخْلِ أمام عيني موحى تِباعاً، وعقلُه شاردٌ لا يعرف ماذا حلّ ببيته. كان متحمّساً ليوم سعيد وهو يحُثُّ حماره على ربح الوقت للوصول في أقربِ لحظةٍ ممكنةٍ لـ «دّاوْ تارگا»، القصرِ الذي يوجد في المنطقة السفلى للواحة على الضفة الأخرى لوادي «أُدّور». هناك كانت تقطن فاطمة، وعليه إحضارُها لتساعد زوجتَه على الولادة.

فاطمة، بنت رجل ميسور في البلدة، كان قبل وفاته يملِك من الأراضي ما يُغنيه عن العملِ لكَسبِ قوت يومه، ووَجدت فاطمة نفسها بعد وفاتِه منذ سنتين، وهي الوريثة الوحيدة له، في غِنىً عن العمل في الحقول مع زوجها كل يوم. أحبت استغلالَ ما فاض من وقتِها في تقديمِ يدِ المساعدةِ لكلِّ من احتاج اليها، ولم تكن تأخذ أي أجرٍ عما تفعله. كانت تتدخل في كل الخلافات لجبر الخواطر، كانت دائمة الحضورِ في المآتمِ والأفراح، ساعدت العرائسَ والأراملَ والحوامل، وأصبحت بذلك خير خلفٍ للقابلة عائشة في توليد حواملِ القريةِ بعد أن كبُرت هذه الأخيرة ولم تعد تقوى على ذلك. أحبَّها كل من عَرَفها وكان ذلك أقصى مبتغاها وأجَلَّ ما كانت تصبو إليه.

عندما اقترب موحى من «دّاوْ تارگا» حيث تقطن فاطمة، كانت الشمس قد أرسَلت أشعّتَها الأولى على البلدة فتسلّل بعضٌ منها بين الغيوم ليكسُوَ جزءاً صغيراً من واحة النخيل. اعترضت سبيلَ موحى مجموعةٌ من الكلابِ، علا نباحُها وكان الجُبْنُ يكسو وجوهَها والبردُ يُنعِش حركاتِها، فاختفت بمجرّد سماع خطى الحمار تقتربُ منها. كان عليه أن يبحث عن منزلٍ في الجهة العليا من القصر، منزلٌ له بابٌ أنجِزت عتبتُه السفلى من جذع نخلة لم تدفن بالكامل تحت الأرض، وعتبته العليا لا تعلو عن كتفي رجلٍ ذي قامة متوسطة، هكذا نُعِتَ البيت لموحى من طرف أمِّه حين كان يحتسي قليلاً من الحساء.

كان الوقت يداهم موحى في كل حين، وكأنَّ التّيه في الزّمن لم يكُنْ كافياً. وجد نفسه تائهاً في المكان، فالقصر بممراته المتشعبة كالمتاهة لا تؤدي فيه كل الطرق إلى روما ... كان على الرجل القصير أن يسأل في كل مفترق عن الوجهة التي عليه أن يتبعها للوصول إلى فاطمة القابلة زوجة باسُّو أُحماد[٢].

اتّبع موحى وحمارُه إرشاداتِ سكّانِ القصر. كان يسأل تارةً عن منزل فاطمة وتارةً عن منزل باسُّو زوجها، وعندما وصل إلى منزلهما، لم يزعِجه انخفاضُ عتبةِ البابِ فدخلَ منادياً: هل من مستمع؟ توغّل في ردهات المنزلِ المبنيّ وِفق الهندسة المعمارية المتوارثة عند القبائلِ الأمازيغيّة، كان معظم أركانه مظلماً في ذاك الوقتِ من النهار، وكان الباب الخشبي الرئيسي للمنزلِ مفتوحاً على مصراعيه، حالُه حالُ أبواب كل البيوت في القرية، فالأبواب كانت لا تُغلقُ إلّا بَعدَ صلاةِ العشاءِ ليُعاد فتحُها قبل صلاةِ الفجرِ وطولَ النهار. كان باسُّو يُهيّئُ حماره للخروج إلى الحقول، تفاجأ حين رأى موحى في العتمة بقربِه داخلَ الإسطبل. استفسره عن سبب مجيئِه ثمّ أخبره عن غياب فاطمة عن المنزل منذ بضعة أيام. تجمد موحى في مكانه وكأن أحداً ما قَصَّ شريطَ حياتِه في تلك اللحظة، «ربّاه! ما هذه اللعنة التي تتبعني؟ أهي بعض من ذنوبي أكفر عنها أم أنّ أحدَهم دسّ صكوك سحرٍ تحت عتبة بيتي؟ رباه! أنزل عليّ صبراً جميلاً واحفظ زوجتي ومولودي من كل سوء!» تلك كانت بضعاً من الكلمات التي تفوه بها وهو يرفع يديه النحيفتين الى السماء. تأثر باسُّو وهو يُرمِّقُ النّظرَ إلى الرّجلِ الشّابِّ الضعيفِ وأشفق لحاله. أخبره مسترسلاً أن زوجته في زيارة لأمها الأرملة في القصر المجاور وأنها لا تبعد سوى بضع مئاتٍ من الأمتار.

انطلق الاثنان على الفور كلٌّ على حماره نحو بيتِ أمّ فاطمة. كان باسُّو يردّ تحايا أبناء قصره باقتضاب غير معهود، لم يستغرب الناس لهذا الامر إذ كانت الجدّية والعجلة مرسومتين بوضوح على حركاتهما وعلى محيّاهما هو ومن معه.

فاطمة، المرأة الثلاثينية، كانت منهمكةً في عجين خبز الشعير لإعداد وجبة الافطار، ولم تستغرق وقتاً طويلاً لتفهم سبب حضور موحى مصحوباً بزوجِها في ذاك الوقت المبكّر من النهار، فهي القابلة الوحيدة بالقرية وزوجةُ موحى حاملٌ تعرف مدّةَ حَمْلِها. أسرعت في التخلّص من العجين، ثم ودعت أمّها بعد أن اعتذرت لها عن عدم إكمال تحضير الخبز، والتحقت بزوجها ليُرافقا موحى إلى منزله الذي يبعد بضع كيلومتراتٍ على الضّفة الأخرى من الواحة.

كان لابد من العودة إلى منزلِ باسُّو لتأخذ فاطمة أغراضَها ولوازمَ عملِها، وبعد ذلك اتّجه الثّلاثة عبر «لعلو»[٣] نحو بابِ القصرِ في وقتٍ كانت فيه الحركةُ تدِبُّ في غُرفِ الطبخِ وإسطبلات المنازل. وما إن تخطّوْا الباب الرئيسي للقصرِ حتى سمعوا أصواتاً صادرةً من الحقولِ ناحيةَ الوادي تُعلِنُ فيضانَ هذا الأخير، وفور ذلك بدأت حركةٌ غيرُ عاديةٍ تحتلّ القصرَ بأكمله، ففيضانُ الوادي يُلزِم الجميع بالتأهّب والاستنفار من أجل العملِ على حماية الحقول من مياه «الفيض» التي تكون في موسمِ الأمطار، وفي بعض الأحيان، أكثر ضرراً للغلالِ منها نفعاً لسقيِ النخيل والمزروعات.

بدأ جبينُ موحى يتصبّبُ عرقاً رغمَ برودةِ الجوّ، تسرّب إليه رعبٌ كبيرٌ عندما فكّر في احتمال انقطاعِ الطريق بسبب سيولِ الوادي، كيف بإمكانه مساعدة زوجته في هذه الظروف؟ مرّت ذكريات الولادة الأولى لإطو أمام عينيه بسرعة البرق. تذكر لحظةَ ظنِّ الجميعُ أنهم فقدوا الأمّ والمولودَ معاً... لاحظت فاطمة تصرّفاتِ موحى وسمعته يتكلم مع نفسِه، يستغفر الله مرارا وتكرارا ويتأفف من حين إلى آخر، عَرفت أنه كان يَحمِل في رأسه همّ إطّو والمولود الذي كانت تحمله في بطنها.

هطلت الأمطارُ في ذلك الصباحِ بغزارةٍ أحياناً وتوقفت أحياناً أخرى وأصبح التقدُّمُ عبر الحقول صعباً بسبب الأوحال، وكانت الحميرُ تلمِسُ هذه الصعوبةَ بحوافرِها، وكان الجميع يتقدم في صمت، وكان موحى يستمدّ قوَّتَهُ من حمارِه الفتي وشوكةُ النخلةِ في يده تُفرغ همَّهُ وحُزنَه وخوفَه في ردفِ الحيوانِ التعيس.

عند معبر الوادي، اتّضح للثلاثة أنّ العبور لا يمكن إلّا بعد الظهر إن كانت السماءُ رحيمةً بهم بشُحِّها لا بسخائِها. علموا ذلك ممّا راكموه من تجربةٍ في حياتهم على ضفاف وادي «أدّور». تبادلوا بعض المحادثات القصيرة مع من أتوا لرؤية فيضان الوادي خوفاً من أن يجرف أراضيهم وطمعاً في سقي مزروعاتهم. كلُّ من مرّ من هناك كان له نفس الرأي، صبيبُ الوادي ومظهرُ الغيومِ في الأفق ناحيةَ الجبالِ كانا يوحِيَان بأن السيول لن تهدأ إلّا بعد بضع ساعات.

مرّت الدقائقُ على موحى كالساعاتِ والساعاتُ كالأيامِ، فيما كان حمارُه يستمتع بالهدنة التي حلّت بجِلده منذ أن وضعت الشوكة أوزارها.

سَلَبَ الوادي أعين كلِّ من كانوا على ضفتيه، وكان هديرِ المياه ينقصُ كلّما ازداد صبيبُ السيولِ وكان الوادي مُبهراً خلاّباً كعادته يَسْحَرُ الأنظارَ ويُخشّع الأنفُسَ بما تحمِلُه ثناياه من قوّةٍ لا يستهين بها إلاّ من اختلطت لديهِ الشجاعةُ بالتهوّر. كان موحى يطيل النظر في تموُّجات السيول ويرفعُ نظرَهُ من حينٍ لآخرَ نحو قِممِ الجبالِ المكسوّة بالثلوجِ، ومنها نحو السماء الملبّدةِ بالغيوم. كان يعجب لأمرِ الماء، كيف له أن يتجلى أمامَه سائلاً وصلباً وبخاراً في الآن نفسه لا يشبهُه في ذلك شيءٌ مما يحيط به. تذكّرَ ما قاله خطيب مسجد القصر يوماً بأنّ اللهَ جعلَ من الماء كلّ شيء حيّاً، فأحسّ بِشَيْءٍ من الاطمئنان وسبّحَ الله.

في تلك الآونة كانت إطّو وحماتُها تنتظران رجوعَ موحى، وبدأن يقلقن بشأنِ تأخّرِه، إذ انتشرَ خبرُ فيضان الوادي في الجِوارِ كما في جميع قُصورِ القرية، وقد عهد الناس سماع أخبارٍ سيئةٍ من حينٍ لآخرَ عندما تجْرِف السيولُ أحدَ أبناءِ القرية. تحمّلت المرأتانِ قساوةَ الانتظارِ وهُنّ في وَجَلٍ ممّا قد تفرج عنه الساعاتُ المقبلةُ التي كانت تُخفي في ثناياها أحداثاً كثيرةً قد يكون بعضها رهيباً. كيف لا وهُنّ لا يعرِفن مصيرَ موحى ومن معه، ولا يَدرين ما سيحلُّ بإطّو وجنينها.

بعد بضع ساعاتٍ من الانتظار، تمكن موحى وباسّو وفاطمة من عبور الوادي. لم يكن ذلك سهلاً، فأرضيةُ مجرى الوادي ملأى بالأحجارِ، وسيولُه لم تنقطع بَعْدُ بالكامل، ولم يكن أحدٌ متيقّناً بأنّ صبيبَ الوادي لن يعودَ للارتفاع في أيّ لحظة. أصبحت كلّ أغراضِهم مغمورةً بالمياه وثيابُهم مُلطخةً بالطين يحسِبُهم من يراهم جُثثاً خرجت من تحتِ التراب، فقد كان موحى نحيفاً وقصيراً ذَا أنفٍ كبيرٍ يكادُ يُخفي من ملامحِ وجهِهِ ما لم يُخفِهِ قبُّ جلبابِه. تعِب الجميع تعباً شديداً، ورغم تعبِهم واصلوا مسيرَهم بكلّ حزم.

اختلطتِ المشاعرُ في ذهنِ موحى، كان يَشْعرُ بالجوعِ يلوي أمعاءَه، وبالبردِ ينخرُ قواه وبالخوفِ يُربكُ حساباتِه، أحسّ بالغضبِ من كل ما عوّصَ مشواره في صباح يومٍ ليس كباقي الأيام، وأحسّ بالشفقة على الحمارين وعلى فاطمةَ وزوجِها اللذَيْن غامرا

بحياتهما أملاً في تفادي الأسْوأ، ولولا الأمل في الحياةِ يغذّيه الخوفُ من الموت، ولولا أنّهُ كان يطمحُ لأن يرى زوجتَه ومولودَه آمنَيْنِ مطمئنّيْنِ لما زادَ خطوةً واحدةً في دربٍ كانت بدايته لا توحي بنهايةٍ سعيدة بأي شكل من الأشكال.

كانت الطريقُ تخترقُ الحقولَ وكانت ملأى بشتّى أنواعِ الحواجز، ساقياتٌ مُتّصلةٌ فيما بينها كالشِّبَاك، فدادينُ مختلِفةٌ مزروعاتُها، قُنَيْطِراتٌ بعضها من خشبٍ وبعضها الآخرُ من حجَر... وعندما كان الجميعُ على مشارفِ «أكال إزوان»، القصر الذي يسكُنهُ موحى، نَفد صبرُ الحمارِ الذي احتمل الكثير من الاستفزازِ وخاصّةً عندما تلقّى لسعةً مُؤلِمةً من شوكةِ موحى فوْرَ تخطّيهِ حفرةً بذل فيها مجهوداً كبيراً. نفد صبرُهُ فانتفضَ في وجهِ صاحبِه، في وجهِ زخّاتِ المطر، في وجه الشوكةِ القاسية، في وجهِ الجميع. نفض الحمار بعنفٍ كلّ ما كان على ظهره من أشياءَ وهو يَنهَقُ بكلّ ما بقي لديهِ من قوة. نَفضَ من ظهرِه موحى الذي طارَ في الهواءِ مِثلُه مِثل أغراضِ القابِلة التي شُلَّت حركتها من كثرة دَهشتِها وهي جالسة خلفَ زوجِها فوق الحمار الآخرِ وهما يشاهدان ما يحدث لموحى على مرمى حجرٍ من بيته حيث الزّوجة والأمّ تنتظران.

كاد موحى يفقدُ حياتَه من قوةِ الصّدمةِ بَعدَ أن ارتطم بجدع نخلةٍ يافعة. أحس بكدماتٍ وأشواكٍ كثيرةٍ في جسده، تهيأ له أنّهُ سمِع ابن الجيران يُخبرُ باسُو وفاطمة أنّ إطّو وضعت مولودَها للتّوِ، سمع تلك الكلماتِ وهو لا يدري هل بدأ يُغمى عليه أم أنّه بدأ يستفيق من إغماءٍ كان قد حلَّ به بفعل أشواكِ النّخل وبقرارٍ من الحمار.

الهامش:

[1]: في واحات الأطلس الكبير في المغرب تطلق كلمة «القصر» على القصبة.

[2]: يُسمَّى الأشخاصُ عند الأمازيغ نِسْبَةً لآبائهم. «باسّو أحماد» بضمّ الهمزة تعني «باسّو ابن حماد»

[3]: يطلق اسم «لْغلُو» وهو مفردٌ على الممرات النصف مغطاة والتي تشكل الأزقة بداخل القصبات.

القصة الثامنة: الشيفرة المخيفة

تأليف: حازم زين العابدين

الدولة: تركيا

الشيفرة المُخيفة

أمريكا، واشنطن

قاد جورج سيارته الحمراء من طراز «فورد» على طريق ممشى حديقة جورج واشنطن التذكاري بهدوء لا يتناسب مع ما يجب أن يكون عليه بعد تلقيه الأخبار من عميله في دمشق، ثم بان على يساره ذلك المبنى المَهيب لوكالة المخابرات المركزية (CIA) ذو المبنيين المتوازيين ويصل بينهما مبنيان آخران كجسر. كان يعرف حقيقةً أنه ليس أجمل مبنى في البلاد، فهناك مبانٍ عدة ذات تصميم رائع؛ كالبيت الأبيض، وكابيتول الولايات المتحدة، والمحكمة العليا، والبنتاغون، وغيرها كثير من المباني الحكومية ذات التصميم المعماري الرائع؛ فالكابيتول على سبيل المثال يحوي لوحة مرسومة بداخل قبته من إبداع الفنان «كونستانتينو بروميدي»، ويذكر كم كانت دهشته عظيمة حين رآها أول مرة، بقي ينظر إليها مدة طويلة، حتى إن رقبته بقيت تؤلمه طوال اليوم، وقد فكَّر في نفسه أنها كانت تحفة فنية بحق، تعكس مدى حب الآباء المؤسسين لهذه الأمة العظيمة على تمجيد أنفسهم.

دخل العطفة التي على يساره وبدأ بتجهيز بطاقة دخوله، كان يكره إجراءات الدخول المشددة تلك؛ فعلى الداخل إلى هذا المبنى الغامض أنْ يُبرز بطاقته الوظيفيَّة، ويمرر عينه على جهاز بصمات الأعين. ثم أكمل طريقه إلى مصف السيارات المخصص للموظفين وركن سيارته في الموقف رقم 153، وترجَّل بهدوء، أيضًا، قاصدًا المدخل الرئيسي، وهنا -على الباب الرئيسي أيضًا- وجد جهاز البصمات؛ شتم بصوت عال، هو نفسه لم يكن يدري لماذا يشتم، فهو فعلًا ليس في عجلة من أمره -مع أنه يجب أن يكون كذلك- لكنه يمقت بشدة تلك الإجراءات التي يرى أنه لا داعي لها.

سلَّمَ على زملائه الذين كان بعضهم ينتقل من مكتب إلى مكتب، وأحدهم كان يحمل ملفًا والآخر ورقة، هكذا دائمًا ما كان حال الوكالة، كخلية النحل لا تقف أبدًا؛ هناك دائمًا من يعمل على شيء حتى ولو في منتصف الليل.

ثم ارتقى بالمصعد إلى الطابق الأخير، وقد اكتسى كلٌّ من وجهه الأبيض وعينيه الخضراوين -وكأنهما حجَرا زمرد- هيئة صرامة تليق بشخص في مركزه، شدَّ هندامه وهو يخرج من المصعد متجهًا إلى مكتب المدير، كان البهو عابقًا برائحة الورود والأزهار، ربما يكون مضحكًا وبنحو كبير أن يكون مدير فرع الاستخبارات والمَهام الخارجية المعروف بأنه لا يضحك أبدًا مُحبًا للزهور والورود.

دخل فخيته السكرتيرة، وقالت دون أن ترفع رأسها من أمام شاشة الكمبيوتر:

- إنه في انتظارك.

رد عليها باقتضاب محاولًا عدم تشتيت تركيزه، وهو يُجهِّز كلماته وجمله بعناية لأنه لا يريد أن يُعكِّر عليه صفو يومه أحد ولو كان مديره المباشر:

- شكرًا لك.

قرع الباب، سمع صوت مديره الناعم الذي لا يتناسب أيضًا مع من هو في مثل مركزه، كان ليضحك لولا أن تمالك نفسه، فهو لا يرى أي مؤهل لهذا الذي يُسمى مديره المباشر، سوى أنه نجح في إدارة واحدة من أهم العمليات التي وُكِّلَت إليهم، وهي اغتيال أسامة بن لادن، ثم دخل إلى المكتب.

كان المكتب غرفة واسعة مكسوة كاملًة بخشب البلوط، وإضاءتها ضعيفة مع أنها في وضح النهار، لكن الشمس تحجبها أوراق الأشجار؛ فقد كان هذا المكتب أقرب إلى غابة منه إلى مكتب استخبارات، كان يجلس مديره خلف مكتبه الضخم على كرسيه وكأنه شجرة سيكويا عملاقة، وهو حليق الذقن، أصلع بنحو مضحك، وكان يمسك قلمه من ماركة «montblanc» ويقلِّبه بين إصبعيه بتوتر واضح.

بادره مديره بالسؤال، وقد بدت لهجته قمةً في الجدية، بأكثر ما توقع جورج:

- أصحيح أنكم لم تستطيعوا الحصول على ذلك الحاسب المحمول الذي يحوي تلك الشيفرة التافهة؟
- سيدي هي ليست تافهة، وإلا ما سعينا إليها...

قاطعه بسرعة كيلا يتحول الموضوع إلى ما لا يريده:

- بغض النظر، أخبرني بسرعة ماذا فعلتم بأسعد؟
- بعد أن علمنا أن الروس يسعون وراءه، حاولنا أن نغريه بأكثر ما عرضوا عليه، وعندما رفض حاولنا استجوابه، وقد قاوَم الاستجواب، وحاول الهرب والمقاومَة وجرى اشتباك ناري مفاجئ بينه وبين عملائنا هناك، وقد...

  هنا ازدرد جورج ريقه وكأنه أحس بأنه وصل إلى النقطة التي كان يخشاها، لكن جمع شجاعته وحاول أن يكمل بسرعة كيلا يزيد من غضب المدير:
- وقد قُتِل.
- أيها الأوغاد، أقتلتموه؟! ومن أين نحصل على ذلك البرنامج الآن؟

قال المدير جملته الأخيرة بعد أن ألقى بقلمه على الطاولة وضربها بقعر قبضته.

- سيدي إنه من أجل ذلك لن نخشى من أن تُفتضح أسرارنا، أو من أن يصل البرنامج إلى أحد غيرنا.
- لكن البرنامج موجود في مكان ما، وطالما أنه ليس في أيدينا يعني أنه ليس آمنًا، لذلك أريد أن أبعثك أنت لكي تجد ذلك البرنامج.

لم يشأ جورج أن يعترض؛ لأنه أحس أنه يتحمل جزءًا من المسؤولية في مقتل أسعد، لذلك أردف قائلًا دون أن تحمل نبرته أي اعتراض:

- حاضر سيدي، متى تأمرني بالتحرك؟
- هل تعلم يا جورج؟ أحيانًا أستغرب كيف أمكنك الوصول إلى رتبة مرموقة كهذه وأنت تملك هذا القدر من الغباء!

قال الكلمة الأخيرة بنبرة صارخة، ارتجف لها جورج وأحس بخطورة المَهمة أكثر فأكثر، فأردف لينهي هذه المحادثة التي استنزفت أعصابه:

- بأمرك سيدي!

خرج من الغرفة وهو معكر المزاج، لكنه في الوقت نفسه يحمل إصرارًا كبيرًا على إنهاء هذه المَهمة بأفضل الطرائق، وعزم على ألَّا يعود إلا والبرنامج في يده، حتى لو كان هذا البرنامج في أعماق الجحيم، فهو يعرف أن هنا عالم النتائج والنهايات، هنا لا شيء مهم غير النتيجة، الطريقة والوقت والكلفة ذلك غير مهم البتة، المهم أن تنجز ما هو مطلوب منك.

اتَّجهَ إلى قسم المعلومات، ذلك القسم الذي يحوي أكثر أسرار الكون سرية -إن صح القول- ويخضع موظفوه إلى رقابة شديدة جدًّا أكثر من أي أحد في الوكالة كلها تقريبًا، ولا يتوانَون عن تصفية أي مشتبه فيه بالخيانة أو كما تنص عليه القوانين الداخلية «تهديد الأمن القومي»، ثم أدخل بطاقته في الجهاز وفُتحت البوابات. دخل وكانت القاعة كالعادة تضج بأصوات النقر على لوحات المفاتيح والتراشق بالورق والملفات من ركن إلى ركن ومن زاوية إلى أخرى.

قصد زميله ستيف، تبادلا التحيات، وقال بلهجة صارمة لم يتحدث بها أبدًا مع صديقه ستيف من قبل:

- أريد ملف الشيفرة المخيفة!

لم يرد عليه ستيف وإنما بدأ بعمله مباشرة؛ فهو يعلم بأنه عندما يكون صديقه في مثل هذه الحالة فإن أفضل ما يمكن فعله هو تجنبه حتى يهدأ. ناوله الملف الذي طُبع لتوه، وقال له باقتضاب:

- بالتوفيق.

وهنا أمسك جورج الملف وانطلق لا ينوي إلا أخذ البرنامج والعودة به إلى هنا.

سورية، دمشق

عادت حنين إلى البيت بعد جنازة والدها الذي قُتِل البارحة، ودخلت إلى مكتبه؛ كان مكتبه أكبر غرف البيت؛ فيه طاولة، وخلفه كرسيه المتحرك، وإلى يمينه الطابعة، وخلفه لوحة كُتِبت عليها أرقام لكن بطريقة فنية، ولم تكن تعني لمن يراها شيئًا سوى أنها أرقام بلا فائدة. كانت حنين تذكر بأنها سألت أباها حين أحضر هذه اللوحة إلى البيت عن معناها، فأخبرها بأنها أول لوحة من رسمه، وهي لا تعني شيئًا إلا أنها أرقام مرسومة بطريقة غريبة. وعلى الحائط الأيمن كانت المكتبة تشغل الحائط بأكمله وأما الحائط الأيسر فقد شغله برواز علقت فيه شهادة من جامعة كامبردج، وهي شهادة دكتوراه في علم التشفير والحاسب الآلي.

تهاوت على الكرسي، هي لم تبكِ البتة، لأنه ليس الآن وقت البكاء، فهي قد نوت الانتقام من قاتل والدها، ومن ثم البكاء عليه، وجلست تفكر في الذين يُشتَبه فيهم بقتل والدها أسعد. أمسكت بهاتفها المحمول وكانت الساعة متأخرة، يبدو أنها أمضت وقتًا طويلًا دون أن تشعر فوق قبر والدها، وهي تعده بأنها لن تبكيه قبل أن تثأر من قاتله.

منذ أن جاءها خبر القتل وهي لا تصدق، كيف يمكن لشخص معروف مثل والدها أن يُقتل؟ وحسب ما قالت لها الشرطة فإن والدها كان في اشتباك مع أشخاص مجهولين، وقد قُتِل ضمن هذا الاشتباك. وهي منذ ذلك الوقت تتقافز إلى فكرها أسئلة عدة؛ منذ متى وأبي يملك مسدسًا؟ وهل امتلاكه للمسدس يشير إلى أنه يعرف بأنه مهدد؟ وإذا كان كذلك فلماذا لم يخبرني؟ والسؤال الأهم هو ما الدافع الذي قُتِل من أجله؟ ما الذي يمكن لوالدي أن يفعله كي يقتل؟

كان رأسها يغلي كالمرجل؛ فإذا بباب الدار يُدَق. أرعبها الصوت؛ إذ خافت من تبعات قتل أبيها، تسللت حتى الباب على رؤوس أصابعها، نظرت من العين الساحرة فرأت صديق أبيها عمر -وهو دكتور في الفلسفة- ارتاحت لرؤيته؛ إذ كان أعز صديق لدى أبيها. فتحت له الباب فحياها ودخل، قادته إلى مكتب أبيها، كما يفعل عادة لو كان حيًا، ووقفا على باب الغرفة، ونظرا إلى بعضهما. حثته على الدخول، وأحس بأن عليه الإسراع في طرح الموضوع، فتنحنح ليقول:

- اسمعيني يا حنين. أنت تعلمين أن أباك أعز صديق عندي -رحمه الله-، وقد أصابني في وفاته من الهم والحزن ما أصابني، وإني مثلك تمامًا أُصرُّ على الانتقام من قاتله، وقد جئتك لهذا السبب تحديدًا.

وقف قليلًا ليرى تأثير كلامه فيها، لكنه رأى أن وجهها كالتمثال لا يتحرك، فتابع:

- وقد طلبت من الطبيب الشرعي أن يُطلعني على جميع مجريات تحقيقه، ولا أخفيك بأنه أخبرني خبرًا لم أصدقه للوهلة الأولى، لكن عندما رأيت بعيني لم يعد هناك مجال للإنكار.
- وما هو هذا الشيء؟
- دعيني أسألك أولًا، هل كان لدى أبيك أي وشم على جسمه؟

- لا!
- إذًا فإن أباك لديه واحد على بطنه، وهذه صورة الوشم، أحسست بأنها غير عادية.
- دعني أرى!

ووضع هاتفه أمامها، فنظرتْ بحذر وكأنها تخشى أن يكون كلامه صحيحًا، صرخت صرخة فزع عندما تأكدت بأم عينها.

- وما تعليقك على هذه الرموز الغريبة؟
- لا أدري لكن عليَّ أن أبحث.

تناولت ورقة وقلمًا من الدرج، دوَّنت ما هو مكتوب، وكان فعلًا شيئًا محيِّرًا؛ فهو من النظرة الأولى يبدو بلا معنى؛ ولكن منطقيًّا يجب أن يكون له معنى، بل ومعنى مهمّ أيضًا، وإلا لما أقدم أبوها على شيء كهذا.

T()215(+sr()q

- وهل استطعت معرفة شيء من هذه الطلاسم؟
- صحيح أنني أدرس الفلسفة، لكن تعلمين أنني لا أستطيع إلى الآن فهم فلسفة أبيك!
- أنا استنتجت شيئًا، لكني لا أرى له رابطًا مهمًّا يقودنا إلى شيء.
- وما هو؟
- Sr إنه رمز عنصر Strontium
- وماذا عن البقية؟
- لا أرى لها معنى!
- مستحيل!
- أعلم!
- ما رأيك بأن أتصل بأحد خبراء التشفير؟
- لا، أنا أرى أن أبي ترك هذا اللغز لي كما كان يفعل معي في الماضي، ومن ثم فإني لم أعد أثق بأحد غيرك بعد وفاة أبي.
- إذًا يجب أن تفكري، لو أنك في مكان أبيك كيف كنت ستتصرفين، لأني أرى أن أباك كان يتوقع أن يحدث له هذا، فامتلاكه مسدسًا ووشمه يؤكدان هذا. ولذلك أظن أن هذا الوشم اللعين الذي لا نفهم فحواه، هو خريطتنا لإيجاد سر أبيك ومعرفة سبب قتله.
- عد إليَّ غدًا، فربما أكون قد حللته!
- أخاف أن يمضي الوقت دون أن تحليه.
- لا تخف لن أنام قبل حله.

غادر عمر، في حين شرعت حنين بالعمل؛ بدأت تقرأ كتب أبيها عن التشفير، لكنها بالكاد كانت تفهم شيئًا، فعلى ما يبدو أن هذه الكتب ليست للعوام. حاولت إيجاد أي ورقة بين الكتب، أي خط أو دليل تحت أي جملة، لكنها عبثًا تفعل. مضى الليل وأعقبه النهار وهي في بحثها ذاك، فاستيأست، وفتحت حاسوبه الشخصي، وبحثت في مستنداته أيضًا فلم تعثر على شيء، كانت تجيل نظرها من ملف إلى ملف وتقرأ العناوين ولا تفهم منها شيئًا، وكأنها مكتوبة بلغة سنسكريتية (التشفير المتناظر، التشفير المقطعي والمتصل، دالة هامش التشفير...). أحست بالتعب، فهي إن أرادت أن تفهم شيئًا، فستحتاج وقتًا طويلًا جدًّا لا تمتلكه، وعندما همَّت بإغلاق الحاسوب، لفت نظرها ملف وحيد على سطح المكتب بعنوان «الجناس التصحيفي -محاضرة مصر». تذكَّرتْ رحلة أبيها الأخيرة إلى مصر منذ أقل من أسبوعين، وأرادت أن تتصفح الملف، وبعد أن جالت بطرفها في الشرح، فهمت الطريق المختصر لهذا النوع من التلاعب بالكلمات، فبدل أن تكتب مرحبًا، يمكنك كتابتها هكذا «حرب ما» وأن تكتب «العربي - عبري». أعجبها الشرح ومفهوم الجناس التصحيفي ذاك، لكن لا ترى ما يمكن أن تستفيد منه.

أعادت النظر في الشيفرة

T()215(+sr()q

لم ترَ أي شيء لافت للنظر سوى عنصر «السترونشيوم»، وهذا غالبًا لا يشير إلى شيء بوجود الرموز الباقية غير المحلولة، أحست بأنها بدأت تفقد تركيزها، فقامت إلى المطبخ لتعد كأسًا من الحليب الساخن بالشوكولا، وعادت بحماسة إلى عملها، وهي ترتشف الحليب من حين إلى آخر.

أعادت جمع شتات فكرها، ونظرت في الوشم، وحاولت تفسير الأمور بعكس ما تراها، لأنها تذكرت وصية والدها، «يا صديقتي؛ إن استعصى عليك أمر فانظري إليه بعكس ما أُوحيَ إليك»، ابتسمت حين تذكرت صوت والدها وهو ينصحها، وتذكرت كيف كان يلقبها بـ «صديقتي».

فقالت في قرارة نفسها: «فلنفترض -وهذا ما أراه راجحًا- أن إشارة (+) لا بُدَّ أنها تُشير إلى العملية، ولكن ما علاقة الحروف والأقواس؟». لقد درسَتْ دالة الجيب (sin) ونصف قطر الدائرة (r) لكنها لا تعني شيئًا لها -على الأقل في الوقت الراهن- فهي لا ترى شيئًا يربط بين كل هذا. أمسكت بالحاسوب وبحثت عن معادلات وقيم رياضية غريبة، فرأت معادلة أويلر:

$$e^{i\pi} + 1 = 0$$

ومتتالية فيبوناتشي التي حفظت حدودها المئة من صغرها؛ لأن أباها كان مولعًا بها، والأعداد السعيدة والنرجسية التي سبق لها معرفتها، ولكن ما لفت نظرها هو النسبة الذهبية، فهي كانت تحوي الأرقام 1 و2 و5 التي تحويها الشيفرة. أمسكت بالورقة والقلم، وراحت كالمجنونة تحاول تأكيد ما قرأته عن القيمة الذهبية؛ فحاولت ترتيب الشيفرة علّها تطابق ما شاهدته، حاولت

مرات عدة وفي كل مرة تشطب وتكتب فتشطب وتكتب بيد مرتجفة نتجت عنها أحرف ترقص على الورق، نجحت أخيرًا في ترتيب شيء مفهوم، وهو الذي يطابق الكتابة الحاسوبية للنسبة الذهبية، التي هي:

$$\frac{1+\sqrt{5}}{2}$$

فأصبحت على الورق العبارة الآتية -وهي الشيفرة بعد ترتيبها وفك الجناس التصحيفي-:

(1+sqrt(5))/2

أدخلت القيمة في محرك البحث لتتأكد، فإذا بها صحيحة. لو أن والدها ليس ميتًا لرقصت من الفرح، فهي كانت متعودة منذ الصغر أن تحل الألغاز التي يعطيها إياها أبوها، وكم كانت تفرح بعد الجهد الذي تبذله لحلها. ومع أن أباها قد توفي، فهي فرحت فعلًا لأنها اقتربت خطوة من أن تعرف ما حدث لأبيها والسبب وراء وفاته.

ولم يدم فرحها طويلًا، فها هي تعود من جديد إلى عدم معرفة إلى أين ستقودها النسبة الذهبية تلك، ولكن في الوقت نفسه تأكدت من أنها تمشي في الطريق الصحيح، فوالدها لم يكن أبدًا ليعطيها لغزًا سهلًا، فهي منذ كانت في العاشرة من عمرها، كان أبوها يعطيها معادلات في التكامل لتجد هديتها المخبأة.

أحست بثقل جفنيها، فهي لم تنم منذ أن توفي والدها، قاومت النعاس، لكنه انتصر في النهاية وأسدل الستار على يومها ذلك.

سورية، دمشق

بعد رحلة استغرقت أربع عشرة ساعة من مطار واشنطن دالاس الدولي إلى مطار دمشق الدولي، وصل العميل جورج إلى دمشق، أنجز إجراءات الدخول سريعًا، وقد ساعده موظفو المطار في ذلك؛ أولًا لأنه أجنبي، وثانيًا لأنه يدخل بصفة دبلوماسي ملتحق بالسفارة الأمريكية. وجد سيارة السفارة في انتظاره خارج المطار، وعندما وصل بدأ عمله على الفور؛ إذ استدعى عميليه وطلب منهما آخر المستجدات.

- إن ابنته يا سيدي تحاول حل اللغز الذي يقودنا إلى البرنامج.
- أي لغز؟
- إن الرجل كان له وشم على بطنه، وهو غالبًا مكان البرنامج، لذا نأمل بأن تقودنا تلك الشمطاء إليه.
- وهل شددتم مراقبتها؟
- نعم سيدي.
- وهل علمت المخابرات الروسية بأمر ذلك الوشم؟
- لا، سيدي، عندما علموا بموته من قبلنا، ولما أوهمناهم بأننا حزنا على البرنامج عاد عملاؤهم إلى روسيا.

قال وهو يحس بالراحة: فلننتظر إذًن.

استفاقت حنين عندما أحست بطرق عنيف على الباب، رفعت رأسها من فوق طاولة المكتب، وأحست بشد في عضلات رقبتها، بسبب وضعيتها الخاطئة في النوم، قامت على عجل لترى الطارق، فإذا بنظرها يقع على كتاب بين الرفوف بعنوان «نسبة الرب»، تفاجأت كيف أنها لم ترَ هذا الكتاب البارحة، فقد فتشت في جميعها ولكنها لا تذكر هذا، وأرجعت سبب عدم رؤيتها له إلى اللَّبكة التي كانت عليها البارحة. أمسكت بالكتاب وفتحت الفهرس لتتصفحه. كان الكتاب فعلًا يتحدث عن النسبة الذهبية بوصفها نسبة الجمال والكمال أو كما يلقبها الكاتب مجازًا «نسبة الرب». في تلك الآونة اشتد قرع الباب قوة، فتذكرت أن عليها أن تفتح الباب. ركضت لترى من يطرقه، فإذا به صديق أبيها عمر الذي زارها البارحة، فتحت على عجل ودعته للدخول وهي تعود أدراجها إلى المكتب، فتبعها إليه.

بادرها بالسؤال وهو يهم بالدخول إلى المكتب:

- لماذا تأخرتِ في فتح الباب، خشيت أن يكون قد أصابك شيء في غيابي.
- كنت مستغرقة في النوم.
- وهل حللته؟
- بالطبع ولكن لم أصل فيه إلى شيء منطقي، على الأقل قبل أن تقرع الباب أنت.

وقف إلى جانبها، وهو ينظر إلى الكتاب، لاحظ على الطاولة أوراقًا مبعثرة ومليئة بالكتابات التي هي وشم صديقه. أمسكها وبدأ قراءتها، أعجبه تحليلها للوشم ولم يبدِ أي تفاجؤ عندما عرف بأنه يشير إلى النسبة الذهبية.

- هل تعلمين؟ ليس هذا بغريب!
- ولماذا؟
- لأن أباك كان دائم الحديث عن النسبة الذهبية ومتتالية فيبوناتشي، لقد كان مغرمًا بهما.
- أما عن متتالية فيبوناتشي فإني أعرف ذلك. أما نسبة الرب تلك فبالكاد سمعت عنها.
- وإلى ماذا توصلتِ أخيرًا؟
- لا أعرف؛ هذا الكتاب كبير، ولا أعرف ما الذي قصد أبي الإشارة إليه؟
- يجب أن يكون هذا مذكورًا في الوشم.

رفعت حنين رأسها إليه بإعجاب، أسرعت إلى الوشم تنظر إليه، وقالت Eureka.

- لا أفهم، بالعربية لو سمحت!

- وجدتها!
- ما هي؟
- إنها هنا T()215(+sr()q مُشيرًا إلى الصفحة رقم 215.
- إليها إذن!
- ها هي، إنها تشير إلى تجليات النسبة الذهبية في هرم خوفو، ومكتوب هنا: «فإذا أنزلنا عمودًا من رأس الهرم إلى القاعدة، ينتج لدينا مثلث قائم الزاوية، فإن النسبة بين طول الوتر في الهرم إلى طول أصغر ضلع فيه -وهو نصف ضلع القاعدة- ستنتج لدينا القيمة 1.61804 وهو باختلاف بسيط فقط بالخانة العشرية الخامسة للنسبة الذهبية».
- إذا فإن سر أبيك في الأهرامات؟

لم تجبه، بل التفتت لتوها إلى الحاسب المحمول وطَبَعَت بسرعة «حجوزات من دمشق إلى القاهرة».

قال لها حاسمًا أمره:

- لشخصين لو سمحت!

نظرت إليه وتابعت عملها بسرعة وإتقان، فالذي يراها يظنها عملت في مكتب سياحي لمدة تزيد عن خمسة أعوام. أنهت الحجز في خمس دقائق.

- متى ميعاد السفر؟
- بعد ساعتين.
- ماذا؟!
- لا تعترض بإمكانك البقاء هنا.

عندها أدرك عمر بأن هذه البنت فقدت عقلها وأعصابها، فهي لا تريد التروي في أي شيء، وقد أدرك أيضًا بنحو أكبر كم كان صائبًا خيار ذهابه معها.

غيرت حنين ملابسها، وانطلقا نحو المطار...

سورية، دمشق، السفارة الأمريكية

تنبه القائد جورج إلى رسالة جديدة قادمة إليه من عميله الذي يراقب حنين، وتنص الرسالة على أن حنين اتجهت صوب القاهرة.

طبع على أزرار هاتفه كلمة بسيطة «اتركهما».

مصر، القاهرة

حطت الطائرة من نوع (Airbus A320) في مطار القاهرة الدولي، وترجَّلت حنين يتبعها عمر على أرض المطار، ثم نُقلوا بالباصات إلى قاعات المطار، ولسوء حظهم كان هناك ضغط رهيب على منافذ العبور لهبوط طائرات عدة في وقت متقارب، أحست حنين بالضجر فهي تريد أن تنهي هذا الأمر بسرعة.

بعد قرابة الساعة والنصف، خرج عمر وحنين إلى جو القاهرة الحار. استأجر عمر سيارة ليقضيا بها حوائجهما في خلال مدة إقامتهما. قصدا أقرب فندق، وباتا فيه الليل. وفي الصباح الباكر وبعد أن اجتمعا في صالة الطعام، تناولت حنين الطعام على عجل، وقالت وهي تهم بالخروج:

- هل تعرف أحدا يساعدنا في مهمتنا هذه؟
- طبعًا ونحن سنذهب إليه حالًا.
- من هو؟
- الدكتور لطفي، دكتور علم التشفير في جامعة عين شمس.

قاد عمر السيارة قاصدًا ميدان عبده باشا الذي يقع جانبه مبنى كلية الهندسة في جامعة عين شمس، قادمًا من شارع السرجاني. أكمل حتى شارع أحمد فؤاد عبد العزيز السريات، منعطفًا إلى شارع المستشفى اليوناني، ومن ثم دخل إلى حرم الكلية عن طريق البوابة الخامسة. مع أنه جاء إليها من قبل مع أسعد، لكنه لم يكن يستطيع أن يحفظ الشوارع المتداخلة لمدينة كالقاهرة.

اتجه نحو البوابة الرئيسية لمبنى الكلية، وقد كان عبارة عن مبنى من ثلاثة طوابق، وتواجه البوابة نافورة تعطي للجو رطوبةً منعشةً، وإلى جانب درج البوابة يوجد مدفعان. ارتقى درجات البوابة الثمانية المكسوة بسجادة حمراء تشبه تلك التي يسير عليها المشاهير في هوليوود.

صعد إلى الطابق الأول وطرق الباب الأول من جهة اليمين. كانت غرفة الأستاذ لطفي، سمع صوت الأستاذ من الداخل ينطق بكلمة «تفضل».

رسم الابتسامة على وجهه ودخل تتبعه حنين، وعندما نظر بعضهما إلى بعض هب إلى استقباله الدكتور لطفي، وكم كانت سعادة هذا الأخير برؤية ضيفه.

- تفضل يا دكتور عمر!

أحس عمر بضرورة تعريفه إلى حنين، فقال بلهجة ودودة:

- شكرًا لك، هذه هي حنين ابنة الدكتور أسعد الذي قُتِل منذ مدة في حادثة إطلاق نار.
- نعم، للأسف لقد سمعت عن هذه الحادثة المؤسفة في الجرائد. تعازي الحارة لك يا ابنتي، لقد كان أبوك واحدًا من أعز أصدقائي.
- أطال الله عمرك يا دكتور.
- إذن ما سر هذه الزيارة المفاجئة لنا يا عمر؟
- إني أريد مساعدتك في التحقيق في مقتل أسعد.
- أنا؟! وكيف أساعدك فيه؟
- لقد أشار أسعد قبل موته إلى النسبة الذهبية، وأشار أيضًا إلى صفحة في كتاب «نسبة الرب» التي تشير إلى تجليات هذه النسبة في هرم خوفو، فهل تعرف شيئًا عن هذا الموضوع؟ أو هل فاتحك فيه أسعد في سفرتنا الماضية؟ أظنه قد اغتنم فرصة وجوده هنا لتساعده على ما أعتقد.
- بل لقد كلفني بأن أُسهِل له وضع أمانة في أحد غرف الهرم، على أن يستعيدها بعد فترة.
- ومتى يمكننا استعادتها؟
- الآن إن أردتم.
- إذًا فليكن.

اتصل الدكتور لطفي بزميله الدكتور أحمد عميد كلية الآثار في جامعة القاهرة ليسبقه لهرم الجيزة الأكبر، هرم خوفو. كان الدكتور لطفي لا ينفك يشرح لهم عن هرم خوفو ولم يكن يسكت إلا ليزدرد ريقه وكان حديثه كالآتي:

«إن هذا الهرم لهو تحفة تاريخية، وأعجوبة هندسية بارعة، ولست بهذا أضع من شأن الأهرامات الباقية. على العكس في كلٍ أعاجيبه التي لا تنتهي، أما عن هرم خوفو ذلك الذي سنزوره، فإنه الأكبر كما تعلمون، وهو الأعجوبة الوحيدة الباقية من أعاجيب الدنيا السبع القديمة، فيه ثلاث غرف؛ واحدة تقع تحت الأرض محفورة ضمن الصخر ولم يكتمل حفرها، والغرفة التي في الوسط فقد كان يشاع فيما مضى بأنها غرفة الأميرة، واكتُشف حديثًا بأنها غرفة للتضليل لا أكثر ولا أقل، وأما الغرفة العلوية فهي ذات حوائط غرانيتية على عكس الهرم من الداخل، لأنها غرفة دفن الملك».

قاطعته حنين وكأنها تمللت من شرحه الذي كانت لترحب به لولا أنها في وضع كهذا:

- وبأي غرفة أودعتم السر؟
- في الغرفة المزيفة.

نطق كلاهما في اللحظة نفسها من هول المفاجأة. كانوا أنفسهم لا يدرون ما المفاجأة في الموضوع، لكن ربما أحسوا بأن السر الذي سيخفيه الدكتور أسعد يستحق أن يخبأ في غرفة ملك.

- في الغرفة المزيفة؟
- نعم هذه كانت إرادة والدك -رحمه الله-.

لبث الثلاثة بعدها لا ينبسون ببنت شفة، إلى أن وصلوا إلى الأهرامات.

نظرت حنين إلى هذه الأعاجيب الساحرة، إلى تلك المباني التي لا تشبه أي شيء سبق وأن عاينته، كانت كثيرًا ما تراها في الصور، لكن الوقوف أمامها شيء آخر تمامًا.

تقدَّم نحوهم الدكتور أحمد وتعرف كل منهم إلى الآخر، وقال الدكتور أحمد بمناسبة التعارف:

- لقد أخليت لكم الهرم لكي نستطيع إخراج الحاسوب المحمول بسهولة.

همس الدكتور لطفي في أذنه: هل علمت بأن الأستاذ أسعد قد توفي؟ أجاب بلهجة متفاجئة: لا!

- تعازي الحارة يا ابنتي.
- هذا لطف منك يا دكتور.

دخلوا من مدخل مأمون إلى الدهليز، ومن ثم صعدوا دهليزًا نحو الأعلى، وعندما وصلوا إلى الغرفة دخلوا إليها. كانت مبطنة بأحجار جيرية بيضاء، وكما قال لهم الدكتور أحمد شارحًا، بأن هذه أول غرفة ذات سقف جملوني موجودة في هرم. وأعقب الدكتور أحمد جملته الأخيرة بأن قال:

- والآن فلنُخرج الحاسب المحمول.

اتجه أحمد نحو ما بدا ثقبًا مربعًا في الجدار الأيمن للحجرة المزيفة، وقال شارحًا: إن هذا النفق كان -وما زال- محيرًا لعلماء الآثار، وقد أُجريت أبحاث عديدة عليه وتم إدخال روبوتات عدة، وما زلنا نجهل فائدة هذه الفتحات، ولكن على الأقل فإنها تعمل الآن كمستودع للأمانات.

أخرج من الفتحة جهازًا صغيرًا بحجم الهواتف النقالة من طراز (GPD Pocket) أعطاه لحنين وكأنه انتزع حملًا ثقيلًا عن كاهله، ثم خرجوا جميعًا من الأهرامات وأعيد افتتاحها للعامة، وتفرقوا كل في سبيله بعد أن شكر كل من حنين وعمر الدكتورين على مجهودهما في حفظ هذا السر العظيم.

ولم تكد حنين تركب السيارة حتى أشعلت ما يمكن أن يسمى باللابتوب، وانصدمت من فورها بكلمة مرور. نظرت في وجه عمر لعله يدلها إلى طرف الخيط، وقال بصوت يائس:

- أصبح عليك معرفة الأمر يا حنين!
- أي أمر؟
- إن أباك في أيامه الأخيرة كان يعمل على برنامج يستطيع اختراق كل حواجز الحماية الإلكترونية، لم يخبرني بنتائج مشروعه، ولكني بت أعرف بأنه انتهى منه قبل مقتله.
- ولماذا لم يخبرني بذلك؟
- لا أدري!

جربت حنين كل الخيارات التي توقعت أن يستخدمها أبوها كلمة سر، وكانت تفشل في كل محاولة. وعندما استيأست، حجزت تذكرتي طيران للعودة إلى بيتها. وفي الطائرة، لم تستطع النوم فشاهدت حلقات من مسلسل شارلوك هولمز كانت قد بدأت مشاهدته منذ مدة ولم تنهها، وقد لفت انتباهها في الحلقة الثالثة من الموسم الأخير استخدام شارلوك الأشعة فوق البنفسجية للكشف عن كتابات بحبر مخفي وهو زيت بذور الكتان. فكرت بأنه ربما عليها تجربة هذه الطريقة. فربما تنجح وتكتشف السر. لكنها لم تطق انتظارًا، فحاولت من جديد تخمين كلمة السر، جربت كلمات جديدة ومنها الوشم الذي دلها على هذا المكان لكن عبثًا حاولت، لقد باءت آخر محاولاتها بالفشل.

عند وصولهما إلى مطار دمشق الدولي اتجهت حنين من فورها إلى المشفى الذي تعمل فيه لتكشف الجهاز تحت الأشعة فوق البنفسجية، وفعلًا عندما وضعت الجهاز في عرضة الأشعة أضاءت بعض أزرار لوحة المفاتيح، فتناولت ورقةً وقلماً ودونت الأحرف المضاءة، وقد شكلت جملة لا تعني شيئا للمرة الثانية. ***CERUMINOSIS UNINDORSE***

حاولت إعادة التفكير في كل ما جرى لها، منذ أن توفي والدها إلى لحظة عثورهم على الحاسوب، وعرفت أن أباها كان مغرمًا بالجناس التصحيفي، فاستعانت بموقع على الإنترنت لفك طلاسم هذه الأحجية. كان الموقع يطلب اختيار لغة النص لكي يستطيع فكه، جربت الإنجليزية فلم يعطِ الموقع نتائجَ، جربت الإيطالية فالإسبانية فالفرنسية فلم تنجح، وبقيت اللغة اللاتينية وهي اللغة الخامسة التي يجيدها أبوها، وكانت هذه اللغة المحببة لقلبه. ظهرت أمامها جملة واحدة ولم تكن تعرف ما معناها.

NOS SUMUS ORTI IN CINERE

ترجمتها فإذا بها تعني:

«ننهض من الرماد»

عادت من فورها إلى البيت، لتشغيل اللابتوب وتشغيل كود أبيها. في البيت جلست وراء المكتب، وأمسكت به وطبعت الأحرف بقلب مرتجف.

NOS SUMUS ORTI IN CINERE

تمّ الفتح وصار سر أبيها معها الآن في الأيدي الصحيحة والأمينة. تنفست الصعداء، وأحست أنها على بعد خطوات من الانتقام لقاتل والدها.

نظرت إلى عمر لتستفهم منه عن الخطوة التالية، فقال لها:

- ابحثي في الملفات عن برنامج التشفير!

أحست بأن الأمر بديهي، لكنها فعلًا سبق وأن بحثت في الملفات فلم تجد شيئًا، بل لقد خافت أن تكون هناك حيلة أخرى من حيل أبيها التي لا تنتهي. ولفتت انتباهها ملفات فارغة سمي كل منها بحرف واحد وقد صُفَّتْ الملفات في أعمدة خمسة.

أمسكت بورقة وقلم وكتبت الأحرف التي كتبها أبوها على اللابتوب كأسماء ملفات فتشكل لديها أعمدة خمسة بهذا الشكل:

N	C	S	V	D
O	A	Û	I	O
T	P	R	R	C
A	L		A	E
D	E		T	
E			E	

لم تعد تستغرب، فأبوها قد قضى على هذا الإحساس لديها فلم يعد يفاجئها شيء في الحياة. أحست بحركة في داخل البيت، وبسرعة البرق أخفت الورقة وحذفت تلك الملفات المخفية، وفعلًا لم تمض لحظات حتى اقتحم عليهم رجلان مسلحان المكتب. أبدت حنين خوفها منهما، وارتعدت فرائص عمر فعلًا عندما رآهما، فهو يعرف أن هؤلاء غالبًا هم نفسهم الذين كانوا يسعون وراء صديقه أسعد.

قال أحدهما بلهجة عربية متقنة، لا توحي بها ملامحه:

- لو سمحتما ودون عنف أريد اللابتوب.

قالها وهو يوجه إليهما المسدس مباشرة وكأنما أراد أن يرعبهما بذلك.

ناولته حنين اللابتوب وهي تتصنع هيئة الخائف المستسلم تصنعًا يليق بممثل.

وما إن تناول الرجل اللابتوب حتى خرج رفقة صاحبه من الدار بسرعة البرق إلى المطار فقد جُهِّزَت طائرة السفير الشخصية لرجوعه إلى أمريكا.

انطلقت حنين يتبعها عمر لا يدري ما تصنع به هذا الفتاة، إلى مخفر الشرطة للتبليغ عن السرقة وتسجيل أوصاف السارق.

لقد لامها عمر بأن ليس مثل هؤلاء من تُبلَّغ عنهم الشرطة! لكنها ردت عليه بأن هذا جزء من الخطة.

وعندها جن عمر، فهو عندما كان صديقه حيًّا كان يجننه بخططه تلك ويقوده كالأعمى وراءه لا يفهم شيئًا، وها هو الآن يرى ابنته نسخة كربونية منه، فعلًا من شابهت أباها فما ظلمت.

ونعود بالقارئ إلى وقت سابق عندما كان حنين وعمر في رحلتهما للعودة فنقول بأن العميل جورج أمر عناصره بدخول بيت حنين وزرع أجهزة تنصت لمعرفة ما حدث معهما في رحلتهما، وفعلًا دخل العناصر البيت باحترافية قَلَّت مثيلاتها، وزرعوا أجهزة تنصت صوتية عالية الدقة بحجم حبة أرز. وهكذا عرفوا عندما عادت حنين بأنهم استطاعوا فك شيفرة اللابتوب. ثم أمرهم جورج بأن يدخلوا ويأخذوه دون أي عنف، فهم لا يريدون لفت انتباه أي أحد وبالأخص أجهزة الاستخبارات الأخرى التي سترى في هذا البرنامج كنزًا وفرصة لا تعوض.

وقد أدركت حنين هذه الخطة، لأنها الوحيدة المرجحة لمعرفتهم بفك شيفرة اللابتوب، ولأنها رأت بعض الكتب قد زحزحت في مكتبة أبيها، إضافة إلى السجادة الصغيرة الموضوعة على عتبة الباب، فعادت إلى المنزل بعد إبلاغها عن السرقة المسلحة، وقد اتفقت مع عمر بأن يمثلوا دور المفجوع وفاقد الأمل على خسارتهم اللابتوب والإتيان على ذكر إبلاغ مخفر الشرطة، لأن حنين كانت متأكدة من أن أباها لم يخفي البرنامج في اللابتوب، فتلك الملفات على سطح المكتب لم تكن لتوجد عبثًا، وإنما كانت هذه كلمات مشفرة باللغات الخمسة التي يعرفها أبوها، وهي كالآتي: doce تعني التعليم باللاتينية وهي ترمز إلى «شيفرة» إن غيرنا ترتيبها لتصبح code.

s û r تعني متأكد بالفرنسية، وهي ترمز إلى «على» إن غيرنا ترتيبها لتصبح sur

virate تعني الأدوار بالإيطالية وهي ترمز إلى «الحقيقة» إن غيرنا ترتيبها لتصبح verita.

Nota de تعني «ملاحظة من» بالإسبانية وهي ترمز إلى «يدل» إن غيرنا ترتيبها لتصبح denota .

caple تعني «الكبل» بالإنجليزية وهي ترمز إلى «المكان» إن غيرنا ترتيبها لتصبح place .

وبهذا تتشكل لدينا جملة «المكان يدل على الحقيقة» وكون الحاسوب كان في غرفة مزيفة في هرم خوفو فهو أيضًا مزيف.

فصعدوا إلى الدار ومثلوا دورهم أحسن تمثيل، واقتنع العميل جورج بأنه انتقم لإخفاق عميليه واستطاع الرجوع غانمًا إلى مرؤوسيه.

سألها عمر بعد أن خرجوا من البيت وركبوا في السيارة:

- وكيف عرفت بأن البيت مراقب؟
- السجادة الصغيرة على عتبة البيت قد تحركت، وبعض الكتب أيضًا كذلك.
- ولماذا لم تهربي من البيت؟
- لأن الهروب لا يعني شيئًا، سيعودون لملاحقتنا.
- ألن يعودوا لملاحقتنا إن هم وجدوا اللابتوب فارغًا بدون البرنامج؟
- ومن قال إنه ليس هنالك برنامج فيه.

نظر إليها، وهو لا يعرف ما يقول:

- نعم برنامج ذاتي التدمير، فبمجرد أن يفتحوه ويجربوه لأول مرة سيدمر الكود نفسه.
- ومن قال لك هذا؟
- منذ أن رأيت الملفات عرفت بأن هناك خدعة، فأبي ليس بحاجة إلى حركات كهذه إن كان اللابتوب يحوي البرنامج الأصلي. فقد أرسلت الكود إلى أحد الدكاترة وقد حلَّه، وقد أبلغني بالنتيجة هذه.
- والملفات التي على سطح المكتب، بالطبع حذفتِها، فمن عرف كل هذا لن ينسى شيئًا كهذا!
- طبعًا حذفتها عندما أحسست بقدومهم، بعد أن نسختها على ورقة -تلك التي كنت أعمل عليها في أثناء قيادتك إلى المخفر- فالأعمدة الخمسة تشير بوضوح إلى اللغات الخمسة التي يجيدها أبي، فما كان بي إلا أن ترجمتها لأجدها لا تعني شيئًا مترابطًا، وإن كان هناك بعض الكلمات التي تشير إلى أشياء سببت لي لَبْسًا. أحدها كان «ملاحظة من» فقد ظننت أن أبي يشير إلى ملاحظة ما.
- وكيف اكتشفتِ أخيرًا أنها ليست كذلك؟

- هل تعلم أن أبي بدأ يكرر نفسه قليلًا في استخدام الشيفرات، فهو فعلًا مهووس بالجناس التصحيفي، فكل الشيفرات التي تركها كانت على هذا النسق، ولم يكن صعبًا عليَّ أن أعيد ترتيبها لتعني شيئًا آخر، وهو ما رأيت.
- وأين البرنامج الأصلي إذًن؟
- هذا ما لم أحط به علمًا إلى الآن.
- وما هي الخيارات المتاحة؟
- بالطبع ليس هاتفه وليس حاسوبه الشخصي!
- لماذا؟ لأنه أول ما سيُشك فيه، ألم تر أنهم عندما قتلوه لم يأخذوا الهاتف منه، والآن لم يطلبوا مني حاسوبه الشخصي، أبي من المستحيل أن يفعل خطوة متوقعة كهذه.
- ما الذي تبقّى إذًن، إن لم يكن حاسوبه الشخصي أو هاتفه؟
- لا أدري، سأفكر قليلًا..

راحت حنين تفكر كأنها والدها، فسألت نفسها «ما هو المكان الذي كان أبي ليبحث عنه ليضع فيه سره وبرنامجه؟»، وأيقنت بأن أباها لم يكن أبدًا ليأمن أن يضع سره وجهده الكبير في يد غير يده، ولن يضعه إلا في مكان يراه كل يوم. فلا بد أن يكون في مكتبه، الذي لم يكن يجلس إلا فيه.

صرخت من هول المفاجأة:

- عد إلى البيت!

فقفل راجعًا إلى البيت.

في المكتب ظلت تبحث بين الرفوف وخلفها عن أي جهاز إلكتروني. فتحت الأدراج وجربت كل الأجهزة التخزينية من دون جدوى. وقفت هكذا حائرة في منتصف الغرفة وهي تحرك عينيها في محجريهما، وإلى جانبها يقف عمر بلا حراك. وعندما وقعت عينها على اللوحة التي تقع فوق الكرسي الذي كان أبوها يجلس عليه، تذكرت قصة هذه اللوحة وأن أباها أحضرها مؤخرًا ورسمها بيده، فارتابت بأمرها، وشكّتْ في حقيقة أنها مجرد أرقام لا معنى لها، فأبوها ليس من هذا النوع. أمسكت باللوحة وأنزلتها من الحائط. تمعّنت في الأرقام، وراجعتها في ذاكرتها. هذه ليست أرقامًا سعيدة وليست أرقامًا نرجسية، ولا حدودَ من حدود متتالية فيبوناتشي، وليست أعدادًا مثالية، ولا أعداد مونشهاوزن. تذكرت طريقة علمها إياها أبوها في حل الأرقام وتشفيرها بطريقة بسيطة جدًّا عندما كانت صغيرة؛ فأمسكت بهاتفها وفتحت لوحة الأرقام في الهاتف، وراحت تبدل الرقم بالأحرف التي تتبع لهذا الرقم وكانت الأرقام هي كالآتي: 3818221327AR.

فعرفت أن الأحرف عربية برمزArِ ، ومن ثم فإن قراءة الأرقام ستكون من اليمين إلى اليسار.

7 يقابل الأحرف (ن هـ وي)، والرقم بعده هو 2 فإنه يشير إلى الحرف الثاني هاء.

و3 يقابل الأحرف (ا ء)، والرقم بعده هو 1 فإنه يشير إلى الحرف الأول ألف.

ورقم 2 يقابل الأحرف (ب ت ة ث) والرقم بعده هو 2 فإنه يشير إلى الحرف الثاني تاء.

و8 كان يقابل الأحرف (ف ق ك ل م) والرقم بعده هو 1 فإنه يشير إلى الحرف الأول فاء.

وأخيرًا 8 كان يقابل الأحرف (ف ق ك ل م) والرقم بعده هو 3 فإنه يشير إلى الحرف الثالث كاف،

وهذه الأحرف تشكل كلمة «هاتفك».

خرجت دون أن تهمس بحرف لا هي ولا الدكتور خوفًا من أن يسمع أحد ما يقولانه، وعندما خرجا شرحت حنين للدكتور كيف استطاعت حل لغز اللوحة.

أعطت حنين هاتفها للدكتور مصطفى صديق أبيها في علم البرمجيات، فبحث فيه عن الكود فوجده وحاول باستخدامه اختراق شبكة الـ CIA، فنجح بتحميل بيانات كثيرة وأرسلت حنين هذه البيانات إلى أغلب الصحف المحلية والعالمية.

أمريكا، واشنطن

دخل العميل جورج إلى مبنى الاستخبارات بعد أن اجتاز الإجراءات الأمنية المعتادة والمقيتة. أعطى الحاسوب للقسم الفني، ليعملوا عليه، وخرج إلى مديره يبشره بانتصاره في هذه المهمة، وكم كانت سعادة المدير أيضًا، وأمل كلاهما في الترفيع من الجهات العليا عندما يعلمون بانتصارهم وحيازتهم لهذا السلاح الذي سيجعلهم على اطلاع على جميع حركات أعدائهم ومتقدمين عليهم بخطوة دائمًا إن لم يكن خطوات.

وفي حين كانوا يتناقشون جاءه خبير القسم التقني ليطلعه على عمل الكود، ويجربه على نظام دفاع أمني وهمي. وعندما همَّ الخبير التقني بتشغيل البرنامج، فإذا بالحاسوب يعيد إقلاع نفسه، وبعد أن استقر سطح المكتب لم يجد أحد البرنامج. جن جنون الخبير التقني، وراح يبحث كالمخبول كمن فقد ابنه في شوارع نيويورك الواسعة عن ذلك البرنامج، ولم يجده، وأقسم للمدير أنه لا يعرف ما يحدث فهو جربه منذ لحظات وكان يعمل بكفاءة مُثلى، لكن الآن هناك ما حدث وهو غير قادر على استيعابه.

وفي أثناء تلك الزوبعة التي خلقها فقدان البرنامج، رن هاتف المدير، لم يكن ليجيب لولا أن الرقم الذي ظهر على الهاتف لا يمكن أن يترك بدون رد؛ فها هو الرئيس يتصل به. فعلم أن مصيبة جديدة قادمة في طريقها إليه.

- نعم سيدي!

- أيها الأحمق، لقد فُضِحنا في الجرائد، أصبحت أكثر وثائقنا سرية بين يدي العامة يقرأها الصغير قبل الكبير. ألم أكلفك بإحضار هذا البرنامج اللعين؟!
- سيدي نحن أحضرناه، وها هو التقني يجربه بين يدي.
- إذن، فإنك إما أن تكون قد خُدِعْتَ أو وصل إليه أحد قبلك أيها الغبي، وفي الحالتين لم يعد ينفعنا شيء سوى أن نقلل من خسائرنا التي أظنها ستكون أكبر خسارة لنا طوال فترة تأسيس هذه المؤسسة.
- سيدي..

ولكنه لم يسمع مجيبًا لكلماته، فقد كان الطرف الآخر قد أغلق الهاتف.

أمر التقني أن يحل المشكلة؛ لكن التقني قال بصوت يرتجف:

- أخاف يا سيدي أنه فات الأوان!
- ماذا تقصد ب «فات الأوان»؟
- إن البرنامج يستحيل أن يكون هنا.

صرخ في وجهه بكل ما أوتي من حَنَقٍ يطرده من المكتب، وأُمِر جورج بأن يبدأ بتشكيل فريق لمكافحة كل الأخبار التي تنشر أي شيء فيما يتعلق بوثائقهم السرية.

سورية، دمشق

عادت حنين إلى بيتها، ودخلت مكتب أبيها. انهارت على الكرسي وأرخت لعينيها العنان فراحت تبكي أباها...

وبينما هي على هذه الحالة، اتصل بها الدكتور مصطفى وقال لها:

- نسيت أن أخبرك بأن في الهاتف نصًّا مخبّأً إلى جوار الشيفرة.

حاولت إخفاء صوت البكاء من صوتها ما أمكنها إلى ذلك سبيل، وأعقبت:

- حسنًا سأطلع عليه، ولكن ماذا فعلت بالبرنامج؟
- فعلت كما طلبتِ، فقد نشرته على جميع مواقع الإنترنت.
- وحسنًا فعلت.

أنهت المكالمة وهي تتحرق شوقًا لقراءة ما كتبه والدها. فتحت الملف وبدأت القراءة:

«يا صديقتي، الآن وفي كل الأحوال سأناديك بهذا اللقب، ليس لشيء سوى أنك أحببته، ولا شيء في الدنيا أقرب إلى قلبي منك إلا الشيء الذي يسعدك. لقد كنت لي كل شيء، ابنةً وأختًا وأمًّا، فبعد أن فقدنا أمك، ملأت أنت ذلك الفراغ الذي خلفته وراء موتها، فكنت أنت من يواسيني لا أنا من أواسيك، وقد اعتنيت بك عناية أراها الآن تتجلى فيك. أما وإنك تقرئين هذا، فاسمحي لي أن أعزيك وأواسيك على فقداني، يا صديقتي؛ العلم ليس بالشيء السهل، وقد دفعت ثمن علمي، بالأخص وأنا لم أرضخ لطلباتهم، وإلا فإنك قد كنت ترينني إلى جانبك أعيش حياةً مترفة بل ومفرطة بالترف، لكني أقولك لك، ذلك لم يكن ليصبح عيشا، فلم أكن لأحيا وقد طعنت أمتي، ولم تكوني أنت عندها فخورة بأبيك.

أما وإني سأوضح لك ما التبس عليك فهمه فيما سأصير إليه، إني لأعرف أنهم يراقبونني، وأنهم يخافون أن أنتهي من برنامجي وأبيعه لغيرهم من الأجهزة المخابراتية، ولكني لم أكن أريد بيعه لأحد، وعندما عرفت أني تحت أعينهم، عجلت في عملي، لأني خفت من أن أُقتل قبل أن أنهي ما ابتدأته، وكان تشفيري للبرنامج وإخفاؤه يسير جنبًا إلى جنب مع تقدمي في البرنامج، وقد وضعت خطة محكمة، فتسلحت لأدافع عن نفسي وعنك، ووشمت نفسي، ورسمت لوحة الأرقام تلك التي هتكتِ سترها الآن بمعرفتك لمعناها، وعقدت العزم على وضع سري المزيف في الهرم الكبير، قد تسألين لماذا؟ أولًا لأني عرفت بأنهم سيلاحقونك إن بدر منك أي شيء يدل على أنك بدأت في متابعة سري، لذلك أردت أن أوهمك وإياهم، وها قد انطلى عليهم، ومن ثم فإني اخترت الهرم على التحديد، لأنه كان -وما زال- يعجز العلماء عن فهمه، وما زال شاهدًا كبيرًا شامخًا على براعتنا واتقاد عقولنا، فأردت أن يعجزهم الهرم كما أعجزهم في سابق أوانه، أما عن سؤالك لماذا لم أهرب، فإني لا أزيد على مقولة سيدنا عمر بن الخطاب (نَفِرُّ من قدر الله إلى قدر الله).

وفي حفل تخرجك، كنتُ قد انتهيت من مشروعي، فأعطيتك الهاتف هديةً، تتضمن أهم أعمالي، وربما أخطرها، لأني لا أجد من آمَنُهُ عليه أفضل منك، وقد كنت على وشك استخدام البرنامج قبل أن يصلوا إلي، لكن عميلًا للمخابرات الروسية، قد جاء وفاوضني على بيع هذا البرنامج، لكني رفضت، وأحسست بأن ساعة المنية قد دنت، فعندما سيعلم الأمريكان بأن الروس يسعون في السبق، فهم على الأقل سيتخلصون مني، لكي يحموا أنفسهم من أن يقع برنامج كهذا في أيد غير أيديهم، ولذا كتبت لك هذا وسأرسله إلى هاتفك دون أن تشعرين.

وإنه ليعزيني أنني أمتلك ابنة مثلك، وإنه لأجمل عزاء...

إلى اللقاء يا صديقتي... صديقك».

القصة التاسعة: عناق

تأليف: أماني الجليلاتي

الدولة: سوريا

عناق

هذا صباحٌ جديد، دجاجاتُ سلمى تنقرُ الدرجَ وَتثِبُ عليهِ في ضوضاءَ رتيبة، تقفزُ درجتين أو ثلاث؛ ربما أوهمتها فسحةُ الدارِ المكشوفةُ للسماءِ فحسِبتْ أنها تطير، الدنيا صيفٌ نهايةَ شهر آب، لكنَّ نسمةً باردةً سرتْ في المكان، أحيانا يبردُ الجو قبيل طلوع الشمس، تناهتْ إلى أذنها أصواتُ ديكةٍ بعيدة، تصيحُ متجاوبةً كأنما تتنافسُ مزهوة، أما ديكها النحاسيُّ فكسلان، يصيحُ بين حين وآخر بصوتِ غرابٍ حزين، فقد شربَ من بركةِ نفطٍ صغيرة صنعتها عفواً على الأرض حينما كانت تملأ مصباح الزيت، ومنذ ذلك الوقت صار بصوتٍ متقطع و همةٍ خائرة، يتهادى في مشيته كديكٍ مغرور حدَّ الثمالة!

مشتْ في جسدها رعشةٌ جديدة، فشدت عليها ملاءة السرير إذ ما كان الحرُّ ليتركها تتغطى عند النوم، وخُيّلَ إليها أن السماء أرسلتْ لها خيط أملٍ بعد أن سمعتها بالأمس؛ حينما طلعت السطح وحيدةً لما نام الجميع، وأسندتْ ظهرها الرطب بعرق الصيف إلى خزانٍ صدئ قديم أجّلوا التخلصَ منه حتى نسوه، كما هي منسيةٌ في هذا البيت منذ طلعت من المدرسة من سنوات كثيرة وتفرّغت لخدمة البيت، راودها شعورٌ بأنها شيءٌ مهمل، طالعتْ وجهَ الليل الحالك تلتمعُ فيه نجومٌ صغيرةٌ كثيرة، شعرتْ أنه يراها، قفزتْ في خاطرها ذكرياتُ المدرسة، حينما كانت طفلة في درسِ التعبير، وكانت إذ ذاك كما كل الأطفال تقحمُ القمر والنجوم في كل شأن، فلا يَبتدئُ موضوعٌ بغيرهم أو ينتهي، ولكنها الآن وهي تستقبل الليلَ فلا تجدُ سواه؛ لا تراه يلهمها من أين تبدأ، ازدحمتْ في صدرها مشاعرُ غزيرة، وكتمتْ كفُّها أنّةً تمردتْ على السؤال الضائع منها.

ترى لو قُدِّرَ أن لهذا السكون أذنانِ تبسطان سمعهما للحيارى كل ليل فما كانت لتقول!، إن ثمّةَ أشياءَ كثيرة لاريب تودُّ لو تبوح بها، لكنها عرفت الآن أنها جاهلةٌ حقاً، فهي لا تعرفُ حتى نفسها، بل ولا تقدِّرها وإلا لكانت سألتها عمّا يؤلمها كلما أنّت لها وشكتْ.

يا ليلُ أنا حزينةٌ مرتين؛ الثانيةُ أني لا أجيد أن أبكي بين يديك، والأولى تلك التي عرفتُ للتو أني لا أعرفها، سأحكي لك قصتي، وأنت لاشك تمتدُ لتغطي العالمَ بأسره، وترهف سمعك لأنّات الحزانى وتكتبُ أسئلةَ الحائرين، وتطّلعُ على سعاداتٍ كثيرة، فهل لك إذا حكيتُ لك قصتي؛ فصادفتْ نجمةً بيضاءَ في قلبكَ الأسود فرقَّ لي أن ترمي لي سعادةً قديمةً منسية شبعَ منها أهلها ونسوها وحيدة، -فإني أعيذك باللهِ أن تسرقَ لي بسمةً مورقةً على شفةٍ لأنالها، لكني كما رأيتُ الناسَ حولي، بعضهم ينعمُ بأصنافٍ من السعادة وأنواع، فلا يلتفتُ إليها، وإن واحدةً منها كانت قادرةً على أن تسعد حزينةً مثلي.

سكتت سلمى في حيرة، وتمشى في جبينها ارتباك خجول، فقد شعرت أن الليلَ أرخى لها انتباهه، ففركتْ أصابعُها حاجبيها المنعقدين تستعجلُ ذهنها المُجهد.

أنا لا أعرفُ إن كنتَ تسمعني، بل لاشكَّ أنك لا تفعل، لكنك قد تشعرُ بي كما تشعرُ بي دجاجاتي كأني دجاجة كبيرة، وكما أشعرُ بالديك كيفَ كان يجربُ كلَّ يومٍ أن يصيح فلا يقدر، ثم نسيَ الصياح وصار يعوي فحسبَ كأنهُ استغنى بعرض حاله عن الشكوى.

وأنا الآن سأستعير صوتهُ المجروح، لأحكي لك عني، لعلك تجدُ أين يختبئُ حزني، لأصلَ إليه وأتصالحَ معه، فأنا أعتذر دوماً لكل من يخاصمني، ولو ظلماً، فلعلي أتعرفُ عليه وأعتذر إليه فيعذرني.

قد أبدو لك ساذجةً غبية، لكني أظن أن ما من مزيةٍ أشبهَ بعيبٍ من حدة الفهم!؛ وتلتبسُ أكثر إن اقترنت برحمة، أما إذا زادت عليهما كراهةُ التعالي فلا يكاد يعرفها إلا من جمع الثلاثة؛ فكيفَ إذا كان ذلكَ كله في ضمير امرأة!

إني غير مهتمةٍ بحربِ التميز، بل كثيراً ما أنشغلُ بتحري الضعفِ عن القوة، لكنَّ الناس لا تتوسمُ في امرأة فضيلةً قدرَ ما تتوقع منها العجز، فكيفَ إذا اقترنت بها ميزاتٌ تشتبهُ بالعيوب!، وكيفَ إذا كانت بسيطةً جاهلةً كدجاجة!

وإني الآن وأنا تساءلني الحياةُ آخرَ خيوطها فلا أودُّ أن أفلته؛ يكاد يخونني الفهم والرحمة والتواضع. إني بشرٌ أيضاً، وإن معرفةَ النقائصِ لا تلغيها، بل ربما إذا انكشفتْ لك عيوبك فرحتها؛ سَمُنَتْ وقرَّتْ، وإنهُ لا ألأم من عيبٍ سمينٍ لا يتحوّل.

أترى هذا الضيعةَ التي تلفها بجلبابك الواسع!، إني أودُّ لو أتركها وأذهب، لكن إلى أين!، إن الناس متشابهون، وإنما نظنهم مختلفين لاختلاف ظروفهم، فأنى ذهبت ستخونني نفسي لأجدني جاهلةً بسيطةً كدجاجة.

أترى هذا الدرب المتلوّي تحتك كحيةٍ تقسمُ ضيعتنا نصفين؟!، أعرفُ هذا الطريق، سرتُ عليهِ منذ ابتدأتُ الحياة؛ أو ابتدأتني؛ فأنا لم يكن لي من الخيار شيء، فتحتُ جفنيّ لأسيرَ دربي هذا، كلَّ يوم، أسرعُ أحياناً لأنتهي أعجلَ، وأخرى أقولُ لا بأس لو انتهيتُ عند الظهر فأبطِئ، الشمسُ والمطر والتراب وحتى الحجارة كلهم رفاقي؛ جمعنا الدرب لا الود.

لكني بعد أن انسربتْ سنوات عمري من قبضتي انتبهتُ أني كبرت، كبرتُ وحدي هنا مع دجاجاتي، ومع فسحة الدار ودالية العنب وشجرة الليمون التي تلاصق الجدار حتى التحمتْ فيه بعضُ أغصانها لما رممناه، فصارت كأنها تحمله أو يحملها، لا أشعرُ أنها تعانقه، فلا يحب الشجرُ الاسمنت، و أحسبُ أن الاسمنت بليد الشعور لا يحبُ أو يكره، ولا يشتاق، أما أنا وإن جعلني الصبرُ والغفرانُ والتواضع بليدةً كجدار؛ لكني أشتاق كثيراً، وأبكي كل ليلة، وأحياناً و أنا أرافق الحمار المسنّ على الدرب ليحمل الأغصان اليابسة التي أخبئها للشتاء، وأرقُّ له أنه ينفقُ ما بقي من عمره على هذا الدرب، يروح ويغدو عليه لا غير، وربما تعلّق به الصغار فأحملهم عليه، وهو يهز رأسه في برودةٍ بليدة غيرَ فرحٍ بهم ولا عابئ، فأمسح جبينه وأنا أفكر في شبه وهم أني أراضيه، حتى نصل أطراف التلة العالية فتنبحنا كلابُ التلال، لكني إذا سرت والحمار وحدنا لا ينبحنا كلبٌ واحد، ولا ينظرون إلينا بأعينهم السوداء الكبيرة التي أشعرُ أن دموعاً لزجةً تختبئ فيها، ربما اعتادوا علينا مثلَ الشمس والهواء والغبار، كل يوم نروح

ونجيء وذهني يسبحُ في المدى البعيد أنظرُ ولا أنتبهُ، وقد أبكي، والحمارُ الكبيرُ شاخَ على هذا الدرب وهو يهز رأسهُ في بلادةٍ باردة، نادراً ما ينهقُ فأشعرُ أن فكرةً ما عَرَضَتْ على ذهنهِ الذي يبدو لي فارغاً.

أما أنا تغلي الأفكارُ في رأسي حتى ما عدت أقدر أن أتبينها، سوى أنها تجعلني أحزنَ كل يوم، لكني الآن وأنا أبوحُ لكَ بنصفِ حكايتي الآخر -التي لا تعرفُ منها غيرَ بكائي مساءً على وسادةٍ رقيقة لا أجدُ رغبةً في إعادة حشوها و لا داعٍ- أستمعُ معك إلى نفسي، فأجدني مملةً كجدةٍ غبية غلبها النعاس وأنستها الأيامُ الطويلة التي عاشتها كيفَ تطرقُ أبواب الخيال، فلا تقدر أن تحكي حكايةً حلوةً فيغفو الحفيدُ وهو سارحٌ فيها، كثيراً ما يظنُّ الناس أن الملل يجلب النعاس، إنهم لا يدركون أن الملل يدفعك للهرب، والنوم لا يتأتى للهاربين إلا بعد طول عناء.

وأنا مالَّةٌ لكني لم أهرب بعد، فأنا طوال حياتي التي عاشتني لم أتعلم كيف تُفتحُ أبواب الخيال، ولا أعرفُ أن أطرقها، أنا موغلةٌ في الحلم، وإن من تخدر به لا يكادُ يلتذُ بالخيال، وإن الأحلامَ سهلةٌ شهية تراودُ كل حزين، أما الخيالُ فصعب كدرسِ الحساب.

مالكَ ولأحزاني وثرثرات النساء!، لكن أتعرفُ أني لا أجيدُ الثرثرةَ كذلك!، وأشعرُ بالنقصِ مثلَ ديكٍ لا يصيح، إن الكلامَ يحتاجُ دربةً أيضاً، أما أنا فتنساني النساء في المناسبات، كأني شبحٌ حاضرٌ، وأعقب أحياناً على الحديث فلا يُلتفت إلي، وتختلجُ الحروف على شفتي وتختلط المفردات.

لا أحبُّ اجتماعاتِ النساء، إنهن يكشفن ضعفي بنصف نظرة، حينما تنظر إحداهن باستخفافٍ من طرف عينها، فتخترقني كأنها قرأتني وعرفتْ أني خاويةٌ إلا من بعضِ أحلامٍ حزينة.

أما الرجال فيكذبونَ علي، أو أني أدفعهم إلى الكذب، مثلما يلقن طفلٌ أمه بعض تفاصيلَ الحكاية فتجيبه إلى ما أراد.

حينما استندتُ من سنوات بعيدة إلى ذراعه، على سفح الرابية، صبيةً حالمة، أرتشفُ الحياة من عينيه والنور والأمنيات، أستقبلُ الضيعةَ الغافية، والشمس تشد خيوطها مائلة على المشهد، فتبدو كأوتار قيثارة أو ربابة، أنا لا أحفظ أسماء تلك الآلات، لكنها بدت لي سعيدةً مبتهجة، ونسمت في صدري أفراحٌ غامرة لذيذة، لا أعرفُ أن أصلَ إليها لأصفها، أختزنها كشعورٍ حيٍ زكي، ليس من وصفه سوى الأسماء لا غير، لقد كان ذلك منذ مدة بعيدة جداً، بعد أن خطبني «صالح» من أبي، لازلتُ أذكرُ فرحتي حينما سألني كاتبُ المحكمة إن كنتُ أوافق، وغضب مني أبي أن أجبته على عجل و قلتُ «موافقة»، وفي المساء نهرتني أمي وقالت إن أبي كان يرجو لو صمتُّ في خجل كفتاةٍ حيية!، لكن أبي لم يفاتحني في الأمر، ولا عبسَ في وجهي.

وجرت الأيامُ بعدها حلوة طرية ندية، كأنما ارتشفتُ ماءً قراحاً، بل أعبُ منه، فيسري هنيئاً بارداً فأرتوي، لم أكن أحب اسم صالح من قبل، فهو اسم نصف رجال ضيعتنا!، لكن بعد أن عرفت «صالحي» صرتُ أستشعر أنه اسم نبيّ.

وفي يوم لم يكن يبدو أنه يخبئ لي النهاية، نهايةَ كل شيء، دق أبو صالح بابنا في رفق، وقال بصوت يابسٍ ضعيف «يا سلمى: صالح مات!، مات يا سلمى، زلقت رجله وسقط في الوادي».

دارت بي الأرض، لم أبكِ، شعرتُ أني أحتاج إن أجري إلى صالح، مثل كل يوم، لأسأله ما أفعل، لكن أين صالح!، لقد مات، لم أعرف معنى الموت قبله، وإن مات لي أحبابٌ من سنوات، لكن موتَ صالح كان مُراً يستصعب على الشرح، تماماً كما كان حبه عصياً عليه.

ومذ مات صالح لم تخفق في صدري بهجة هدارة، لقد طُويتْ صفحةُ المفاجآت من حياتي، رغم أنها تتابعتْ علي قويةً عاصفة، لم يعد شيءٌ يصدمني، ولا حتى يفاجئني، إني أزدادُ حزناً فقط، للحزنِ قدرةٌ كبيرة على الاستمرار والازدياد، بينما يقفُ الفرحُ القديمُ بعيداً، ينظرُ إلينا بعتب، يقفُ فيستحيلُ حزناً آخرَ أعمق.

ليتَ الأفراحَ القديمة تموتُ حين تفارقنا، لكنها تقفُ بعيداً كروحٍ مُستحضرة حتى نتذكر على الدوام أنها فُقدتْ.

وماذا بعد!، أنا لا أعرفُ ما صنعَ حياتي وأعطاها ملامحها، تبرق في ذهني بسمته هادئةً راضية، تلمع وتختفي، ثم تلمع، ثم تختفي، تنبسط شفتاه في رفق وثقة، ويخفق لها قلبي، أين صالحُ الآن!، آه يا صالح، ليتني ما عرفتك ولا طرقت بابنا.

لقد تمكَّنتَ من قلبي حتى ملكته، لم تترك لي منه شيئاً، ولما رحت كنتَ تجلسُ في صدري تبسمُ وتنبسط شفتاكَ في رفق وثقة، وقد تضحك بصوت أحياناً، لا يبدو لي سوى ابتسامتك الحلوة، وقلبي يخفقُ لها بقوةٍ كأنما تبسمُ لي الآن، غير أن خفقتي القديمة كانت صافية كصوت ضحكتك، أما الآن فهي مقرونة بحزنٍ عميق ينسلُّ في صدري كسهم يصنعُ مكانه في لحمي في بطءٍ أو نَزَق حسبما تسري ضحكته في صدري.

أيها الليل!، هل تعرفُ عما أحدثك!، هل يعي ظلامك الممتد سواديَ المكبوت في صدري، كيف سيفهم سديمٌ أسودُ مثلك مشاعرَ اللحم والروح، ألك روحٌ مثلما لي!، أما اللحمُ فليس إلا سجنها، هو كما لو أن اتساعك الهائل حُصر في كفٍ صغيرةٍ عابثة، حتى تصطف ذراتك الحرة مقيدةً مغلولة فتكونَ حينها لحماً!، ربما لو قُدِّرَ للحمي المطعون بالآلام أن ينتشر لكنتُ ليلاً أوسعَ منك وأكبر!

ولكان صالح النهار، ولعشتُ عمري أركض لأصلَ إليه حتى إذا ما ذهبتُ جاء، وإذا ما ذهبَ أتيت. أنى لي أن آتيه، وهو صافٍ باسمٌ كصبحٍ رقيق يختبئ عني بالفجر، أجرَّبتَ أن يسري الفجر فيك؟!، أن يغطيك ويمازجك، بينما روحك تشتاق للصبح الصافي الذي لا يطلع إلا بعد أن تذوب.

ماذا لو قدرتَ أن تتعلق في الفجر مرةً، لتلثم وجه النهار حينما يسري هو الآخر فوق الفجر، أتمنحُ الحياةُ ليلاً متعباً مثلي فرصةً ليخالف قوانين الكون، ليلثم نهاره المتحجب عنه بالفجر!

ماذا كان صار يا صالحُ لو زلقت قدمانا معاً!، لا شكَّ أن أرواحنا كانت ستنعم هانئةً إلى بعضها في هذا الوقت الذي أمضيه أجري وراء خيال بسمتك الواثقة الرشيقة. أتعرفُ يا صالحُ أنك مذ مت تتابع الخطّابُ إليّ؟!، كأنهم عرفوا بصورةٍ ما أن جزء الحب والشغف والأمنيات في صدري قد مات معك، فأتوا مشحونين بروح التحدي، لكنهم عادوا خائبين جميعاً.

ربما لو لم أعرفك لسعدتُ كما تسعد كل فتاة بزوج جديد، لكنكَ رحتَ وأخذتني مني، أخذت خفقة قلبي وفرحته، وكل أحلامي، وشعري الذي كان يتطلع أن ينبسط على ذراعك الطاهرة يلثم منها حتى المسام، وأصابعك السمراء تعبث فيه في دعة وحب. أتعلم أن عينيّ لاتزال تختزن نظرتك البريئة، كأنما طبعت عيناك في عينيّ، فأنظر بهما وأرى؟! أتدري يا صالحُ أنك كنتَ تزورني في الأحلام بوجهِ أبي؟!، حتى إذا متَّ استعدتَ وجهك الوضيء، وكفيك وبسمتك، فالأب لا يخلّف وراءه طفلةً تبكيه ويموت، كان عليك أن تأخذني معك. أتعرفُ يا صالحُ أن أبي مات بعدك كذلك؟! وأمي وأخي عثمان، وأقاربُ كثر، وأبوك وعمك؟! أما أمك كبيرة يواعدها الموتُ كلَّ ليلةٍ ويخلف، ولكن أتعلم أني قد قاربتُ السبعين؟!، لكني لم أزل في عالقةً في السنة التي مت فيها، ولا تزال أنت شابي الوسيم تبسم في صدري فأبكي.

أيقدر الحبُّ أن يستحيل حزناً بهذا القدر!، كنتُ أظنُّ الحب سعادة إضافية مثل قطعة حلوى، تأتيك فتسعد، تفقدها فتسعد بغيرها، لكنك لم تكن حلواي، لقد كنتَ أنا، لقد امتزجت بالروح حتى إذا ذهبتَ سحبتها معك.

ألا يشتاقُ نهاركَ الصافي لليلي؟!، أليس ثمّةَ وقت يقفزُ فيه الليلُ فوق الفجر ليعتنقَ النهارَ، ليذوب فيه، ليبكي على كتفه مثلما تذرف عيناي الآن؟!

ذرفت عيناها بحرقة مبهمة، فحتى سلمى لا تُحسنُ أن تصف ما تجد أو أن تبثه حتى لو لليل ساكنٍ أمين.

نزلت ببطء تتكئُ على سياج الدرج، بخطى واهنةٍ ضعيفة، يزيدها ارتجافاً بكاء متقطع مكتوم.

لم يبق في البيت أحد سواها ليسمعها لو تركت صوتها يسري، لكنها اعتادت أن تخبئ دمعتها منذ سنوات بعيدة.

اتجهت في الظلام إلى غرفتها، الدجاجات تنام أسفل الدرج أو وراءه، كان الحرُّ شديداً، استلقت على السرير وفي قلبها خفقة حزينة، فقد عرضت على ذهنها بسمته واثقة هادئة، دعت الله أن تراه في الحلم، ونامت.

في الفجر استيقظت من شدة البرد، شعرت أن قدوم البرد في الصيف، يشبه من وجه اجتماع الليل بالنهار.

وخفقت في قلبها ابتسامته مجدداً. طلعت إلى فسحة الدار، الدجاجات تحاول الطيران وهي تنظرُ إلى السماء، والديك يعوي بألم كصوتِ ناي. وقفت في أسفل الدرج والهواء الباردُ يحرك شعرها الأبيض، فينبسط كأنما تسرحه أنامل النسيم في رفق ودعة، وخُيّلَ إليها أن النهار يوشك أن يطلع بعد قليل، فرفعت صدرها لتقفز فوق الفجر وتعانق النهار.

وقفت على رؤوس قدميها وارتفعت قليلاً قليلاً، وارتسمت على شفتيها ابتسامة هادئة واثقة، وعندما طلع النهار، كان الديك الكسلان يثبُ على صدرها ممددةً على الأرض، ويحكي شيئاً ما، بينما كانت الدجاجاتُ تقفز على الدرج وتحسبُ أنها تطير.

القصة العاشرة: إلى ما لا مآل

تأليف: حسين السنبختي

الدولة: مصر

إلى ما لا مآل

ربما كلُ المساراتِ ذاتَ مآلاتٍ مُفْضِيَةٍ، وربما كلُ الازدحاماتِ ذاتَ نتائجٍ مُقْصِيةٍ، وربما ذاتَ يومٍ تستيقظُ مُجَرَّدًا مِنْ كلِ أُغْطيةٍ؛ لِتَمْضية وتَلْبية أبْيَن أُحجية.

يغرق في ظلامٍ قاتمٍ ثقيلٍ كأنه مُنغمِرٌ في قاعِ حوضٍ عميقٍ من القار الكثيف، ويَصُك سمعَه دويُ صفيرٍ غليظٍ مكتومٍ يصاحبه اهتزازٌ طفيفٌ، الهزهزة والهزيز يتزامنان ويزدادن قوةً على نحوٍ تدريجيٍ، يحس فجأةً بهواءٍ باردٍ يلفح جلده؛ فتسري على إثر ذلك برودةٌ متزايدةٌ في جسده كله، ويدفعه شعورٌ غير مُريحٍ إلى الاستيقاظ، يكابد في محاولة فتح عينيه في نفس الوقت الذي يتفاقم إحساسه بلسعات البرد وهي تتسلل وتتغلغل في أرجاء بدنه وتَصْقَعه بكيفيةٍ مريبةٍ غير مُطَمْئنَةٍ بالمرة، بالإضافة إلى الضجيج الذي ينتظم تردده ويقترب؛ فيشعر وكأن جفنيه ملتزقين بغراء، يحاول مجددًا، وبمجرد انفراجهما قليلًا يُجبرهما الضوء الذي يسطع أمامهما فجأةً على الانغلاق ثانيةً، لكن ارتعادًا وارتجاجًا يعتريان جسده حتى النخاع ويزدادان باضطرادٍ كل لحظةٍ؛ فيحمله ذلك على أن يُرغِم جفنيه على الانفكاك، فتنفتح عيناه على ضياء السماء البعيدة العالية رمادية اللون، وينفغر فوه شاهِقًا، ويتمدد منخاره مُنْفجِمًا، ويقشعر بدنه مُدرِكًا بسرعةٍ سر شعوره بالبرد الذي يجتاحه حين يروح ببصره على طول جسده ليجد نفسه عاريًا تمامًا ومُلقًى على أرضٍ باردةٍ قاسيةٍ تسبب لظهره ألمًا أحس به الآن فجأةً.

يفزع لذلك ويقوم مُنتفِضًا ومُواريًا عورته بيديه الاثنتين، ويدور بجسده يمينًا ويسارًا وببصره في كل الاتجاهات، وبعشوائيةٍ يستمر في فعل ذلك. كان همه الأول ولثوانٍ ليست بقليلةٍ هو البحث عن أعينٍ ربما تتلصص عليه وهو في هكذا عري، ثم أخذه ارتياحًا مُؤقتًا أن لا أحدَ موجودٌ حوله في هذا المكان الذي لا يعلم كيف جيء به إليه. وبمجرد أن أدرك أين هو؛ إذ به يواجه رعبًا كبيرًا حين تُميز أذناه صوت الصفير الذي أفزعه دويه المرتفع ودنا مصدره منه حتى كاد يصمه؛ حيث وجد قطارًا مُنطلِقًا تجاهه على نفس الشريط الذي يقف هو الآن ما بين قضيبيه، ويقترب منه بسرعةٍ كبيرةٍ جدًّا، واستطاع بصعوبةٍ شديدةٍ في اللحظة الأخيرة وقبل أن يدهسه مباشرةً أن يتفاداه بأعجوبةٍ؛ حيث ألقى بجسده بكل ما أوتي من قوة بعيدًا تجاه شريط القضبان المجاور حتى أحس نفسه طائرًا ثم واقعًا على ظهره على الحصى الحجرية الصغيرة المفروشة بين القضبان يصرخ ويتأوه. وبحركةٍ لا إراديةٍ بالغةِ السرعةِ ينقلب منبطحًا واضعًا يديه فوق رأسه في فزعٍ كبيرٍ ومُغْمِضًا عينيه حتى مر القطار بكامل طوله من جانبه بسرعته الجنونية وابتعد هو وصفيره في لمح البصر.. هل هو يحلم؟!، دائمًا ما يتكرر ظهور القطارات وقضبانها في الأحلام والكوابيس، كان هذا ما يتمناه وهو يفتح عينيه بعد برهة آمِلًا أن يكون في حلم أو كابوس ما على وشك أن ينجلي بعد أن يفتح عينيه، إلا أنه يتأكد من كونه واعيًا مُستيقظًا لا يحلم، لأن ما حدث للتو يُخلِّف طنينًا رهيبًا بأذنيه وارتعاشًا مُستشرِيًا ببدنه،

وتخدشاتٍ وكدماتٍ متفرقةً بجُلّ جسده، وتضربه آلامٌ مبرحةٌ كانت فائدتها الوحيدة أنها أنْسته عُريه والبرد المترتب على ذلك. كل ما حوله واقعيٌ ومحسوسٌ جدًّا للدرجة التي يستحيل معها أن يكون في حُلمٍ ما. بدأ يتساءل مُشوَشًا من إثر الصداع الذي يضرب دماغه كمطرقةٍ ثقيلةٍ في أي مأزقٍ هو! ببطءٍ شديدٍ وتألمٍ عديدٍ يقف على قدميه دون أن ينتصب بالكامل، يلتقط أنفاسه ناهجًا، يلتفت حوله بخوف وحذر، وبحركة تلقائية يخبئ عورته بكلتا يديه، ثم يجول بصره في أرجاء المكان ويحدق في امتداده مشتتًا مرة أخرى. لا أحد موجود، لكن تلك المرة يتملكه رعب كبير، يتفحص المكان الذي يقف فيه مُستجمِعًا تركيزه وقوته؛ سكةٌ حديديةٌ ممتدةٌ أمامه باستقامة على طول بصره، أو هكذا بدت له، مكونةٌ من أربعة شرائط؛ ثمانية من القضبان الفولاذية، عَدَّهم من حيث يقف من أقصى يمينه حتى يساره، والآن هو يقف في المسافة بين الشريط الثالث والشريط الرابع الأخير الذي عن يساره وإلى حيث يتحرك مُقتربًا من قضيبه الطرفي الأخير. ويرتفع سورٌ شاهق العلو إلى حد مبالغ فيه تسبب في ذهوله وانقباضه في نفس الوقت، بالإضافة إلى ألم في قفاه بسبب كدمة أوجعته وهو يثني رقبته إلى أعلى ليعاين ارتفاع السور ويتأكد مما هو موجود أعلى قمته البعيدة. يدقق النظر، إنها أسلاك ومسامير شائكة، من النوع المُجلفَن على ما يبدو، مُثبتةً هناك بالأعلى بطول سطح السور بالكامل وتتفرع أيضًا على الجانبين، ومن الأسفل يلتصق بالسور زرعاتٌ كثيفةٌ لنبات الصبار الشوكي، تشغل المسافة العرضية بين السور والقضيب الطرفي الأخير وتكاد تلامسه، وتمتد بطول السور على مد بصره.

ينظر على الجانب الآخر ليجد سورًا آخرَ على نفس الهيئة بالتمام، ينقبض قلبه باحثًا ببصره فيما وراء السور البعيد عن بناياتٍ سكنيةٍ ربما يراه أحد منها، أو يرى أحدًا فيها فيطلب المساعدة، فلا يجد أي بناياتٍ فيقول في نفسه ربما الارتفاع البالغ للسور يحجب بيوتًا أقل طولًا منه، ما الذي أتى به إلى هذا المكان؟! ولماذا هو عارٍ بلا شيءٍ يستره؟!

يعتصر ذاكرته فلا يتذكر أي شيء، ولا تذهب به ذاكرته إلى أبعد من لحظات وعيه التي سبقت استيقاظه مباشرةً، وكأن ما قبل ذلك هو اللاشيء واللاوجود في صورةٍ نقيةٍ مجردةٍ خاليةٍ من أي ملمحٍ أو تفصيلٍ، تجوب عيناه باحثةً عن خرقةٍ يستر بها عورته فلا يجد، لا أحدَ موجودٌ الآن، لكن سيكون من المريح له لو وارى عورته بشيءٍ ما، حتى إذا ما خرج من هذا المكان أو قابله أحد كان مستورًا.

يهم بالمشي دافعًا بخطواته إلى الأمام بصعوبةٍ واتقاءٍ، ويبدو وهو يسير بهكذا اختلال كأن جهازيه العضلي والعصبي قد نسيا كيفية المشي، أو كمن يخطو لأول مرةٍ بمخافةٍ وهوجٍ. تُصبح المهمة أكثر توعرًا بسبب الحصى الحجرية القاسية التي أضافت إلى مشقته تألمًا وعرجًا. يجاهد المشي مُنتقيًا العوارض الخرسانية التي تربط ما بين القضيبين وتظهر أحيانًا غير مُغطاةٍ بالأحجار، يدوس عليها مُتقدمًا ببطءٍ وحذرٍ وهو يفتش عن أي شيءٍ يصلح لأن يكون سروالًا أو لباسًا، وفي نفس الوقت يرتقب بكل أملٍ رؤية أي بوابةِ مزلقان أو معبرٍ للمشاة والسيارات يقطع السكة الحديدية لينفذ منه إلى خارج هذين السورين. وبعد أن مشى لوقتٍ طويلٍ يتمكن منه التعب والإجهاد ويصيبه خدر في قدميه الحافيتين دون أن يجد خرقةً ودون أن يظهر كائنًا أو بيتًا من وراء السورين، فيتوقف من أجل أن يستريح ويريح قدميه ويلتقط أنفاسه، ينظر عن يساره إلى نباتات الصبار الشائكة باحثًا عن

مكانٍ خالٍ بينها بجوار السور ليجلس فيه، فيجدها كثيفةً للدرجة التي تبدو وكأنها هي التي تحاول تجاوز القضيب الطرفي للشريط الرابع، يتناهى إلى سمعه صدى صفير قطار، ينظر وراءه وقبالته بقلقٍ واضطرابٍ، يستمر صفير القطار في الوصول إلى أذنه بانتظامٍ وازديادٍ، يتملكه رعبًا فينتقل من شريطٍ إلى آخرٍ وهو يحدق إلى الخلف والأمام بسرعة محاولًا معرفة من أين يأتي الصوت أو رؤية مقدمة القطار من أجل أن يتفاداه، يظل على حركته الدائبة بين الشرائط والقضبان، والتفاتاته المرتبكة للوراء والأمام وخوفه واحتراسه الشديدين من الدهس والاصطدام حتى يلمح أخيرًا وبعيدًا مقدمة القطار، وما إن ظهرت هناك حتى وجد القطار قد قرب منه سريعًا بسبب سرعته الجنونية المخيفة، ولكنه كان قد استطاع بسبب انتقاله ما بين القضبان بمواظبةٍ واحتياطٍ أن يبتعد بوقت ليس بكبير عن مسار القطار الذي قدَّره فسارع ذاهبًا وقاصدًا أول قضيب على الجانب البعيد الأيمن حين عرف، بينما يراوح مكانه بين الشرائط أن القطار قادمٌ على الشريط الرابع المجاور للسور الأيسر حيث كان يقف، وحين يصل إلى جانب السور الأيمن يقف على القضيب الأول المجاور للسور مُبتعدًا كثيرًا عن القطار الذي يمر بسرعةٍ مُحدِثًا صخبًا ورجًّا عظيمًا، ومنعه من أن يلتصق بالسور وجود نباتات الصبار الشائكة الكثيفة التي تكاد تلامس جلده في موضعه الحالي. يقطع القطار المسافة والفراغ في غمضة عين حتى يتلاشى كأن لم يكن، بينما يستمر هو في مكانه مُتسمّرًا يعلو صدره ويهبط بسرعةٍ وقوةٍ ولا يعلم هل تلك الرجرجة التي تعتري جسده مَردها إلى أثر القطار أم إلى ضربات قلبه الذي يخفق بصوتٍ عالٍ مسموعٍ ونبضٍ سارٍ محسوسٍ في كل جسده من رأسه حتى أخمص قدميه.

على كلٍّ فقد اختفى القطار تمامًا من أمام ناظريه ويحاول أن يكرر ذلك على نفسه حتى يُهدِّأ من رَوعها واضطرابها وإن كان لا يزال يسمع صدى صفير القطار يتردد في أذنيه وكأن دهاليزهما وأنفاقهما وقنواتهما احتوت اهتزازات الصوت واحتفظت بموجاته وراحت تذبذبهم فيما بينها وبين رأسه دون خروج، ربما هذا هو أزيز أذنيه الذي يستمر حتى تلك اللحظات على نحو متقطع! لماذا إذن لا يهدأ أو يخبو ويستمر في كونه مثل صفير قطارٍ مزعجٍ أكثر ما هو طنين أُذن؟ لما يزداد ولا يقل؟ هل أصاب أذنه شيءٌ؟

من حسن حظه أنه علم الإجابة في الوقت المناسب، ومن سوئه أنه كان في الموضع غير المناسب، هل يمكن أن يكون المرء حَسن الحظ وسيّئ الحظ في آنٍ واحد؟! ربما يكون الأمر على هذا النحو إذا اعتُبِر حسن حظه يتعلق بإفلاته من ضررٍ بالغٍ جدًّا، وفي نفس الوقت لم يكن حظه جيدًا بالدرجة الكافية التي تمنعه من بعض الضرر غير البالغ جدًّا بالمقارنة. بعد أن وضع طرف سبابته على زنمة أذنه مُرجْرِجها بفتحها وإغلاقها بغرض تسليكها دون جدوى، راوده شكٌّ فالتف بجسده نصف لفةٍ فلمح بطرف عينه في فزعٍ كبيرٍ قطارًا قادمًا من خلفه بالسرعة الجنونية المعتادة على نفس الشريط الذي يقف على قضيبه الطرفي المجاور للسور الأيمن، لم يكن أمامه مُتسع من الوقت والمسافة لينجو إلا بأن يلقي بنفسه ناحية السور، وهكذا فعل.

كان الاصطدام القوي لجسده بالسور هو أهون وأبسط ما في الأمر برمته إذا ما قورن بوقوعه على نباتات الصبار الشوكية التي انغرز شوكها الشرس في جلده بقوةٍ وعمقٍ، ثم ما برح أن تكسر تاركا نباته وباقيًا في جسده كأنه ينتهز فرصة للتحرر وذلك في أثناء

تدحرجه نصف لفة من ردة فعل الارتطام بالسور، ثم سرعان ما عاثت أشواك جديدة مُنغرسةً ببطءٍ وعمقٍ وتشبثٍ في مناطق جديدة من جسده حائلةً دون استكمال تدحرجه الذي لو حدث لكان انتهى بجسده أسفل عجلات القطار القريبة جدًّا والتي تصطك مع قضبانها صارخةً ومزمجرةً بقوةٍ ورعبٍ كأنها أضراس وحشٍ جائعٍ تريد أن تمضغ هذا الجسد السائغ.

أما عنه في تلك اللحظات؛ فهو على الأرجح يظن أن صوت صراخه المرتفع جدًّا والناتج عن الآلام الباغية على جسده المرتعش والذي أدمته الأشواك وكَدَمته قساوة الارتطام بالسور، بالإضافة إلى الرعب الطاغي الذي مسه من مفاجأة القطار له ووضعه الحالي؛ لابد لهذا الصريخ بسبب تواصله وعلوه المتزايد أن يخترق السور ويُسمِع أحدًا، إن لم يُسمع الموتى أنفسهم، لم يضع احتمالية طغيان صوت القطار بصفيره وضجيجه في حسبانه وهو يفترض أنه حتمًا قد أوصل مكانه ومعاناته وفزعه إلى هؤلاء الموجودين فيما وراء السورين الشاهقين، بل لم يفكر في احتمالية قدوم قطاراتٍ أخرى وهو يظن أن شيئًا أسوأ من ذلك لا يمكن أن يحدث، وأنه من المؤكد أن التالي هو شيءٌ حسنٌ مثاليٌ. عليه أن يتوقف عن التفكير الممزوج بالعويل والألم ويقوم الآن وسريعًا بعدما ذهب القطار دون أن يَذهب عن أذنيه صفيرٌ وتشوشٌ وطنينٌ وانسدادٌ لابد أنهم سيلازمونه حتى الموت بعد كل ذلك، حسبما غلب على ظنه، عليه أن يفعل شيئًا حيال تلك الشوكات التي يحسها تغوص في لحمه مثل سن خِياط، وعليه أن يستعد لأن أحدًا لابد وأن سمع زعيقه وسيأتي ليساعده، حسبما يظن مُتفائلًا رغم ما يمر به، عليه أن ينتصب ويقف الآن وفورًا، لكن كيف سيتحرك ويفعل هذا وسط كل تلك الأشواك النافذة في لحمه، وكثافة الأخرى التي تتربص به ومُصَوَّبة تجاهه كنصل سكينٍ مدببٍ يتوعَّده بطعناتٍ وشيكةٍ! يفتح عينيه التي أجبرهما الرعب والألم على الانغلاق فيصعق؛ إن كانت إلا بضعةَ سنتيمترات فإذا هو مُساوَى بالقضيب، لقد كان أقرب إلى عجلات القطار مما كان يتصور. يتيح له قربه من القضبان التفكير في مد يديه ورجليه ناحية القضيب القريب جدا ليتسنى له الاستناد عليهما ليقف دون مزيدٍ من التحرك أو التقلب على الأشواك الغريسة أو الجديدة، وحين يفعل وتلمس يده القضيب تلسعها حرارته فيتألم ويعيد يده سريعًا، يمكن ليديه من مكانه أن تتجاوز القضيب مستندًا على ما بعدها من الحصى الحجرية ولكنها ليست بالثبات والارتفاع اللذين سيساعدانه، وهو على الأغلب لن يستطيع تجنيب يديه لمس القضيب الساخن إذا فعل؛ لذا يضطر إلى أن ينتظر على وضعه قليلًا مُختبِرًا حرارة القضيب بين الفينة والأخرى حتى يتأكد من فقدانه بعض حرارته للدرجة التي تمكنه من تحمل لمسه.

يضع يديه الآن ويحرك رجليه بدورهما ناحية القضيب ويرتكز عليهما ويرفع جسده عن الصبار والأشواك صارخًا ومُتألِمًا، ثم يلقي بجسده في منتصف الشريط الأول ويحتمل كل الآلام التي بدأت بالظهور وبالتفاقم ويقف سريعًا ومُلتفِتًا بكل ألمٍ وقلقٍ ورعبٍ في كل اتجاهٍ خائفًا من ظهور قطارٍ جديدٍ وهو الذي ما زال يسمع صفيرًا بأذنيه ولا يثق في كونه من الخارج أم من الداخل، يشعر بتعبٍ وألمٍ شديدين، ووَدّ لو يستطيع الجلوس، لكنه لا يستطيع أن يفعل ذلك؛ ليس فقط لأنه لا يأمن قدوم قطار؛ بل أيضًا بسبب انتشار الأشواك في مؤخرته وفي مناطق متفرقة من جسده حتى صار جلده كمصفاةٍ يمتلئ بالثقوب التي يتساقط من خلالها الدماء وكأن قلبه يعتصر.

حاول أن يزيل عنه الأشواك ولم يستطع أن يصل إلى جميعها، إلا تلك التي كانت غير مُنغرِزةٍ بعمقٍ وتطل برأسها خارج جلده من أمامه، وما طالته يده من خلفه، وفي كل مرةٍ كان ينتزع شوكةً كان يصرخ بقوةٍ ويتوقف لهُنَيْهةٍ حتى يخف عنه الألم ودون أن يُنسيه رعبه وقلقه الالتفات كل لحظةٍ والنظر بعيدًا أمامه وخلفه خشيةَ أن يهاجمه قطارٌ.

يستطيع الآن أن يجلس، ليس لأنه يريد ذلك ولكن قدماه لا تقوى على حمله، ويجب عليه أن يجلس من أجل أن يفكر -رغم أن جروحه تفرض عليه العكس؛ أن يفكر قبل أني يجلس- فهي لن تكون بالجلسة المريحة كما يأمل ويتمنى في ظل نزيف وتألم مؤخرته من آثار الأشواك التي انتزعها. وفي ظل برودة القضيب المعدني وإحساسه بالبرد الذي بدأ يجتاح جسده كله بسبب دمائه التي فقدها بكثرة حتى أصبحت عورته وجسده العاري لا يحتاجان إلى ستر بفضل تبقعه بتلك الطبقة البنية التي تكونت من امتزاج دمائه والتراب وكَست جُلّ جسده للدرجة التي ستُحيّر كل من يراه من بعيد وتجعله يدقق النظر ويتساءل: هل هذا الإنسان عارٍ أم يرتدي زيًّا مُمَوَّهًا؟! ولكن هل يأتي أحدٌ؟!، هل يظهر أي شخصٍ؟! يفكر في أثناء جلوسه المؤلم فاقدًا الأمل في مجيء أحد بعدما مر بعض الوقت على صراخه المُدَوّي الكبير ومُفكِرًا كيف سينجو بنفسه في المرة المقبلة ويعرف أن قطارًا ما قادمٌ من هنا أو هناك! وأي شريطٍ أو قضيبٍ عليه أن يكون بجواره استعدادًا! يتراءى له دون تفكيرٍ كبيرٍ وهو يجلس في مكانه الآن أن أنسب مَوضعٍ هو وجوده على القضيب الطرفي الأخير على أي جانبٍ؛ حيث يكون عليه فقط أن يتحرك في حال لمحه لقطارٍ آتٍ على نفس الشريط، بالطبع سيكون من الأكثر ضمانًا وأمانًا لو أنه يستطيع أن يتواجد بجانب السور مباشرةً، ولكن كيف يفعل ذلك ونباتات الصبار بأشواكها البغيضة تحتل جانب كل سورٍ دون أن تترك شبرًا واحدًا فارغًا، حتى أنها تكاد تتلامس مع القضيب الطرفي وتمتد بكثافةٍ دون انقطاع بطول السور على مد البصر كأن هذا هو موطنها التي تسكنه منذ آلاف السنين قبل وجود القطارات والسكة نفسها، وقد رأى في أثناء مشيه لمسافةٍ كبيرةٍ كثيرًا منها في بعض الأماكن مقطوعةً أو مدهوسةً بسبب تجاوزها القضيب، في محاولة منها على ما يبدو لجس النبض من أجل احتلال المكان وعبور أحد خطي الشريط، أو ربما من أجل استعادة أرضًا كانت تملكها قبل احتلال السكة الحديدية لها.

يتساءل وهو يشعر ببردٍ يتمركز في جسده عن سبب غياب الشمس في هذا المكان المُقفِر المنتشر به نباتات الصبار التي توجد دائمًا حيث سطوع الشمس.

ينظر إلى السماء باحِثًا عنها فلا يجدها ولا يتذكر أنه رآها أو شعر بحرارتها رغم أنه في النهار منذ استيقاظه وحتى الآن، فمازال لا يتذكر أي شيء ولا يتذكر حتى في أيّ شهرٍ أو فصلٍ هو، كأن كل ما قبل استيقاظه في هذا المكان فراغٌ محضٌ وعدمٌ بحتٌ، ورماديةٌ مُصمَتةٌ، وحياديةٌ مُربكةٌ، تمامًا مثل تلك السماء التي ما زال يتطلع إليها مُستغرِبًا صفاء لونها الرمادي وسكونها الغامض وخلوها المحير من أي سحابٍ أو بياضٍ أو زُرقةٍ أو طائرٍ. لو أن بمقدوره الطيران ليستكشف ما وراء هذين السورين الشاهقين المستحيل تسلقهما! يُحلّق بخياله سارحًا، ثم ما يلبث أن يفزع وينظر بسرعة عن يمينه ويساره بينما يتعجّل في الانتهاض في اضطرابٍ وانتفاضٍ فلا يجد قطارًا مُقبِلًا كما تهيأ له وأخبرته أذنه، فيهدأ ويعاود الجلوس على القضيب، ثم تأخذ ضربات قلبه المتسارعة في

الخفوت بينما يشعر بألمٍ وصداعٍ وبردٍ بازدياد متسقٍ، الآن إذن هو يعلم بعد تفكيرٍ غير عميقٍ مكانه المتاح والأكثر أمانًا، ولكن كيف سيعرف في الوقت المناسب أنَّ قطارًا قادمًا في ظل تلك السرعة الكبيرة التي رآها سابقًا وفي ظل انسداد وطنين أذنه التي ما زال يصدر منها صفيرًا حتى الآن يشبه صفير قطار.! يخالجه شعورٌ بالحيرة بينما يلتفت في انتظامٍ وتزامنٍ يمنة ويسرة. يفكر، يصل بعد بعض الوقت إلى فكرةٍ باستخدام أذنيه ربما تساعده، رغم أنهما يبدوان في غير صفه، يرتكز على يديه ويميل بجانب رأسه ناحية اليمين حتى تلامس أذنه القضيب ويُطرِق قليلًا، ثم يفعل ذلك ناحية اليسار، بهكذا رأى أنه سيتمكن من سماع الصدى الوافد من بعيد لاحتكاك العجلات بالقضبان، بالإضافة إلى أنه غالبًا ما سيحس بالاهتزاز الناتج أيضا، وأيًّا الإشارتين وصلته وسبقت الأخرى؛ فلا فِعل له إلا الفرار بعيدًا عن هذا الشريط. حسنًا الآن سيَلزَم التواجد بالقرب من أول قضيبٍ للشريط الأول بجانب السور الأيمن حيث يجلس، سيُطلِق نظره باحثًا عن ظهور قطارٍ، وسيضع أذنه على القضيب بحذرٍ كل فترةٍ قصيرةٍ، هكذا رتب خطواته الاحترازية من أجل النجاة، ومن أجل أن يخرج من هذا المكان؛ سيستمر في المُضيِ قُدُمًا حتى يصل إلى بوابة عبور مُشاة أو محطةٍ.

ينهض ويسير مُستكمِلًا طريقه على مهلٍ ومُطبِقًا قواعد السلامة والنجاة الخاصة به؛ يلتفت مُراقِبًا ببصره، وينحني مُطرِقًا بأذنه، وهكذا يفعل حتى تنجح عينيه في رصد وتقدير قطارٍ آتٍ من أمامه على الشريط الثالث، يوراي عورته بيديه ويتوقف وهو يراقبه يقترب سريعًا ويبدأ المرور أمام ناظريه، ويعتريه قليلٌ من خوفٍ مَكسوٍ ببعض الاطمئنان لانتباهه تلك المرة وإتمام خطته، ويخطر بباله فجأةً أن يُحدِّق ويُركِّز مع نوافذ القطار التي يراها جليةً من مكانه البعيد عن القطار رغم سرعته، وحتى يترقب رؤية أحد الركاب ويشير إليه مُستنجِدًا به، ولكنه يجد كل نوافذه مغلقةً ومعتمةً ولا يظهر أحدٌ من ورائها، غير أنه أيضًا في أثناء ذلك لاحظ مُنزعِجًا أنَّ الضجيج الصادر عن هذا القطار له صدىً مُدَوٍ مُضاعَفٌ مقارنةً بأي مرةٍ سابقةٍ، حتى شعر بألمٍ متزايدٍ في أذنيه التي تألمه بالفعل، وسرعان ما عرف سبب ذلك فاقدًا الثقة في تفكيره وخطته التي كان قد وصل إليها سابقًا، ومُرتعِبًا للاحتمالات التي قفزت إلى عقله بسبب ما رآه؛ فمع آخر عربةٍ مرت من أمامه من هذا القطار؛ إذ به يُفاجأ بقطارٍ آخرَ يمر من وراء الأول على الشريط الرابع الأخير، كان يمر في عكس الاتجاه وقد أتى على ما يبدو في الوقت الذي كان يتابع نوافذ القطار الأول مُستتِرًا وراءه، كان هذا بمثابة المعول الذي هد وبعثر خطواته الاحترازية الأولى وتركها كومةً لا تصلح لإعادة الاستخدام أو البناء مكانها على هذا الحال. هل يمكن أن يأتي قطاران في وقتٍ واحدٍ على شريطين متجاورين كلٌ في عكس اتجاه الآخر؟! أو حتى على شريطين غير متجاورين؟! أو حتى في نفس الاتجاه؟! لا يهم، المهم هل يمكن أن يقبل قطاران في ذات الوقت أو في وقتين متقاربين! ما رآه الآن يجيب على تساؤله القلق والحائر بنعم، إذن هو ليس في أمانٍ في حالة أتى قطارٌ على الشريط الأول الذي يلزمه ثم تحرك على شريطٍ آخرٍ -أي شريط- ثم فاجأه قطارٌ آخرَ لم يسعفه الوقت لرصده، ماذا سيفعل؟ أي نظامٍ عشوائيٍ مريب تتبعه تلك القطارات اللعينة؟! يفكر خائفًا بينما يستمر في النظر إلى كل اتجاهٍ ويتحرك من مكانه من القضيب الأول إلى القضيب الثاني لنفس الشريط ويراوح مكانه مُفكرًا ومُتوترًا دون أن يصل إلى خطوات وخطة جديدة تهدأه وتطمئنه.

إذا ما لازم مكانه على القضيب الطرفي للشريط الأول ورصد قطارًا قادمًا على هذا الشريط ثم لَمح آخرَ مُقبلًا على الشريط الثاني المجاور، هل سيكون لديه الوقت الكافي للهرولة تجاه الشريط الثالث أو الرابع ناحية السور البعيد!؟ يفكر بينما يلف حول نفسه ويتردد بين قضيبي الشريط الأول الذي يقف عليه وكيف سيستطيع ملاحظة القطار الثاني من الأصل إلا إذا أتى من نفس اتجاه الأول وفي ذات التوقيت بالتمام أو يسبقه ببضع لحظاتٍ! وهذا خلاف ما حدث، هل يكون الحل الأسلم أن يلزم القضيب الطرفي كما توصل في البداية ثم عندما يرصد قطارًا قادمًا على شريطه يلقي بنفسه على الأشواك! يفكر متوصِّلًا إلى أن هذا هو الحل الوحيد الأضمن، يا له من حلٍ مؤلمٍ ومُهلكٍ على المدى البعيد، إنه مثل ما يُخَيَّر المرء بين إلقاء نفسه داخل قفص أسدٍ جائعٍ أو قفصٍ ممتلئٍ بالثعابين. يلتفت في كل الاتجاهات بينما ينتقل بين زوجي الشريطين الأول والثاني لخوفه وتفكيره في حدوث احتمالية قدوم قطارين متجاورين، يستمر في التفكير، هل المسافة بين شريطين متجاورين آمنةٌ للوقوف أو الانبطاح بينما يمر قطاران في نفس الوقت؟ ينظر إلى المسافة التي تبدو الآن باتساع شريطٍ ولكنها على الأغلب ستضيق كثيرًا بسبب بروز كل قطارٍ عن القضيب، ثم إنه لن يجرؤ أبدًا على خوض تجربة الوقوف أو الانبطاح وسط قطارين يزأران ويطلقان شَرارًا ويُرجْرجان الأحجار وكل شيء تحت وطأتهما، فلربما وقع أو تحرك فصدمه أحدهما أو دهسه الآخر، تنذره أذنه بصفيرٍ مستمرٍ فيرتعب وينظر بعيدًا ويُنصِت سمعه بسرعةٍ وبالتوالي إلى قضبان الشريطين المتجاورين ثم يعود إلى القضيب الطرفي وهو يفكر في الاختيار «الأسد أم الثعابين»، إذا كان لأحدٍ أن يختار بأن يدخل إلى جحر ثعابين؛ فكيف يستطيع أن يميز الثعابين غير السامة! إلا إذا كان خبيرًا، وكيف يكون الخبير في أمر كهذا خبيرًا دون أن يُسمَم ويموت، أو على أقل تقدير يتأذى أيُّما أذى، وما يدريه لعل أشواك الصبار من فصيلةٍ سامةٍ!، هو على الأقل لا يعلم، وقد تعرض لأشواكها دون أن يموت حتى الآن، وإن كان سيموت جرَّاء سم الصبار؛ فسيكون هذا غالبًا بطيئًا على نحو يوفر له بعض الوقت الذي ربما يتيح له فرصة الخروج من هذا المكان ومقابلة من يسعفه وينقذه من سريان السم بدمه، وهذا لا يقارن بتاتًا بسرعة وعذاب وانقطاع أمل الخروج بالموت أسفل عجلات قطارٍ. الفكرة الأخيرة التي أتته كانت محاولته اجتثاث الصبار وشَغر مساحةً يستطيع أن يقف فيها، أو نقل عددًا كبيرًا من الحصى الحجرية فوق النبات ليقف عليها مُقترِبًا أو مُلتصِقًا بالسور، ولكن كثافة نبات الصبار وتجذُّره في الأرض سيمنعه من سهولة عمل ذلك بخلاف رغبته في تواصل المشي لا التوقف حتى يجد بوابة مزلقانٍ أو مَنفذًا يخرج منه من هذا الجحيم، لذا يختار بكل ألمٍ أنه سيلقي بنفسه على الأشواك ويلزم القضيب الطرفي للشريط الأول بجانب السور الأيمن حيث تحرك وعاد الآن، وكما هي الخطة الأولى بزيادته الجديدة، على أن يحرص ألا يدوس بقدميه العاريتين على الأشواك لكيلا تتجرحان فتحُول جروحهما بينه وبين الفرار من قطارٍ أو الاستمرار في السير، سيلقي بجسده إذن مثلما حدث سابقًا. في هذه الأثناء يتلبسه هلعٌ وينخلع قلبه من مكانه ويخر مُرتميًا على الأرض من فرط ذعره حين وجد قطارًا يمر من أمامه على الشريط الرابع ناحية السور البعيد، يتعجب مُرتعبًا من عدم مرور وقت طويل يُذكر بعد القطار الأخير الذي مر على نفس الشريط، ولكنه يلحظ مُستغرِبًا أنه مر في نفس اتجاه سابقه. أي فروق زمنية بينية هذه التي تنظم توقيتات تلك القطارات! يستجمع تركيزه ويستجلب انتباهه حتى لا يأتي قطارٌ آخرَ

على حين غرةٍ ويبدأ في استكمال المشي مُتجِهًا إلى الأمام، يلتفت وراءه، ويلصق أذنه بالقضيب في تعجلٍ وقلق، ثم يعاود التقدم، وهكذا دواليك.

وبعد مسافةٍ كبيرةٍ من السير يتوقف تعِبًا ومُتسائلًا عن غرابة تلك السكة الحديدية، يبدو له أنه قد قطع مسافةً طويلةً جدًّا، كان لابد أن تظهر محطةٌ أو مزلقانٌ أو أي مبنى خارج أو داخل السورين الشاهقين، لكنه لم يقابل أيًّا من ذاك، لقد أنهكه التعب والعطش والجروح والبرد الذي تغلغل إلى عظامه مُتفاقِمًا بسبب إحساسه بالجوع الشديد، ماذا سيفعل البرد به حين يأتي الليل ويشتد، ومتى يأتي الليل؟ لا يستطيع أن يحدد في أي وقتٍ هو بسبب غياب الشمس منذ لحظة استيقاظه، لكنه يُقدِّر أنه قد مشى قرابة نصف نهارٍ، دون أن يرى كائنًا حيًّا أو مبنىً أو مزلقانًا وبغير أن تسطع شمسٌ، ودون أن يسمع صوتًا مُختلفًا عن ذاك الذي مازال صفيره يتردد بأذنيه كأن عدد لا نهائي من قطاراتٍ بعيدةٍ تُصفِّر بتناوبٍ واستمرارٍ، أو أخرى قريبةٍ قد سكنت داخل أذنيه مُسببةً الطنين المستمر متفاوت القوة. بدأ الشك يساوره في إن كان سيجد مزلقانًا، لقد بدأ يفكر في هذا المكان كسجنٍ من نوعٍ خاصٍ غريبٍ وهو محكومٌ عليه بقضاء عقوبة التواجد فيه حتى الموت، وبينما هو يجلس على القضيب الطرفي إذ بصوت صفير قطارٍ وهزيزٍ يقتربان فيقوم في رعبٍ يترقب، يَلحظ قطارًا قادمًا من بعيد ويبدو له مُتخذ الشريط الثاني مسارًا، تتعالى ضربات قلبه إذ يتأكد من مسار القطار ويفكر في مصير جسده إذا ما حدث وفاجأه قطارٌ آخرُ آتٍ على الشريط الذي يلزم قضيبه الطرفي في نفس وقت مرور القطار الحالي على الشريط الثاني المجاور، يبدو أنَّ القطار بطيءٌ تلك المرة إذ يراه لا يزال بعيدًا ولم يقترب منه كثيرًا، يراقبه وهو يلتفت كل ثانيةٍ أمامه وخلفه خائفًا ومُترصدًا قدوم قطارٍ على شريطه، حسنًا سيستمر في فعل تلك الالتفاتات الحذِرة ويؤخر الإلقاء بجسده على الأشواك؛ فلربما يمر القطار الحالي بأكمله دون أن يأتي آخر على الشريط الذي يلزمه، يضع إحدى يديه على عورته استعدادًا لاقتراب القطار ومُذكِّرًا نفسه ألّا ينسى التحديق بنوافذ القطار في خضم التفافاته ومراقبته للقطار الآخر المتوقع قدومه على شريطه؛ حتى يُشير ويُثير انتباه الموجودين خلف النوافذ المُسكَّرة. يتعجب من أن القطار مازال بعيدًا، كأنه مبطئٌ أو مُتوقِّفٌ. يخطر على باله أن يغدو في السير ناحية القطار لعله حقًّا مُتوقِفٌ، هل يمكن أنْ يكون هناك محطةٌ أو مزلقانٌ فتوقف القطار أو بَطُؤَ لذلك!؟ أخيرًا يسطع أملٌ في أفقه الغائم، يُسرِع في خطواته دون أن يتوقف عن الالتفات، يحاول العَدْو فلا تساعده قدماه الحافيتان ولا الأرض المكسوة بالحصى الحجرية، يبدو له أن القطار في مكانه، في تفاؤلٍ وتلهُّفٍ يستمر في المضي قدمًا ناحية القطار بأقصى سرعة يستطيعها. يبدو أن القطار قد بدأ بالاقتراب والتسارع، ينقبض قلبه، يرى مقدمة القطار بوضوحٍ الآن من تلك المسافة القريبة على الشريط المجاور، إنه فعلًا بطيءٌ للغاية، لكنه يصعق مما يحدث ويفزع آخِذًا خطواتٍ مُتعثِرةً إلى الخلف، القطار يغير مساره! لقد أصبحت القاطرة على الشريط الأول الذي يقف عليه وتجرجر باقي عرباته من الشريط الثاني المجاور لتنتقل تباعًا خلفها في مَنظرٍ مَهيب يبدو وكأن جيشًا زاحِفًا يتصافّ من أجل حصاره والانقضاض عليه، يالله! أوَ كلما وصل إلى خطةٍ تُجنِّبه المفاجآت، حدث ما هو غريب وجديد وما لم يكن يضعه في حسبانه! القطار بدأ يتسارع واقترب منه إلى حدٍّ كبير، عليه الآن أن يتخذ قراره إن كان سينتقل إلى الشريط الثاني المجاور أم

يرمي بجسده وسط الأشواك، لا وقت أمامه لينظر خلفه حتى يرقب قدوم قطارٍ في عكس الاتجاه على الشريط الثاني المجاور، ولو انتقل إلى الشريط الثاني المجاور وأتى قطارٌ في ذات الوقت؛ هل ينتقل إلى الثالث ثم إلى الرابع إذا حدث الأمر نفسه؟ وخصوصا أنه لن يقف في المسافة ما بين أي شريطين، هل يمكن أن تأتي قطاراتٌ أربع في آنٍ واحدٍ؟! يفتك به الهاجس والقلق والخوف، والقطار سيصدمه في خلال ثوانٍ إذا لم يتحرك الآن..

أخيرًا، يأخذ قراره، بل إنه نفَّذه قبل أن ينتهي من التفكير فيه، يلقي بجسده صارخًا على الأشواك، وبدورها، وبكل شوقٍ وسلوانٍ تحتضنه بقوةٍ، تحتويه، وتتشبث به وكأنها كانت تنتظره تلهفًا، كانت آلامه الرهيبة التي يشعر بها تقطع جسده في تلك اللحظات سببًا في أنه أقسم في سريرته -وهو مُتكوِّمٌ يعوي كجروٍ مجروحٍ لم يكد يتوجَّع من آثار أماكن الأشواك القديمة حتى اجتاح الألم والدماء باقي جسده الذي غزَته الأشواك بالكامل- أنه سيختار أن يلقي بنفسه أسفل عجلات القطار في المرة القادمة؛ ما الفرق بين آلامه المُتفاقمة الآن وآلامٍ لحظيةٍ ستحدث حينها وينتهي الأمر بسرعةٍ أسفل القطار! رغم أنَّ القطار قد أخذ وقتًا طويلًا حتى مر بالكامل بسبب بطء سرعته الملحوظة؛ إلا أنه استمر في مستقره وقتًا أكثر طولًا مُتمنيًا الموت على محاولة القيام؛ إذ كان غير قادرٍ على الحراك من موضعه وكأنه قد تثبت في مكانه تثبيتًا، واجتاحه ثِقلٌ وخَدرٌ وجُمودٌ في جُلِّ جسده شعر بسببها وكأنه قد تحول إلى تمثالٍ حجريٍ مطموس الملامح، لكنه -رغم ذلك- وبعد وقتٍ ليس بطويلٍ، يعلم أنه قد رَكَن إلى القرار الصائب، أو على الأقل القرار الأقل هلاكًا إذا ما اعتُبر تفكيره في إلقاء نفسه أسفل القطار القادم أمرًا غير جادٍّ، ففي أثناء أنينه المكتوم وهو مزروعٌ وسط الأشواك الناهشة تداهم جسده الدامي عاصفةٌ من ترابٍ تكسوه بطبقةٍ جديدةٍ، ويسمع على إثر ذلك قطارًا يمر بسرعةٍ وصخبٍ كبيرَين، فيرفع رأسه ويفتح عينيه ليلمح العربات الأخيرة من قطارٍ يمر بسرعة كبيرةٍ على الشريط الثالث، ثم يرى من وراءه على الشريط الرابع البعيد قطارًا يمضي بسرعةٍ جنونيةٍ كبيرةٍ في عكس الاتجاه، تمامًا مثلما حدث من قبل، يستجمع قواه ويقوم عن الأشواك في تألمٍ شديدٍ، يجلس ليستريح مُحاوِلًا إزالة الأشواك عن جسده الذي لم يعد به مَوضِعًا واحدًا غير مثقوبٍ ولا ينزف دمًا، يجرجر قدميه ماشيًا ببطء سلحفاةٍ عرجاءٍ حتى يصل بعد وقتٍ وجهدٍ كبيرَين إلى المكان الذي بدا له القطار واقفًا فيه، لا محطةً أو مزلقانًا موجودَان كما كان يأمل، يتملكه اليأس، يلفت نظره شكل القضبان المتقاطعة ها هنا، فيتمعنها جيدًا حتى يحدد وجود ثلاثة أزواج إضافية من القضبان العرضية القصيرة والمنحنية بعض الشيء، حيث يمتد كل زوج ما بين كل شريطين حتى يلتحم قضيبيه القصيرين ويوازي قضيبي الشريط الآخر في نفس مساره، إنها تحويلات، ومن حيث اتجاه قدوم القطار الأخير على الشريط الثاني قبل أن يتحول، استطاع أن يحدد أن الزوج الأول من التحويلات يصل الشريط الثاني بالأول وكما حدث أمامه وتحول القطار إلى الشريط الأول، وزوج ثانٍ يصل الشريط الثالث بالثاني، وثالث أخير يصل الشريط الرابع بالثالث، لهذا السبب كان يبدو له القطار متوقفا في هذا المكان، كانت سرعته بطيئة جدًّا من أجل تحويل مسار سيره. يعود أدراجه قبل موضع التحويلات الحالي بمسافة قصيرة ماشيًا في نفس اتجاه مسير القطار الأخير المتحول إلى الشريط الأول، فيجد موضعًا ثانيًا قد فوته لثلاثة أزواج أخرى من قضبان التحويلات العرضية، ومن حيث تخيل قدوم قطار على الشريط الثاني في

عكس الاتجاه، يحدد أيضًا أن الزوج الأول هنا يصل الشريط الثاني بالأول، والزوج الثاني يصل الشريط الثالث بالثاني، والزوج الثالث والأخير يصل الشريط الرابع بالثالث، ستة من أزواج التحويلات موجودين في تلك المنطقة، يلتفت حوله في كل مكان فلا يجد مبنى المراقبة حيث من المفترض وجوده ووجود عامل التحويلة وروافع التحويلات بداخله، يعود إلى وجهته الأولى في المشي مستكملًا طريقه ومتقدمًا ببطء إلى الأمام بينما يتفقد المكان جيدًا حتى يمر على موضع التحويلات الثلاثة الأولى فيلمح قبالتها ثلاثة أعمدة حديدية قصيرة تطل من بين الصبار بجوار السور الأيمن ويلحظ العمود الأول مائلًا بخلاف الآخرين الواقفين، على الأرجح تلك هي الروافع اليدوية المسئولة عن تغيير وتحويل طريق سير القطارات في هذا الموضع ويبدو أن المائلة منهم هي المفعلة والمسؤولة عن تحويل القطار من الشريط الثاني إلى الشريط الأول كما حدث، ويبدو جليًا أن أحدًا لم يأتِ هنا أو يفعل ذلك منذ زمن بعيد، حيث نمت نباتات الصبار وغطت الروافع الثلاث إلا من رؤوسها، ويخمن وجود ثلاثة روافع أخرى عند السور البعيد في مكان ما هناك، يفكر قليلا ثم تقفز إلى رأسه فكرة؛ يقرر أن يظل في هذا المكان ريثما يأتي قطار متباطئ من أجل التحويلة فينادي سائقه أو أحد الركاب من مسافة قريبة، ولم تكد الفكرة تصل إلى رأسه حتى يجدها ترتج من صوت قطار قادم بسرعة جنونية على الشريط الثالث وفي تجاه معاكس للقطار الأخير على ذات الشريط، يذكره ذلك بالانتباه والالتفات الحذر الذي نسيه لوقت قليل في هذا المكان وأن ثمة نظام غير مفهوم لمرور وتبادل وتحويل تلك القطارات، فيلتفت ويترقب ويطلق نظرات حذرة بانتظام، وبين كل لفتة ونظرة يدٌ تلوّح وهو يصرخ تجاه نوافذ القطار والأخرى تحجب عورته كأنها ستار، لكن هيهات أن يسمعه أحد أو يراه، فدوي القطار يطغى على صوته، ونوافذه تبدو كإطارات مرسومة وغير حقيقية، يبدو أن تلك القطارات من الأنواع فائقة السرعة والتي لا يمكن فتح نوافذها في أثناء سيرها، يجلس على القضيب الطرفي منتظرًا ومتمنيًا ألا يضطر بأن يلقي بنفسه في الأشواك وأن يراه سائق قطار بطيء أو أحد ركابه قبل أن يحدث هذا، يشعر بجوع وعطش قاتلين يصاحبهما دوار، ينظر إلى نبات الصبار مفكرا في إمكانية بل ريقه بعصارته المرة ويبحث عن موضع يمسكه منه ليقطعه فلا يجد، إذ إنه ممتلئ بالأشواك في كل مكان، يتذكر أنه قد رأى قطعة صبار مقطوعة وملقاة في مكان ما بين موضعي التحويلات، يرجع باحثًا عنها ويجدها، ثم يمسك بحجرين ويضرب جلدها السميك وشوكها بقوة وتكرار، ويبدأ في الإمساك بها بحذر بعد تقصُّف أشواكها وظهور لبها، يتَمَطَّقه غاصًا به بسبب الطعم المر للهلام الأصفر الذي يظهر أسفل قشرتها السميكة مباشرة، يحاول تجاوزه إلى اللب الأخضر ويأكله فيجد طعمه حلوًا مستساغًا وإن خالطته الهلام الأصفر المر فأفسد حلاوته قليلًا، يستمر في التفاتاته ويشعر بحاجته إلى المزيد فينتقي حجرين كبيرين ويذهب إلى إحدى النباتات المزروعة فيضربها من الأعلى والأسفل مطبقًا عليها الحجرين مرارًا وتكرارًا حتى تنقطع بعد تعب وجهد ونفاذ بعض الأشواك إلى يده، يفعل بها مثلما فعل في الأولى ويأكل بنهم لبها الأخضر حلو المذاق محاولًا قدر الإمكان تفادي الهلام الأصفر المر الذي يغلف اللب الأخضر الحلو، كان هذا بالنسبة إليه اكتشافًا هامًّا، بل إنه أفضل شيء حدث له حتى الآن في هذا المكان الغامض البغيض، يكرر قطع نبتة وراء أخرى متحمّلًا للشوكات التي أدمت يديه جراء ذلك حتى يشعر بالشبع والدفء وسريان الطاقة في جسمه كله وكأن جسده المنهوك يحيا من جديد، بل إنه قد أحس بتسكين آلامه الناتجة عن نفس النبات، لقد أحب تلك النباتات واطمئن فجأة لوجودها، إذ لا يعلم كم

سيبقى في هذا المكان، وهي توفر له مصدرًا لغذائه، لو أنها لم تكن بتلك الكثافة فتسمح له بمجاورة السور، أو لو أنها كانت على كثافتها ولكن بلا أشواك مدببة؛ لكان الآن في شُقَّة من الوَصَب والزعج، دعاه هذا الأمر إلى التفكير والاستعجاب؛ فمن الغريب أن يجود عليه الشيء الذي تسبب في عذابه وآلامه بطعام يبقيه حيًّا، في تلك الأثناء تصفِّر وتطن أذنيه بازدياد فيدرك أن قطارًا قادمًا فيلتفت مترقبًا بتركيز كبير حتى يرصد من مكانه قطارًا قادمًا بسرعة منخفضة من بعيد على الشريط الثاني من عند موضع التحويلات الأول، يقترب قليلًا من موضع التحويلات الأول حيث كان قد بعد عنها في أثناء بحثه عن الصبار المقطوع. يتوقف، ويستعد لكافة الاحتمالات ويصب تركيزه على مقدمة القطار التي بدأت تظهر له واضحة، يقترب مشيرًا بيديه الاثنتين لسائق القطار، يقفز ويصرخ ويلوح، لكنه لا يرى السائق ولن يراه من خلال هذا الزجاج الأسود لمقدمة القاطرة، يسعد إذ يلحظ تباطؤ سرعة القطار أكثر وأكثر وهو يقترب من التحويلة، يخمن أنه على وشك تحويل مسار سيره، ينتقل الجرار بالفعل من الشريط الثاني إلى الشريط الأول حيث يقف هو وبسرعة منخفضة للغاية ساحبًا وراءه العربات، مستمرٌ هو في التلويح إلى سائق القطار رغم أنه لا يراه بينما ينتقل سريعًا إلى المسافة ما بين الشريطين الأول والثاني وكله أمل أن السائق قد رآه وسوف يتوقف من أجله، لكن السائق لا يتوقف وتستمر القاطرة في سرعتها البطيئة مجرجرة باقي عربات القطار من الشريط الثاني إلى الشريط الأول عبر التحويلة، يدرك فجأة أنه قد نسي أن يداري عورته بإحدى يديه في خضم حماسه في التلويح للفت انتباه السائق، وعندئذ؛ يظن أن السائق ربما لن يتوقف بسبب شكله وعريه الذي يوحي بالتبجح والتسول والجنون، هل كان السائق ليتوقف له لو أنه استخدم إحدى يديه في تغطية عورته بعكس ما فعل! هل سيشكل ذلك فرقا كبيرًا؟! يتساءل مفكرًا، ربما وجود يد واحدة على الأقل ساترة لعورته هي دلالة بشكل أو بآخر على أنه عارٍ رغما عنه ودون رضاه على عكس ظهوره غير عابئ باستخدامهما إلا في الإشارة والتلويح. عندما يخاف أن السائق لن يتوقف من أجله، وعندما يخشى انتهاء عبور كل العربات عبر التحويلة ومن ثم ازدياد سرعة القطار، وعندما يرتعب من احتمالية قدوم قطار آخر الآن على غفلة منه، عندها فقط يقرر مستجلبًا جرأته الصعود إلى القطار وركوبه من خلال تسلق السلم الصغير الذي يراه بارزا عند كل باب مغلق، يتعلق بالسلم ويصعد ممسكًا بمقبض الباب محاولًا دفعه إلى الداخل حتى ينفتح، يضربه بجسده بينما يدير مقبض الباب بقوة، يتسارع الجرار بعدما انتظمت كل عرباته من ورائه على نفس الشريط؛ الشريط الأول، يفكر أن يقفز وينظر من مكانه لئلا يكون هناك قطار سريع قادم على الشريط الثاني في عكس الاتجاه، يتردد ثم يخشى بسبب سرعة القطار التي ازدادت على نحو يصعب معه القفز، يطرق الباب بقوة بيد واحدة وهو يصرخ بأن يفتح له أحد بينما يضغط على مقبض الباب ويديره، تزداد سرعة القطار، يدفع بكل قوته بجسده ويدير مقبض الباب فينفتح الباب ويندفع جسده داخل القطار مرتميًا على أرضيته بينما يرتعش ويكاد يموت رعبًا وتعبًا، يغلق الباب بسرعة عن طريق دفعه بقدمه وهو غير مصدق أنه نجا، يقوم بصعوبة وهو يشعر بجسده كله ينتفض ولا تقوى رجله على حمله، يكابد ويقف مستندًا على ظهر المقعد الأول ويواري عورته بيديه وهو ينظر في لهفة ناحية الركاب، القطار مظلم، ولكن ليس لتلك الدرجة التي لا تجعله يرى، يجول ببصره مدققًا النظر بكل مقعد ثم ينزل يديه من فوق عورته مستغربًا، تلك العربة خالية من أي راكب، يجلس على أول مقعد بالصف الأيسر ليلتقط أنفاسه وليستريح ويبسط ظهره للخلف ويسند رأسه، لم يجلس على مقعد بتلك الراحة

من قبل، لا يتذكر جلوسًا له غير جلسته على القضيب، يشعر بأن النعاس يغالبه، هو يريد أن ينام ولكنه لا يريد تفويت أي محطة، ودون أن يشعر تقهره رغبته في النوم، قلبه مازال يخفق بقوه وجسده منهك ولا يعلم هل ما زال يرتعش أم أن اهتزاز القطار هو ما يتسبب في ذلك أم كلاهما، وعقله مجهد ومستنفد وكان لابد أن ترغمه حالته التي تنتقع في التعب على النوم الفوري. على الأقل هو الآن يشعر باطمئنان كبير بينما يتجاوز بكل سلاسة وسرعة الحد الفاصل بين اليقظة والنوم ولا يحمل هم قطار يدهسه حين ينام هنا على خلاف السكة الحديدية حيث كان، ينام سريعًا وعميقًا، وحين يصحو ينتفض واقفًا وفزعًا؛ إذ يتذكر كل ما حدث له دفعة واحدة، يحاول الذهاب بذاكرته إلى ما قبل استيقاظه على السكة الحديدية فلا يستطيع، يريد أن ينتهي من هذا الكابوس، يلوم نفسه متضايقًا؛ لأنه لم يكن يريد أن ينام ويفوت أي محطة، ينظر إلى المقاعد في عربته فيجدها مازالت خالية، يفكر كم نام من الوقت، يبدو أنه نام كثيرًا، إذ يشعر أنه في كامل استفاقته وتركيزه غير أنه أيضًا يشعر بجوع شديد لا يكون بتلك القوة إلا لمن نام طويلًا جدًّا، يفكر أن ينظر خارج القطار فيجلس في نفس اتجاه سير القطار على المقعد المجاور للنافذة ويرفع الشباك الداخلي للنافذة التي بجواره لأعلى بصعوبة كأنها مغلقة منذ وقت طويل، وحين ينجح، تدخل إضاءة النهار عبر الزجاج فتؤلم عينيه ويغمض قليلًا قبل أن يفتحهما تدريجيًا متسائلًا: هل نام حتى صباح اليوم التالي أم نام سويعات أو بعض ساعة من النهار الذي لم ينقضي بعد؟ ينظر عن يساره من خلال النافذة الزجاجية فيقابله السور ونباتات الصبار التي يراها وكأنها مشوشة بسبب سرعة القطار الجنونية ويدرك أن القطار قد غير مساره خلال نومه حين يرى الشريط الأول، هو الآن إذن على الشريط الثاني في غير موضعه الذي انطلق منه، حيث كان على الشريط الأول حين ركب القطار وقبل أن ينام يقشعر جسده متذكرًا الأشواك وانغراسها المؤلم في جلده ثم يتذكر جوعه، ينظر لأعلى إلى السور الشاهق الممتد ويود لو يعرف أين هو أو يساعده أحد على أن يتذكر، يقوم بعد أن أُنيرت عربة القطار ليبحث فيها عن شيء يرتديه قبل أن ينتقل إلى عربة أخرى وحتى لا يدخل العربة على الركاب وهو عار هكذا فيفزعون، يمشي بين صفي مقاعد العربة باحثًا بينها وفوقها وفي كل مكان فلا يجد شيئًا يمكن أن يستره، كيف سينتقل إلى العربة التالية الآن!، هل ينتظر في تلك العربة حتى يقف القطار في إحدى المحطات وينزل؟! وقتئذ سيكون الناس أكثر عددًا، يقرر أن ينتقل إلى العربة الخلفية التالية ويطلب من الركاب سترة ويشرح لهم ما هو فيه ليساعدوه، يداري عورته استعدادًا بينما يعبر باب عربته مغلقًا الباب خلفه ومتجاوزًا المسافة الفاصلة بين العربتين ثم يفتح باب العربة الأخرى ويدخلها، العربة مظلمة أيضًا، يضيق عينيه ويحدق لثانية ويقترب فيتملكه التعجب من خلو تلك العربة أيضًا من الركاب، يفتح إحدى النوافذ ويبحث عن أي شيء في العربة يصلح للارتداء فلا يجد، يدلف إلى عربة تلو الأخرى ويفتح نافذة وأخرى ويبحث، ولا راكب واحد موجود ولا أثر واحد لوجود أي ركاب كانوا هنا، وحين يصل إلى العربة الأخيرة يعيد التفتيش في كل العربات الأمامية من جديد حتى يصل إلى أول عربة تلتصق بالجرار وقد اجتاحه خوف وقلق بسبب خلو القطار من أي راكب أو عامل تذاكر حتى. كيف لا يوجد أي ركاب أو أثر لوجود سابق لأي كائن! قطارات الليل هي ما تكون شبه خاوية وحتى ليس لتلك الدرجة، فما بال هذا القطار وهو في النهار مهجور كأنه يعمل من أجل توصيل الغبار الذي يستقلها ويشغل مقاعدها كلها، يجلس في الصف الأيسر في اتجاه سير القطار على أحد المقاعد مذهولًا ومفكرًا، ثم يقرر أن يلزم

مكانه حتى أقرب محطة وينزل، يمر وقت طويل جدًّا وهو يراقب الخارج من خلال النافذة الزجاجية التي تطل على الشريط والسور ونباتات الصبار التي لا تنتهي دون أن يرى محطة، ينتقل إلى صف المقاعد الثاني الذي عن يمينه ويجلس على مقعد في اتجاه سير القطار ويتطلع من حيث تطل النافذة التي فتحها على الشريطين الآخرين، وعلى السور الآخر لتصبح مجال رؤيته أوسع قليلًا على هذا الجانب ويستطيع المراقبة من كلا النافذتين على الصفين. يمضي وقتًا طويلا كسابقه دون أن تأتي محطة أو يرى مبنى بازغًا من وراء الأسوار باستثناء قطارات كالذي يركبه تمر على الشرائط المجاورة بين الفينة والأخرى اعتادها ولم تعد تفاجأه أو تفزعه. ينهض ويتمطى بعد أن نَمِلَت رجلُه وأصاب جسمه خدر وتيبس من طول الجلوس على المقاعد المصنوعة من حديد وبلاستيك غليظ، ما هذا المكان؟! يتساءل متمشيًّا، ربما تكون تلك السكة الحديدية من النوع الذي يصل بين الدول والقارات حيث المسافات الكبيرة للغاية، ربما! لقد بدأ يشعر بدوار الجوع، يعود إلى مكانه، يتطلع إلى الصبار بنظرات تَوْق وجُوع متذكرًا مذاق لبه الأخضر الحلو، يمضي وقتٌ طويلٌ آخرَ ولا جديد سوى اشتداد تضوره جوعًا وازدياد توتره خوفًا، يستشعر تباطؤ سرعة القطار فيبتهج لظنه أن محطة قد اقتربت، لكنه يشعر بحركة انتقالية للجرار والعربة التي تليه، حيث يجلس فيعرف أنها تحويلة، ويستشعر تحرك القطار المفاجئ والبطيء يمينًا من حيث يجلس وينظر من النافذة ليجد القطار يغير مساره في تلك اللحظة من الشريط الثاني إلى الشريط الثالث، يفكر متتبعًا مسارات قطاره، كان قد أتى منذ البداية من الشريط الثاني متحولًا إلى الأول حين تسلق إليه وركبه، ثم في أثناء نومه تحول إلى الشريط الثاني على حسب ظنه، وها هو الآن يتحول إلى الشريط الثالث، يتحول مسار تفكيره ويقوم مسرعًا بسبب فكرة أتته وأراد تنفيذها في هذا الوقت تحديدًا. يفتح الباب الفاصل بين العربة والجرار وينظر جيدًا إلى الجرار ثم يتسلقه من جنبه الأيمن قاصدًا الوصول إلى مقصورة السائق، يساعده على ذلك بطء سرعة القطار ووجود ممشى رفيع حديدي ممتد على كلا جانبي الجرار حتى بابه، يصل إلى الباب ويطرقه ثم يكابد فتحه وينجح قبل أن يبدأ القطار في التسارع، وعندما يدخل يصعق إذ لا يجد سائقًا موجودًا، القطار يمشي دون سائقٍ! بل إن المقصورة تبدو مُفرغة من أي عجلاتٍ أو روافعٍ أو مكابحٍ أو أي شيءٍ يخص القيادة، اقترب من مقعدٍ أمام الزجاج الأمامي حيث جلس مبهوتًا وقد اشتعل القطار جريًا وسرعةً، يجتاحه رعبٌ وارتعاشةٌ وتسري برودة الخوف والجوع في كل جسمه حتى يصيبه خدر، ماذا يفعل؟! من يقود هذا القطار؟ من يوجهه أو يديره؟ وكيف يتزود بالوقود إن كان لا يقف؟ هل تعمل تلك القطارات بالكهرباء؟ لكنه يتذكر جيدًا عدم رؤيته لقضبانٍ أو أسلاكٍ تعتليها كي تستمد منها طاقتها الكهربية بالتلامس وهو يمشي، هل تستمدها من القضبان أم تسير بقوة تجاذب مغناطيسية؟ وهل كل القطارات خالية هكذا؟ جميعها متشابهة من حيث لونها المعدني المنطفئ وتصميمها المتطابق، إذن فعلى الأرجح أنها كلها خالية من أي إنسان، من يتحكم بتلك المنظومة؟ وأي مكانٍ مُلغزٍ وغامضٍ هذا؟! يضطرم بالقلق والخوف الشديدين، إن المكان ليبدو من مقعده حيث يجلس مُختلفًا، الجرار يجري بنهمٍ وبسرعةٍ مرعبةٍ وكأنه يلتهم كل ما أمامه من قضبان وحصى حجرية ومسافة وزمن، إنه كوحش يركد ولا يتعب، ويأكل ولا يشبع، يبدو وهو يسير بتلك السرعة المُهلكة بلا سائقٍ وكأنه سيخرج عن مساره في أي لحظةٍ، حتى تعيَّن عليه أن يصبح وكأنه عين هذا الوحش وهو يتابع مسيره بتركيز وتوجس ويعاين الأفق البعيد والقضبان المستقيمة الموازية للسورين الشاهقين بحذر وترقب، يدقق النظر أبعد،

فيلحظ أن النهاية البعيدة التي تبدو لعينيه بها انحناءة على نحوٍ ما، القضبان والسوران والصبار يأخذون هناك مُنْحَنًى طفيفًا لم يكن يلاحظه من قبل، لكن بماذا يفيده ذلك!؟ هو يريد أن يخرج من هذا المكان بأي حال، بل إنه الآن يريد أن ينزل من هذا القطار المخيف الذي يسير بغير هدى أو قائد كأن شبحًا يُسيّره عن بعد. ينقضي وقتٌ طويلٌ وهو على هذا الحال، وما يمنعه من النزول من القطار إلا سرعته، يشتد به العطش والجوع ويشعر وكأنه على وشك الإغماء، وبعدها ومن حيث لا يدري تأخذه لثوانٍ غفلةٌ أو إغماءةٌ لا يستطيع أن يُفرِّق، يتطلع إلى الصبار آملًا في قدوم تحويلةٍ، فقدَ تركيزه وقوته ويشعر بوهنٍ كبيرٍ وكأن رُوحه تَنسَلّ منه. يذهب في إغماءةٍ ثانية لوقتٍ قصيرٍ ويصحو مُدركًا ما يحدث له ومُتمنيًا نجاته لأجل أن يفعل شيئًا واحدًا وإن كان آخر ما يفعله، وهو الانتقام من هذا المكان اللعين وتلك القطارات المريبة. إن هذا المكان عدوٌ لدودٌ، خصيمٌ بغيضٌ، كل ما فيه يتربص به ريْب المَنُون، كأنه يخيره ما بين بقاءٍ بعذابٍ بطيءٍ طويلٍ أو فناءٍ بموتٍ سريعٍ شنيعٍ، لكنه حتمًا في نهاية المطاف سيأخذه نحو هلاكٍ حقيقٍ. يروح في إغماءةٍ أخرى طويلةٍ جدًّا دون أن يدرك، إلا أنه لم يستطع أن يميز طولها حين يستفيق، وقد بلغ الجوع والإعياء منه منتهاه، لكنه استطاع أن يميز تباطؤ سرعة القطار رغم نظره المغبش وعقله المشوش، وأدرك أنها تحويلة حين يحدد انتقال الجرار يمينًا من الشريط الثالث إلى الشريط الرابع المجاور للصبار والسور، ويشعر بتغييرٍ في مساره قد بدأ. يقوم دائخًا ويتجه في اضطرابٍ ناحية الباب الذي عن يساره، وبصعوبةٍ يتمكن من النزول من القطار مُلقيًا بجسده بعيدًا على المسافة بين الشريط الثالث والشريط الرابع حيث ينتقل القطار، وبعد أن ينتقل القطار ويمر بأكمله من الشريط الرابع ينتقل إليه فورًا بمشقةٍ وتعسرٍ قاصدًا قضيبه الطرفي الأخير، ويتكبد عناءً مُضنيًا وهو يضرب فرعًا من نبات الصبار بين حجرين أمسكهما على عجلٍ حتى تنقطع النبتة أخيرًا بعد جهدٍ جهيدٍ فينقض عليها غير عابئٍ ببقايا أشواكها التي أدمت شفتيه أو بصفير القطار الذي لا يعرف مصدره، ويلتهم ما بداخلها عن آخره، يكرر فعل ذلك مراتٍ ومرات بإصرارٍ واستمرارٍ وشَرَهٍ، وفي كل مرةٍ كان يزداد حرصه وهو يأكل ويستعيد قوته ووعيه تدريجيًا حتى يسري الدفء والنشاط في جسده وتمتلئ بطنه عن آخرها. يجلس على القضيب الطرفي الأخير غير آبهٍ لحرارته، مُفكرًا وهو جامد الملامح وثابت النظرة ومُستعِدًا للنهوض من أجل أن يفعل الشيء الذي تمنى فعله، يقوم مُستديرًا ومُتجولًا ببصره بطول السور، تُرى كيف سينتقم -كما يظن- من هذا المكان الحصين الذي لا مخرج ولا منفذ منه! ألم يكن من الأفضل له لو بقي في القطار حيث يستطيع أن ينام ويبتعد عن إلقاء نفسه وسط الأشواك حينما تتوالى على مباغتته القطارات؟ يخطو بثباتٍ وبلا ترددٍ أو خوفٍ داخِلًا إلى الصبار ومُتوَغِلًا فيه، ويقف عليه ويدوس مُتحمِلًا الأشواك بإصرارٍ وعنادٍ وسكونٍ، لكنَّ القطار بلا سائقٍ ويسير بلا نهايةٍ ولا توجد محطاتٌ أو مزلقاناتٌ في طريقه ولا تظهر مبانٍ من وراء تلك الأسوار المنيعة الشاهقة، فكيف يأمن العيش داخله، حتى وإن تمكن من أخذ بعض نباتات الصبار معه من أجل تناولها داخله رغم الصعوبة البالغة في فعل ذلك؟ يصل نازفًا إلى مكان مقابض روافع التحويلات الثلاثة على هذا الجانب، والتي كان قد لمحها قبل قليلٍ حيث تُجاوِر السور. الروافع الثلاث في هذا الجانب تتوازى واقفةً وغير مائلةٍ وتتراصّ رأسيًّا بجوار بعضها البعض وسط الصبار والأشواك التي طمست ظهورها، وعلى ما يبدو أن تحويلًا لمسارات القطارات القادمة من الاتجاه المعاكس لن يحدث وستأخذ القطارات المعاكسة القادمة طريقها بسرعتها الفائقة دون أن تبطئ، هل يمكن

أن يتسبب هذا الجسد العاري الدامي الضعيف في انتقامًا وضررًا لكل تلك الأحجار والحدائد والفولاذ والإسمنتيات والطوب والصبار والأشواك؟ كيف يفكر؟! وفيم يفكر؟! يقبض على الرافعة المُحَوِّلة الأولى ويسحبها بكل ما أوتي من قوة مُستندًا على السور بعد تجاوز الصبار بإحدى قدميه وساحبًا المقبض ناحيته حتى تستقر الرافعة وتثبت في موضع مائل للأسفل في مكانها الجديد ثم سرعان ما يصرخ بقوة وكأنه يستجمع كل آلامه التي لاقاها ها هنا ثم يدفع بها في وجه هذا المكان صراخًا، أو زئيرًا أراده فخرج كصراخ، يصرخ ويصرخ حتى يسمع صدى صراخه يجاوبه من بعيد، حسنًا، ربما يفعل ما يجعله يشعر بتحقيق انتقام من نوع ما لكن هل يعود هذا غالبًا على المنتقم بأي جديد أو مفيد؟! وهل يعود المنتقم على سيرته الأولى كما كان سابقًا بعد فورانه بكل هذا الغضب وتنفيذه لانتقام أو ثأر أو قصاص؟ ينجح في شد الرافعة الثانية وينجح في أن يصرخ بصوت أعلى من المرة الفائتة ويصله صدى صراخه على نحو مختلف كان سيلفت انتباهه لو لم يكن في تلك الحالة التي تتملكه كليًا الآن. ماذا إن كان أحد يسمعه الآن وهو لا يدري؟ أو ماذا إن بدأ يدري ويفكر في ذلك؟ هل يوقفه ذلك عما يفعله؟ هل يذهب عنه غيظه واهتياجه؟ ينتهي من سحبه ليد الرافعة المُحَوِّلة الثالثة والأخيرة ويصيح صارخًا ومجلجلًا بأعلى صوته حتى يبح صوته تمامًا ويصمت مرغمًا وهو يبكي بهستيرية وبفحيح ما بقي له من صوت، لكن صدى صوته لا ينتهي ويستمر في الوصول إليه، بل إنه لمح حصوات حجرية تتطاير من وراء السور الشاهق البعيد واحدة وراء أخرى بينما تستمر أصداء الصوت الصارخ تأتي مع قذائف الحصى الحجرية التي تتجاوز السور بصعوبة حتى بدأ الصوت يختفي وسط ضجيج صوت القطار القادم. يتطلع إلى القطار القادم ليجده آتيًا على الشريط الثالث من الجهة المعاكسة من ناحية يمينه حيث يقف الآن وظهره للسور بسرعة جنونية ثم فجأة يتحول عن مساره تجاه الشريط الرابع البعيد ويخرج عن مساره منقلبًا على جنبه ومتجهًا كقذيفة صاروخية إلى السور البعيد، في البداية؛ يسحق الجرار الصبار ثم يصطدم بالسور ويخترقه محدثًا فيه ثقبًا كبيرًا، وبينما يمر الجرار من خلاله يستطيع تمييز ما وراء السور جيدًا؛ إنها سكة حديدية ثانية وكان هذا السور المخترق مشتركًا بينها وبين سكته، يصرخ دون أن يخرج له صوت ويُصدم ويهم بالخروج من مكانه وسط الصبار وهو يلوح بكلتا يديه ويقفز إذ لمح شخصًا عاريًا يقف مذعورًا بجوار السور البعيد للسكة الثانية في الوقت الذي يتجه القطار ناحيته بسرعة وترنح، يتابع الآخرَ الذي لا يستطيع الإفلات وهو يُدهس بالقطار الدخيل قبل أن يصطدم ويتوقف عند سور السكة الثانية البعيد بينما باقي عرباته مازالت داخل سكته مقلوبة وممتدة بعرض السكة كلها. أخيرًا، وبعد تعسر ووقوع مؤلمين واضطراب وذهول كبيرين ينجح في الخروج من وسط الأشواك قاصدًا العبور والنفاذ إلى السكة الثانية من خلال الفتحة المتهدمة، لكنه ما إن خرج من وسط الأشواك ووصل إلى أول شريط من ناحيته حتى يباغته قطار قادم من الشريط الثاني من نفس اتجاه القطار المقلوب، وقد خرج عن مساره إثر اصطدامه بذيل سابقه متوجهًا ناحيته، فيصدمه ويأخذه في طريقه وينفذ جراره السريع من السور القريب محدثًا فيه فتحة هو الآخر فيمر منها القطار بينما يستكمل دهسه وتسويته بأرض وقضبان السكة الحديدية الثالثة التي ظهرت الآن كما الثانية تمامًا وحيث كان يقف واحد ثالث عاريًا ومذعورًا مما يحدث وكان منظره البشع وأشلاؤه المتناثرة هي آخر ما رأته عينا هذا الثالث قبل أن يلقى نفس المصير حين صدمه نفس القطار المترنح ودهسه وسواه بالسور البعيد للسكة الثالثة ثم يقف القطار عنده. يبدو أنه قد علم الآن ما هو موجود وراء

سوريه الشاهقين، ليس وحده الذي علم بذلك، لكنه كان وحده الذي استطاع إنهاء الأمر، أو من الأصح أن يقال أنه فقط قد أنهى أمره هو، ذلك لأنه قد استهل من فوره أمرًا آخرَ أعظم؛ فسلسة مستمرة لا نهائية من الخروج عن المسارات والاصطدامات وحدوث فجوات وفتحات وتهدمات في الأسوار الشاهقة ودهس آخرين قد بدأت لتوها؛ فالسكتان الثانية والثالثة ستأتي قطاراتهما بسرعتها الجنونية مصطدمة بعربات القطارات المنقلبة بعرض القضبان وستخرج عن مساراتها نافذة إلى الأسوار الشاهقة ومحدثة فتحات تعبر من خلالها إلى سكك جديدة لتصدم أشخاصًا جددًا كانوا قد استقروا في مكان التحويلات وليصطدم بها بعد ذلك قطارات السكك الجديدة المسرعة وتعيد الكرة بدورها وهكذا دواليك. لقد بدأ الأمر إذن، كانت تلك السكة هي مركز الانطلاق، ولعل أرواح المدهوسين الأوائل الآن -وهي تطير صاعدة ناحية سماء النهار التي بلا شمس- هي وحدها التي تستطيع أن ترى وتدرك ولربما تَعُد هذا العدد اللانهائي من السكك الحديدية التي تتجاور كل منها وتتشارك فيما بينها في سور شاهق، وتبدو كل سكة من أماكن أرواحهم العليا في شكل دائرة مغلقة على مسافة بالغة الكبر وتأسر عاريًا واحدًا بداخلها حتى حين، وتحيط كلُ سكةٍ بسكةٍ دائريةٍ أخرى أكبر قُطرًا على نحو لانهائي متواصل في الاتساع والإحاطة إلى ناحية الخارج، لعلهم وحدهم من يرون مركز هذي السكك الدائرية اللانهائية التي تتصاغر أقطارها نسبيًا إلى ناحية الداخل حتى يتجلى المركز في هيئة غابة دائرية شاسعة من الصبار الكثيف والشوك المخيف ومُسوَّرة بالسور الشاهق الأول.

القصة الحادية عشر: لم يكن .. بل كان

تأليف: أسامة قرينة

الدولة: الجزائر

لم يكن.. بل كان

على بُعد ثمانية كيلومترات من مدينة وهران -أو كما يلقبها أهلها «الباهية»-، وبالتحديد في إحدى قرى بلدية السانية.

عقارب الساعة كانت تتراقص على ميلاد العاشرة صباحًا، صمت يأكل ضجيج المكان، حتى كاد يُخيَّل إليه أنَّه يستطيع استراق السمع لدبيب النمل أمام ناظريْه..

يدفع الجميع أموالًا طائلة ليحظى أحدهم بموضع استلقاء في الطبيعة؛ كحال بلال الذي كان ينظر إلى السماء متخيلًا ابتسام الغيوم العابرة له.

لا يزال منتظرًا مرور الوقت كي يُخرِس أنين الجوع الذي بدأ يتطفل عليه زائرًا غير مرغوب فيه كعادته..

العاشرة وثلاث دقائق، الوقت يتمطط..

صوت فتاة صغيرة يكسر هدوء الصباح، صوت مبحوح في الأفق يصرخ:

- بلال.. بلال..

قام والابتسامة قد غادرته، سألها والحيرة ترتسم بألوانها على وجهه:

- ماذا هناك يا مريم؟
- أبي..
- ما به؟ لم يكن السؤال في محله.. ولكن للفاجعة دورها المريب في بعثرة أفكاره..

فأجابته:

- عائشة قالت أسرعي نحو..

لم ينتظرها حتى تكمل كلامها الذي اختلط بأنفاسها المتسارعة، ترك الخراف تستلذ بوحدتها وأخذ يركض نحو البيت. دفع الباب بجسمه حتى كاد يسقطه أرضًا. لم يكن على علم بالغيب ليعرف مدى سوء حال أبيه، لكنّه قرأ في صوت أخته مريم خوفَ الآتي!

ظنَّ الجميع أنها مجرد أيام قليلة وستعود الصحة لتزوره، كان الوالد متعبًا من الزكام، أو هكذا بدا.. انتظر الجميع أن يقف على قدميه من جديد، لكن كان للقدر منعرج آخر!

سعال حاد يكاد يثقب طبلة آذانهم، كانت عائشة -ابنته الكبرى- إلى جانبه تنظر إليه والجمود يلفها وقد تسارعت ضربات قلبها حتى توهمت أنها تجد صعوبة في التنفس.. اقترب بلال منه، أمسك أباه ويداه ترتعشان، جعله متكئًا على حِجْره، وبصوت ملأته الذبذبة قال:

- تحمل يا أبي.. تحمل..

ما كان يعلم من كان منهما بحاجة إلى الصبر أكثر.

أراد العم موسى الكلام؛ لكنه ثقل عليه.. شيء ما رغب في إزاحته عن كاهله فلم يستطع، خانته حبال صوته حينها، وأصبح السعال يزداد حدة حتى لفظ من فمه دمًا داكن اللون!

أمّا مريم زهرة العائلة بنت الخامسة من العمر فقد لحقت بأخيها والجِراح قد شوهت ركبتيها. لم تحتمل ذلك المشهد المخيف وأجهشت بالبكاء، لكنها كانت تعي مع صغر سنها أن شيئًا سيّئًا يحدث لوالدها. وانقض السؤال الرهيب على الأذهان: كيف الحال بهم إن غادرهم السند الوحيد المتبقي بعد وفاة أمهم قبل سنة في ذلك الحريق الذي أكل بيتهم القديم بمن فيه؟

أخذت عائشة أختها إلى الخارج، فلم يكن هناك سوى غرفة واحدة في المنزل الجديد الذي كان في السابق حظيرة للخراف، في حين جلس بلال مع أبيه وكان عاجزًا عن فعل أيّ شيء، ذلك العجز جعل دموعه تتدفق كشلال عظيم.. وعندما بدأ العم موسى يلفظ أنفاسه هدأ السعال أخيرًا، حينها أخذ يتمتم بكلمات لم تكن مفهومة.. أدنى بلال أذنه نحو شفاه أبيه وأخذ يستمع.. كانت مجرد ثوان حتى أغلق العم موسى أجفانه للمرة الأخيرة.. مات تاركًا وراءه ذرية ضعافًا لا يقدرون على شيء، لم يتبق لهم سوى تلك الخراف وغرفة سقفها لن يحتمل سنة أخرى!

حينها تعطّلتْ ساعة بلال التي أهداها إياه أباه مشيرة إلى العاشرة وعشر دقائق.

كانت البيوت متباعدة هناك في الريف، لكنَّ صراخ مريم كان أقوى وأدت الرياح خدمتها الجليلة لتنقل صوتها المبحوح إلى مسامع الخالة منيرة، فهرعت نحو بيت العم موسى.. وجدت عائشة جاثية على ركبتيها، وخُيّل إليها أن دموعها ارتسمت نهرًا تجري مياهه على خدّيها، فسألتها:

- ماذا يحدث يا عائشة؟

اختنق الجواب، قالت والبكاء يهشم صوتها:

- إنه..
- ماذا؟ تكلمي..
- أبي!

كانت كلمة واحدة لكنها تطلَّبت منها قوة لتجد طريقها خارجًا..

أقبلت الخالة منيرة على باب المنزل لتجده على وشك الوقوع أرضًا، نظرت هناك في زاوية الغرفة المظلمة، استغربت من ذاك النور الذي قتل تلك العتمة، كان وجه العم موسى يملؤه الضياء، وهناك بلال ينظر إليه في ذهول جعل دموعه تجف. هل باغته الموت حتى لا يصدق رؤية أبيه جثة هامدة! أم أن للموت قدرته الدائمة في إحداث الدهشة، اقتربت منه وهي الأخرى قد غلبتها دموعها.. وخاطبته بصوت حزين:

- لله ما أعطى ولله ما أخذ. قم يا بلال واذهب لجنب أختيك..

صرخ في وجهها قائلا: دعيني وشأني!

لم ترد إزعاجه أكثر، تركته هناك وخرجت حاملة خبرًا ثقيلًا على قلبيْ الفتاتين.. سألتها عائشة وداخلها يحترق خوفًا:

- هل أبي بخير؟
- لقد..
- لا تقوليها أرجوكِ!
- آسفة يا بُنيَّتي..
- لاااااااا.. غير ممكن.. لاااااا..

انهارت عائشة، سقطت تتمرغ على التراب وتصرخ، حتى فزعت منها مريم التي لم تعي شيئًا حينها، وركضت نحو الخالة منيرة وأمسكت رداءها بشدة واختبأت بين طيّاته..

- كانت هذه بداية قصة بلال وعائلته التي وقع عليها اختياري لهذه الليلة يا معاذ.. البداية التي غيرت كلّ شيء بعدها وقلبت حياة كلّ شخص ليعاني طيلة حياته بصمت يتأملون فيه الفراغ الذي تركه العم موسى، فراغ لن يملأه أحد بعده.. وثقل كبير أُلقي على بلال يومها!
- لم يسبق لي أن عايشت ذاك الشعور يا خديجة، لكن من المؤكد أن فقد الأب صعب جدًّا، خاصة على أولئك الذين أثمن ما يملكونه ابتسامة لا يبخلون بها على أحد، الذين تشتكي بطونهم بعد فراقه من جوع دائم، وإن أكلوا لا يشبعون من طعام واحد.. لابد أن يكون الشعور مدمرًا حين يفقدون السند.
- صدقت يا معاذ. دعني أكمل واستمع جيدا الآن، فقبل شهر من ذلك..

في إحدى الليالي التي ارتدت الظلام الحالك، وبدت فيه الطبيعة غاضبة جدًّا، خُيِّل إليه أن الأشجار تكاد تُقتلع من جذورها من كثرة اهتزازها، وأما الطرقات فغرقت في مياه المطر. هناك كان العم موسى راجعًا من عمله يحارب ذلك الغضب كي يصل

إلى عائلته سالمًا، راتبه لا يحتمل شراء واقية من المطر. ولو حدث أن امتلك واحدة ستسرقها منه تلك الريح العاتية.. كان مجرد عامل نظافة في إحدى شركات مدينة وهران، يعمل حتى وقت متأخر ويجد صعوبة في العودة للمنزل دائمًا، وأحيانًا كان يتغيب كلّ الليل عنهم.

من رَحِم تلك العاصفة خرج العم موسى مصابًا بالمرض، لكنَّه أبى زيارة الطبيب، بخل على نفسه كي يطعم فلذات كبده ويُكسيهم. وكان عنيدًا أيضًا، لم يتوقف عن العمل فقد عرف في قرارة نفسه أن الرحمة لا تسكن قلوبهم، سيستبدلونه ويخسر رزق عائلته إن غاب لمدة تتجاوز الأسبوع..

لم يحتمل جسده سوى ثلاثة أسابيع حتى انهار وسقط مغمى عليه وهو مغادر المنزل.. هناك بدأ الخوف يتسرب إلى داخله وقرر إراحة نفسه بضعة أيام.. لكن لم يكن أحد مدركًا كم كانت حال العم موسى خطيرة!

كانت الخالة منيرة نِعْم الجارة، داومت على عيادته كلّ يوم، آخذة معها بعض الأعشاب الطبية التي لم يكن لها تأثير كبير لكنها جعلته يجد بعض الراحة في جسده، ما بعث بعض الطمأنينة في نفوس أبنائه.. لكنها لم تكن شافية كافية لمرضه.

عُرف العم موسى -أو كما يُلقَّب بين أقرانه «الحاج موسى»- بكرمه وجوده على الرغم من فاقته. ساعد كلَّ محتاج في القرية، الكلُّ هناك يشهد له بذلك، لكنهم كحاله.. نهش أجسادهم الفقر، لم يجدوا شيئًا يعينون عائلته به سوى الدعاء.

يُروى عنه أنه كان يتفقَّد جيرانه كُلَّ يوم، يرى إنْ كانت بهم حاجة لشيء أتاهم به إن وجد لذلك سبيلًا، فقد أحب أن يصل درجة أولئك «الذين يُؤْثِرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة»، كان طيِّبًا باسم الوجه دائمًا، يلاعب الصغار ويحترم الكبار.. وجد مكانًا له في قلوب أهل القرية كما ملأ حبهم فؤاده.

قبول قد وضع له في الأرض، وهو سبب النور في وجهه يوم وافته المنية.. ذلك اليوم الذي قلَب حياة بلال رأسًا على عقب.. لم يرث من أبيه سوى مشقة الاعتناء بأختيه، مريم الصغيرة وعائشة صاحبة الثلاثة والعشرين ربيعًا..

الحادية عشرة وعشر دقائق..

اجتمع أهل القرية ليودّعوا الرجل الذي طالما رسم البسمة على وجوههم، ولأول مرة اليوم ها هو يُسيل دموعهم على تلك الوجوه..

من كلّ بيت من البيوت القليلة أتاهم حاملًا شيئًا يسيرًا من الطعام. جلسوا يشاركونهم مصابهم، فليس فقط بلال وأختاه من فقدوا عزيزًا اليوم بل كلُّ القرية فَقَدَت!

بعد ساعات من الحزن الذي التهم ضجيج المكان، أخذوا العم موسى ليُغسَّل ويُكفَّن.. بعدها حُمِل على الأكتاف نحو مرقده الأخير، نحو حفرة ظلماء.. إلى حياة البرزخ.. حيث لا ينفع مال ولا بنون، إلا عمل صالح وقلب سليم.

أُرقد في سلام يا «الحاج موسى» فقد شهد على خيرك البشر والحجر، هكذا قال إمام القرية بعد صلاة الجنازة.

هناك ووري التراب على نور وجهه.. وهناك ودّع بلال سنده وأصبح رجل العائلة وهو لم يتجاوز سن السابعة عشر.

مرت الأيام الأولى ولم يطأ قدم الأبناء الثلاثة الخارج، مكث كلّ واحد منهم في زاوية من تلك الغرفة المظلمة، تكاد تسمع دبيب النمل فيها. كلما أتت الخالة منيرة للاطمئنان عليهم وجدتهم على الحال نفسها.. كانت مريم الوحيدة بينهم من تقف عند رؤية الخالة وتركض نحوها بكلّ دموعها وتسألها:

- متى يرجع أبي؟ لقد اشتقت إليه..

تنظر إليها الخالة بحزن يسرق من لسانها الكلمات.. تحتضنها بشدة وتبكي.. ثم تتركها قائلة:

- تناولي شيئًا يا بنيتي..

وترد مريم: لاااا.. أريد أبي!

تقف عائشة وتمسك أختها وقد احتدّت قبضتها عليها وتخبرها بأن أباها لن يعود بعد اليوم! فقد ذهب إلى جوار أمها.. لكنّ مريم لم تكن تعلم أين ذلك المكان، وتسألها ببراءة:

- إذن سيأتيان معًا!

تصمت عائشة وترجع إلى مكانها وتقابل الحائط مستلقية، لكنّ صوت بكائها كان صاخبًا، فتذهب مريم إليها وتقول:

- لا تبكي سيأتيان قريبًا!

لم يحتمل بلال كلّ ذلك وهمّ بالخروج، كانت تلك المرة الأولى بعد أيام يغادر فيها المنزل.. لم يكن يعلم أين ستقوده قدماه؟ ولا ماذا عليه أن يفعل؟

- هل تبكي يا معاذ؟
- لا، مجرد غبار دخل إلى عينيّ.
- كاذب! أنت تبكي.
- قلت مجرد غبار.
- أظنك تأثرت بمريم.
- حسنًا، نعم تأثرت.. وتذكرت أيضًا يوم فقدت والدتي وأنا صبيّ صغير كحال مريم، كان الأمر غير منطقي حينها، كنت أظن أنها ذهبت إلى مكان آخر اسمه الجنة، لم أعلم يومها أنه في السماء!

طلبت من أبي مرارًا وتكرارًا أخذي إليها، وفي كلِّ مرة كان يبكي ويعانقني بشدة.. وفي أحد الأيام ساقني إلى المقبرة، كانت جميلة وصاخبة على الرغم من الصمت الهائل، كنت أظنها الجنة.. ولما وصلنا إلى قبر أمي -رحمها الله- قال لي أنها نائمة هنا، جلست أمامه وبدأت أطرق على الشاهد وأخاطبها بأن تستيقظ وتفتح لي الباب..

- لا عليك يا حبيبي، ليس عيبًا أن يبكي الرجال. ابكِ فالبكاء أحيانًا راحة للنفس، ولسان حالنا لما تعجز الكلمات عن الوصف.. ابكِ فأنت في حضن زوجتك. دائمًا هناك آلام تتصدّع من وقعها الجبال، وفقدان الأم من أصعب ما يمر به المرء في حياته، فراقها أشدُّ الأقدار وجعًا ووطأةً على قلوبنا.. لذا لا عليك يا حبيبي، دعنا نبكي معًا فنحن تعاهدنا على ذلك، بالحب في أول الأمر وبالزواج الآن.
- هلا أكملتِ يا حبيبتي!
- خرج بلال واتجه نحو المدينة.. ذهب لزيارة شركة أبيه، طلب لقاء المدير، لكنهم كانوا دائمًا يخبرونه بأنه مشغول ولا يستطيع مقابلته.. كانوا على علم بأنه ابن موسى -رحمه الله- وعلى الرغم من ذلك أبَوْا مساعدته.

لم يكن بلال ممن يرضى بالإهانة، اقتنع في باطنه أنهم كالورقة الخاسرة لن تفيد لاعبًا في شيء.. وعليه البحث على عمل كي يعيل أختيه.

بحث كثيرًا، كان الجميع يرفضه لصغر سنه.. طرق كلّ الأبواب لكنها لم تفتح له. اعتاد الرجوع إلى المنزل متأخرًا، ودائمًا يجدهما نائمتين إلى جانب بعضهما.. يلقي بطانيته فوقهما ويجلس في زاوية الغرفة يفكر ويفكر حتى تنام عيناه، أمّا قلبه فيأكله الأرق كلّ ليلة. تستيقظان صباحًا فتجدانه هناك وقد بدى عليه التعب من صوت أنفاسه..

ظل الحال كذلك مدة شهر، لم يجد بلال عملًا.. وبدأ قوتهم ينفد، حتى الخالة منيرة لم تعد تستطيع مساعدتهم، ولا أهل القرية. كلهم كان محتاجًا!

ذات يوم رجع بلال باكرًا، ذهب مباشرة نحو الخراف، وطلب من أخته عائشة أخذ مريم والذهاب بها إلى بيت الخالة منيرة.

بعدها جاء بعض الرجال إلى بيت بلال وكانوا تجارًا؛ إذ باع تلك الخراف الثلاثة فلَم يتبقَّ له خيار آخر، كان لزامًا عليه على الرغم من صعوبة الأمر.

ذهب معهم إلى المدينة ورجع ببعض الخضر والبقول ما يكفيهم شهرًا آخر.. لكنّه كان مدركًا أن ذلك ليس كافيًا لأن ذلك المال الذي جناه من بيع الخراف سينتهي يومًا وسيعود كابوس العمل!

مر شهر آخر بالمعاناة نفسها وبالصعوبة نفسها، ولا يزال بلال يطرق الأبواب في المدينة رجاء رزق حلال.. لكنّه لم يجد.

ذات يوم حدث أن صادف إعلانا لتاجر في المدينة يبحث عن عامل ليشغل منصب بائع في أحد محلات الملابس، كان ذلك عرضًا مغريًا وفرصةً ذهبية مقارنة بحال بلال البائسة.

كأي شخص، قصد بلال المحل ودردش مع صاحبه، هذا الأخير طلب منه رقم هاتفه ليتصل به إذا قُبِلَ، لكنّ بلال لم يكن يملك هاتفًا ما جعله يتصبب حرجًا وأسرع بالمغادرة!

تبعه صاحب المحل بسرعة بعد ما أدرك بأنه شاب فقير معدم، واستوقفه قائلًا: لا عليك يا أخي، يمكنك الرجوع غدا لتعرف إن كنت مقبولًا هنا، فكما ترى هناك الكثير ممّن تقدم لهذا العمل ويجب مقابلة الجميع حتى أختار الأنسب بينكم.

استمع بلال لكل كلمة ثم غادر بعد إيماءةٍ برأسه لم يعرف التاجر معناها.

في صباح الغد، رجع بلال وفوجئ بفتاة هناك في المحل طلبت منه الانتظار قليلًا حتى يحضر صاحب العمل، حينها أدرك أنها لم تكن مجرد فتاة عادية بل كانت العاملة الجديدة!

خرج من المحل يحمل غضبه الذي غزا مُحياه، مهرولًا لا يعلم أين ستسوقه قدماه، كانت خيبة أمل كبيرة اضطر بلال لابتلاعها رغم مرارتها، وأخذ يندب حظه التعيس ويتساءل كيف سيسد جوع أختيه؟

أصبحت حال العائلة صعبة، نفد منهم قوتهم وبلال لم يجد عملًا يعيلهم به، ما جعله يذهب كل يوم نحو المدينة ويسأل عند كل محل عن عمل، حتى كسر أحد الباعة شوكته وقتل كل أمل له حين قال له:

«من أين لك الجرأة لتسأل عن عمل هنا في وهران الباهية أيها الريفي البائس، انظر إلى لباسك كيف هو مهترئ، ألا تملك مرآة في المنزل لترى حالك هذه؟ اذهب من هنا إلى ريفك وصاحب الغنم والبقر!»

صمت بلال وطأطأ رأسه ومشى في حال سبيله، وعند أول زاوية انفجر بالبكاء وجلس هناك منكسرًا، قبع في مكانه حتى أسدل اليوم رداءه الحالك وحل عليه الليل الذي هو أجمل سترة لعورة الفقراء.

فاجأ بلالَ أحدُ الأشخاص عندما اقترب منه وسأله عن حاله، لكنه لم يكن يملك القدرة على إخراج الكلام بعد كل ما تعرض له. أخرج ذلك الشخص من جيبه ورقة نقدية من فئة ألفي دينار وأعطاها إياه وقال له:

خذ هذه سُدّ بها حاجتك لهذه الليلة، وغدًا تعال إلى هذا المكان إذا أردت المزيد والكثير من مثلها. سآتي لمقابلتك وسأعرض عليك عملًا إن كنت مهتمًا، وعُدَّ هذا المبلغ حُسنَ نية!

لم يعرف بلال ماذا يفعل أو ماذا يقول لحظتها، لكن حاجته جعلته يقبل تلك النقود من ذلك الشخص الغريب دون سؤال. بعدها غادر مسرعًا إلى المنزل وتوقف في طريق عودته عند بائع اللحم وأخذ بعض القطع ليُسعِد بها أختيه.

استغربت عائشة من ذلك وسألته من أين له ذلك؟ فرد عليها:

أبشري يا عائش، أظنني وجدت عملًا جيدًا!

عانقته من شدة الفرح حتى أصابت بلال الدهشة من ذلك الموقف..

كانت تلك أول مرة تبتسم فيها منذ شهور، وأول مرة سيتناولون اللحم منذ زمن بعيد..

في حين ما زالت مريم تسأل عن عودة والدها، لم تستطع تحمل فكرة ذهابه بلا رجعة، لم تعِ ما معنى الموت. هذا ما حدث معها عندما توفت أمها، كانت تظنها مسافرة نحو بلد ما! تجلس كلّ يوم أمام باب المنزل واضعة يديها على وجنتيها منتظرة من لن يأتي أبدًا!

حاول بلال أن يقتل ذاك الانتظار الذي جعل مريم تظهر في لباس الحزن دائمًا، فأخذها معه في الغد إلى المدينة.. جعلها تشاهد تلك البنايات الشاهقة لأول مرة، وذلك العدد الهائل من البشر، كانت تظن أنه أخذها للبحث عن أبيها هناك! نظرت في وجه كلّ رجل في سنّه لعلّه يكون بينهم، لكنها بدأت تسهو عن ذلك الأمر لما دخلوا حديقة الألعاب. أصابتها الدهشة من كلّ تلك المجسمات الغريبة، من أولئك الأطفال وهم يمرحون ويضحكون فابتسمت!

ركضت نحوهم وبدأت تختلط بهم وتلاعبهم، ضحكت حتى دمعت عيناها لكن من الفرح هذه المرة، فقد تنفس داخلها أخيرًا. لم تكن تنتظر أحدًا حينها، سوى انتظارها على طابور الألعاب متحمسة، والبسمة تداعب وجهها الجميل!

تأخر الوقت وحان وقت العودة إلى المنزل، لكنّ مريم لم ترد ذلك، تعلقت بالمكان وبالأطفال، وبكلّ زاوية هناك.. كانت سعيدة جدًّا وبعض السعادة لا تدوم!

أخبرها بلال بأنه سيأتي بها هنا كلّ أسبوع.. فردت عليه والدموع تملأ مقلتيها الجميلتين:

- هل تعدني؟

نزل على ركبتيه وأمسك كتفيها وقال مبتسمًا:

- نعم يا حبيبتي أعدك، دعينا نذهب الآن قبل حلول الظلام.
- جميل وجود الأخ في حياتنا يا خديجة، الآن أدركت ذلك حقًّا؛ نعم لن يكون في مقام الأب لكنّه قد يسدُّ فراغه بعض الأحيان..
- صدقت يا معاذ، فالأخ هو ذلك الجبل الذي تستند عليه أرواحنا المائلة، الأخ هو القوة التي تجد طريقها إلينا حين ضعفنا، والرحمة التي تقع على قلوبنا المنكسرة فتَجبرها.. الأخ ببساطة هو الأب الثاني.

- لكن يا خديجة، ليس كلّ الإخوة كذلك، هناك من دنّس طهارة هذا اللقب، خاصة في هذا الزمان أين أصبح حب النفس يأتي قبل كلّ شيء، فضاع جوهر الأشياء. تعج الصحف اليومية بأخبار تصيبك بالدهشة، كإخوة يتشاجرون فيما بينهم من أجل الميراث، ولعلّكِ أكثر مني اطلاعًا عن أمور كهذه، حتى وصل الحال ببعضهم إلى قتل بعض!
- نعم يا معاذ، لا تستغرب فنحن في آخر الزمان، وقد تنبأ لحالنا اليوم رسولنا الحبيب. انتظر قليلًا، أنا أبحث عن حديث مرّ عليّ في هذا الشأن..

ها قد وجدته فاسمع..

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال:

(كان رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُنَا أن بَيْنَ يَدَيْ السَّاعَةِ الْهَرْجَ. قِيلَ: وَمَا الْهَرْجُ؟ قَال: الْكَذِبُ وَالْقَتْلُ. قَالُوا: أَكْثَرَ مِمَّا نَقْتُلُ الْآنَ؟ قَالَ: إِنَّهُ لَيْسَ بِقَتْلِكُمْ الْكُفَّارَ، وَلكنه قَتْلُ بَعْضِكُمْ بَعْضًا، حَتَّى يَقْتُل الرَّجُلُ جَارَهُ، وَيَقْتُلَ أَخَاهُ، وَيَقْتُلَ عَمَّهُ، وَيَقْتُلَ ابْنَ عَمِّهِ. قَالُوا: سُبْحَان اللَّهِ! وَمَعَنَا عُقُولُنَا؟ قالَ: لَا، إِلَّا أَنَّهُ يَنْزِعُ عُقُولَ أَهْلِ ذَاكَ الزَّمَانِ، حَتَّى يَحْسَبَ أَحَدُكُمْ أَنَّهُ عَلَى شَيْءٍ وَلَيْسَ عَلَى شَيْءٍ.)[1]

- صلى الله عليه وسلم، قالها كأنه بيننا اليوم يا خديجة.
- نعم يا معاذ والأحاديث كثيرة عن الفتن التي ستحدث وأغلبها قد حدثت.. فنسأل الله السلامة.

انظر أين أخذنا الحديث، والآن لنعد أدراجنا لمريم، التي كانت محظوظة بأخ كبلال..

فرحت بكلامه ذاك ورجعوا إلى البيت، كانت رائحة اللحم قوية جدًّا، وجدوا عائشة قد حضرت مأدبة العشاء ودعت الخالة منيرة وابنتها شيماء صاحبة العيون الزرقاء!

جلس الجميع على المائدة، أكلوا حتى الشبع، تحدثوا عن أشياء جميلة وضحكوا، عادت الروح لذلك البيت أخيرًا، كان كلّ شيء رائعًا، وما زاد تلك الليلة تشويقًا نظرات بلال لشيماء التي لاحظتها الخالة منيرة.. فخاطبته قائلة:

- أظنك يا بلال قد أصبحت رجلًا وحان وقت زواجك، إنك على أعقاب العشرين..

فاحمرّ خجلًا من قولها، وقال:

- ليس بعد يا خالة..

[1] رواه أحمد في المسند (409/32)

ضحكت الخالة منيرة وعائشة على لون وجهه، وحتى شيماء لم تستطع الكلام ولا رفع نظرها عن الأرضية، فقد كان الأمر جليًّا للجميع حتى مريم سُرَّتْ وعلا صوتها قائلة:

- سيتزوج بلال.. سيتزوج بلال..

حاول إسكاتها لكن غلبه الضحك.. كانت ليلة جميلة بكلّ ما فيها.

بعدها قامت الخالة منيرة وابنتها مغادرتين، شكروا الجميع على الدعوة وهموا بالخروج، ظل بلال يرقب شيماء وهي مغادرة، وبادلته تلك النظرات المحتشمة. رأتهما عائشة فاقتربت منه ودفعته بكتفها ونظرت إليه، كادت أن تنفجر من الضحك، لكنها حبسته حتى أغلق الباب وأطلقت العنان لنفسها. ضربها بلال وطالبها بكبح جماحها، لكنها كانت تزداد ضحكًا وتقول:

- كشفتك أيها العاشق الولهان..
- أزهر قلبه أخيرًا، غريب ما يفعله الحب بنا يا معاذ!
- غريب جدًّا يا خديجة، كيف لشخص واحد من بين كلّ من يحيط بنا أن يدفعك لتبتسم ويجعل عيونك تتلألأ فرحًا؟

وكيف تُبكيك كلمة منه فجأة في حين أنت تضحك بكلّ قوتك؟!

الحب يا خديجة أن تراهن على قلبك فوق طاولة شخص ما وتمنحه القدرة على قتلك، وأنت لا تعلم هل سيفعل ذلك؟ أم سيبعث الحياة داخلك؟

وها أنا أفعل ذلك معكِ! أحبك يا خديجة، أرجوكِ اعتني بقلبي جيدًا..

- أحبك يا معاذ، فأنت الذي أقام بنيان قلبي الخرب، أنت الذي جعلني أرى الحياة جميلة مرة أخرى، حبك جرعة سعادة لا أشتهي انتهاءها، أريدك أن تحبني دائمًا، أن تحبني على كلّ حال، وعلى الرغم من سوئي، أن تحبني حتى بعد موتي، فأنا أحبك أكثر من ذلك يا معاذ! لا تخف على قلبك فإنه جزء مني، إن أصابك مكروه سيصيبني ضعفه..
- الحمد لله عليكِ، أنتِ أعظم نعمة أهداني إياها ربنا، والحمد سبيل لدوام النِعم، فالحمد لله دائمًا وأبدًا.

بعد تلك الليلة يا معاذ أصبح بلال يتغيب كثيرًا عن المنزل، يخرج في الصباح الباكر ولا يعود إلا بعد منتصف الليل، لا يأكل في المنزل أبدًا، انتاب عائشة القلق عليه، لا تريد أن يعترض طريقه أحد اللصوص في ظلمة الدجى ويؤذيه أو قد يسلبه حياته، فحذّرته وطلبت منه الرجوع قبل حلول الظلام؛ لكنّه طمأنها وأخبرها أن عمله يستلزم ذلك!

سألته:

- ما هذا العمل يا بلال؟

تهرب من الإجابة وقال بصوت مرتفع:

- من يريد أن يذهب إلى المدينة؟

سمعته مريم وبدأت تقفز من الفرح وتقول:

- أنا.. أنا..

نظرت إليه عائشة بوجه مشدود وأعين قد مُلئت ريبة، تنهّدت ولم تستطع فعل شيء وانتظرت عودتهم مساء، جلب معه بعض الملابس لها ولمريم التي غزا السرور محياها، أخرجت بعضها من الأكياس وبدأت ترقص وتضعها على جسمها الصغير متباهية، ثم قالت لعائشة:

- انظري يا عائش كم هي جميلة!

أمسكت عائشة ببلال من يده وأخذته إلى زاوية الغرفة وقالت بغضب:

- من أين لك المال يا بلال؟

ردَّ عليها وعيناه تسرح يمينًا وشمالًا:

- أنا أعمل يا عائش!

ازداد غضبها وصرخت في وجهه:

- هل أصبحت لصًا يا بلال؟؟ أمسكها وقال:
- لا يا عائش، أقسم لك لست لصًا، أنا أعمل لكن لن أستطيع اطلاعك على الأمر الآن، فقط أريد ثقتكِ بي. حسنًا؟

أرادت عائشة تصديقه كي يهدأ ضجيج رأسها وقالت بصوت حزين: حسنًا يا أخي، فقط اعتنِ بنفسك لا أريد وداعك أنت أيضًا.

من شدة وقع كلماتها ودموعها التي ملأت عينيها أراد احتضانها بشدة لكنّه لم يفعل..

في تلك اللحظة رن هاتف بلال، تفقده وهرع نحو الخارج، بعد دقائق عاد للداخل وأخبرهم أنه سيعود بعد ساعتين ولن يتأخر؛ حاولت عائشة منعه لتأخر الوقت، لكنَّه كان عنيدًا وطلب منها ألا تقلق عليه فهو ذاهب للقاء صديق فقط. وغادر.

لم تستطع عائشة النوم تلك الليلة، خاصة أنه طال غيابه أكثر مما أخبرها به، جلست في زاوية الغرفة تنتظره وكلها خوف حتى سرقها النوم من شدة التعب، وعندما استيقظت صباحا وجدت نفسها على فراشها وفوقها البطانية. أدركت أنه بلال من حملها إلى هناك فارتاحت نفسها لكن ليس بذلك القدر الذي قد يقتل مخاوفها.

مرت ثلاثة أشهر على ذلك النهج، وحل فصل الشتاء، لم يحتمل سقف المنزل تلك الأمطار الغزيرة التي نهشت منه حتى أصبح الماء يتسرب داخلًا ولم يكن هناك حل أمامهم سوى الذهاب لبيت الخالة منيرة، فطلبوا منها المكوث حتى يمر الشتاء، فلم تمانع..

هناك بدأت قصة بلال وشيماء تنمو داخل جدران المنزل؛ إذ أصبح يراها كلّ يوم، ويبتسم لها مع كلّ وجبة على مائدة الطعام.

كان يأتيهم بكلّ ما يحتاجونه ولم يبخل بشيء عليهم، فقد ورث -أيضًا- جود أبيه وكرمه، حتى أنه ساعد أهل القرية في التزود لذلك الشتاء الصعب على قاطني الريف..

في إحدى المرات كان بلال يهم بالمغادرة باكرًا، ظن أنه أول من استيقظ، لكنّ شيماء كانت تتجول في أرجاء المنزل أيضًا، وفي تلك الزاوية حدث أن اصطدم بها، تأسف منها وأخبرها أنه لم يكن منتبهًا؛ قالها بسرعة لأنه كان مرتبكًا، ردت عليه بخجل وعيناها تكاد تلامس الأرضية:

- لا عليك، هل أحضر لك شيئًا تأكله؟ أظنك مغادر لأنك لبست حذاءك.

وضع يده على رأسه ونظر إلى قدميه وقال:

- الحذاااء! نعم.. نعم، أنا ذاهب للعمل، لكن سيكون جميلًا إن أكلت شيئًا قبل المغادرة..

لكنَّ القصد من الكلام غير ذلك، أكان يعني أنه سيكون جميلًا الجلوس معها والتمتع بسحر عينيها؟

وراء تلك الجدران كانت عائشة تختلس النظر، لم يهدأ قلبها على أخيها، راقبته كلّ صباح وهو يغادر. هناك رأتهما وهما يتحدثان وسمعت كلّ كلمة، فتركتهما جلسا وتحدثا قليلًا، قرأت في عينيه كم كان سعيدًا وهو يحادثها، لم يدخل فمه شيء من الطعام، لأن قلبه الذي كان يتضور حبًا لشيماء!

دخلت عليهما بعد دقائق فارتبك بلال، دفع الكرسي حتى وقع أرضًا وقام نظر خلفه، وجدها عائشة فارتاحت نفسه؛ إذ خشي أن تكون الخالة منيرة، رمقته عائشة بابتسامة تخفي وراءها كمًا هائلا من الضحك، لكنها حبسته، لم يتفوه بشيء سوى: شكرًا على الفطور! قالها وغادر مسرعًا..

كان ذلك اليوم الذي ذهب بلال ولم يرجع تلك الليلة، بقيت عائشة مستيقظة حتى الصباح، أكلت أظافرها من شدة التوتر، ملأ رأسها خطوات الأفكار السيئة التي تغذّت على راحة نفسها، لم تكن تملك هاتفًا لتتصل به، ما زاد الأمر سوءًا. حاولت الخالة منيرة طمأنتها، لكنّ الخوف تغلغل في أعماقها وطوّقها حتى من الخارج، ما جعلها في حالة شرود تام، كانت تخطو ذهابًا وإيابًا من نافذة إلى أخرى وهي تراقب الخارج لعله يظهر أخيرًا كي يغتالَ تلك المعاناة التي أرهقتها، لكن لا أمل..

مرت ليلة أخرى وعائشة على الحال نفسها، لم تأكل شيئًا منذ يومين، هناك بدأت حالة من الفزع تصيب الجميع، حتى شيماء كان الخوف باديًا على وجهها الجميل الذي أخذ في الشحوب، كانت قد تعلقت به أيضًا، وفي لحظات كتلك يا معاذ تظهر حقيقة مشاعرنا!

- نعم يا خديجة، أتذكر أول مرة أيقنت فيها أني أحبك، كان هاتفك مغلقًا طوال اليوم وأنا أتصل بكِ حتى جُن جنوني، وخرجت أبحث عنكِ في كلّ مكان قد زرته من قبل!
- أتذكر ذلك يا معاذ، لقد كسرت يومها قفل الباب ودخلت عنوة، وجدتني نائمة كطفلة صغيرة؛ أيقظتني بعنف حتى آلمتني، قلت لي حينها بغضب: إياكِ وفعل هذا بي مجددًا، كنت جميلًا يا معاذ وأنت غاضب ما جعلني أبتسم لك.
- لم تبتسمي فقط أيتها الحمقاء، ضحكت حتى سمعك المارون على الرصيف. هناك اعترفت لكِ بحبي أول مرة..
- قلتها وأنت تصرخ: أحبك يا خديجة. كان ذلك أجمل شيء سمعته على الإطلاق..
- كفاكِ رومنسية، وأكملي القصة..
- لا، سنتابع ليلة غد..
- أرجوكِ؛ إنها عطلة نهاية الأسبوع دعينا نستمر..
- مممممم.. حسنًا.

في تلك الليلة عاد بلال إلى المنزل، لكنَّه لم يكن في حالة جيدة؛ إذ كان يمسك بطنه وسقط على عتبة الباب، رأته عائشة فأسرعت نحو المدخل وهي تصرخ: إنه بلال.. إنه بلال..

لما جعلته مستلقيًا على ظهره وجدته مغطى بالدماء! كان ينزف واختلط عليها الأمر، عادت بها الذاكرة إلى يوم توفي والدها. أصابها الشلل ولم تحرك ساكنًا، حتى أتت الخالة منيرة وابنتها، حاولوا إيقاظها من صدمتها، لكنها كانت تنظر إلى يديها الملطختين بدماء بلال وتبكي بحرقة..

حملت الخالة بلال من جانب ذراعيه وتوجهت شيماء نحو الجانب الآخر. لم يستطيعوا حمله كليًّا؛ فأدخلوه إلى منتصف المنزل بصعوبة. أسرعت الخالة منيرة بوضع قماش على الجرح لإيقاف النزيف، تفقدت الجرح قبل ذلك وسعدت أنه لم يكن عميقًا، هذا ما جعله ربما يصل إلى المنزل حيًّا، فكَوَتْ الخالة الجرح بسكين ساخنة، فتوقف النزيف أخيرًا، ثم نظَّفَت شيماء الجرح وخاطته بأصابع ثابتة كأنها معتادة على ذلك!

لم تستطع عائشة التوقف عن البكاء على الرغم من طمأنة الخالة لها، أرادت رؤيته مستيقظًا كي يهدأ قلبها، ظلّ بلال نائما طوال الليل وعائشة مستيقظة أمام رأسه تراقبه، أمّا مريم فقد تعبت من البكاء ونامت إلى جانبه على الأرض ويدها ممسكة بيد بلال..

لم يستيقظ حتى وقت الضحى. وجد الجميع حوله، فابتسم؛ لكنّ عائشة لم تعرف كيف تعبر عن نفسها فصفَعَتْه! وغادرت الغرفة. بقي الجميع صامتًا، حتى صرخت مريم قائلة: متى تأخذني إلى المدينة يا بلال؟ ضحك الجميع لحظتها من براءتها وخفة دمها..

لم تتحدث عائشة مع بلال طيلة أسبوع، تركته حتى التأم جرحه وعادت له عافيته، وصبَّت عليه جم غضبها. كان قد أخبر الخالة أنهم مجرد لصوص قد اعترضوا طريقه، لكنّ عائشة لم تصدقه، كانت تدرك في أعماقها أنه قد أقحم نفسه في أمر سيئ، فحاولت جعله يعترف لها لكنّه كان عنيدًا وتمسّك بقصة اللصوص.

أخبرته أنها ستذهب معه إلى عمله، كي ترى حقيقة الأمر لكنَّه أبى، أخبرها أنه يوجد الكثير من الرجال هناك ولن يسمح لها بذلك أبدًا، فيئست منه لكنها لم تيأس من نفسها.

قررت في أحد الأيام اتباعه سرًا إلى المدينة، تنكرت في لباس محتشم، وذهبت وراءه.. تقفت أثره حتى باب أحد المصانع المهجورة. بدأ قلبها ينبض بسرعة، لأنه مكان بعيد عن الأنظار، خشيت أن يهاجمها أحد اللصوص هناك فأسرعت بالمغادرة.

في تلك الليلة رجع بلال متأخرًا كعادته، وجدها تنتظره وكلها غضب. عندما دخل أمسكته وأخذت بيده إلى المطبخ وأغلقت الباب.. قالت بصوت خافت:

- ماذا كنت تفعل في ذلك المكان المخيف؟

أجابها بحيرة: أي مكان مخيف؟؟

- أنت تعلم جيدًا ما أتحدث عنه، ذاك المصنع الذي دخلت إليه صباا..

لم يتركها تكمل كلامها ووضع يده على فمها وقال:

- صه، لا تتحدثي عن ذلك المكان مجددًا، فللجدران آذانها!

نزعت يده وقالت: ماذا تفعل يا بلال؟ أخبرني أرجوك!

أراد التهرب من الإجابة، اقترب وهمس في أذنها بشيء جعلها تنظر إليه كأنها رأت شبحًا، أرادت الجلوس على الكرسي الذي وراءها لكنها سقطت أرضًا!

دنا منها بلال، حينها ردت عليه بحيرة: ماذا تقول أنت؟

لم يعلم ما يجيبها وصمت ناظرًا إليها طويلًا، ثم قال:

- كانت تلك آخر كلمات أبي قبل وفاته!

- لماذا احتفظت بشيء كهذا لنفسك؟
- لا نعلم إن كان حقيقة أم مجرد وهم أراد أبي تصديقه؟

اختلطت الأمور على عائشة ولم تعرف ماذا تفعل؟ أخبرته ألا يفشي ذلك لأحد، حتى يتأكدوا من صحته.. فقال لها:

- يجب أن ننتقل إلى المدينة ومن هناك سننقب عن الأمر، الآن دعي كلّ شيء على عاتقي حتى أجد لنا بيتًا هناك.

توقفت عن إزعاجه بسؤالها عن عمله، لأنها أرادت أجوبة لأسئلة أهم.. كيف حدث ذلك؟ ولماذا لم يخبرنا أبي عن الأمر؟

وهل بلال صادق في قوله؟ أسئلة كثيرة جعلت من عائشة تائهة طوال الوقت، لم تعد تستطيع الكلام ولا الضحك. لاحظت الخالة منيرة حالتها البائسة، حاولت جعلها تبوح بما يؤرقها لكنّ عائشة كانت تخبرها بأنها اشتاقت لأبيها فقط، لا شيء آخر.

- لماذا البوح صعب هكذا يا خديجة؟ أليس من المريح إخراج الإنسان ما بداخله؟
- البوح بما يؤلمنا خيانة عظيمة لأنفسنا يا معاذ، خيانة تدفعنا للاعتراف بأننا ضعفاء لغيرنا، أو كنا يومًا كذلك، أن نخبر غيرنا بما يمكنه إيلامنا، وطريقة فعل ذلك؛ البوح يا معاذ يجعلك تُعايش ألمك من جديد، كأنك تفتح جراحك وتجعلها عرضة لأصابع غيرك كي تنقب فيها!

ليس كلّ ما في القلب قابل للبوح يا معاذ، فهناك أشياء لا يليق بها إلا الوأد في مقبرة الفؤاد.. وليس كلّ من نبوح له بما يؤلمنا سيكون بئرًا عميقًا لأوجاعنا، ولا في استطاعة أي بشر أن يكون شفاءً لجروح القلب لأنها لا تلتئم إلا برحمة الله وحده سبحانه، بالقرب منه والشكوى إليه دون غيره لكيلا نقع في المذلّة!

البوح يا معاذ حرب مؤلمة جدًّا بين العقل والفؤاد، بين ألم الكتمان والخوف من الندم.. صدّقني!

- نعم قد يكون كذلك، ولا شك أن الأشياء الجميلة طريقها محفوفة بالألم، لكن ليس صحيًا إبقاء الإنسان كلّ غضبه وبؤسه سجناء الكتمان، فبذلك هم يحرقون باطنه، إن كان إخراجهم موجعًا جدًّا كما تقولين فهو أهون من إبقائهم داخلا يعيثون فسادًا في أنفسنا، علينا البحث عن المكان المناسب للتخلص منهم، أو الشخص المناسب ليحملهم عنا.. حينها ستمطر الأجواء داخلنا وتزهر قلوبنا، فلا تترددي في البوح لي يا خديجة بأي أمر يتعبك، أنا هنا من أجلكِ دائمًا.
- أنت أيضًا يا معاذ لا تتردد في البوح لي أبدًا.
- أعدك بذلك حبيبتي. والآن هلا أكملت فأنا مستمتع بحديثك جدًّا!
- حسنًا.

انقضى شهر آخر، رجع بلال إلى عمله المعتاد، وبقيت عائشة سجينة حيرتها، وفي تلك الأيام أزهرت علاقة بلال بشيماء، أصابهم داء الحب الذي لا دواء له إلا الزواج. يلتقيان في الصباح الباكر قبل استيقاظ الجميع، يقضيان بعض الوقت في المطبخ، ويغادر بلال المنزل بعدها..

لم تتذمر الخالة من وجود عائلة العم موسى معها، لأن عائشة كانت تساعدهم في أعمال المنزل، وبلال يأتيهم بمستلزمات الحياة كلها. قضوا هنالك عامًا آخر، في خلاله تمكن بلال من شراء منزل في المدينة. فكان الفراق صعبًا على الجميع، لذا قررت الخالة منيرة تزويج ابنتها لبلال، هكذا سيتمكن الجميع من مغادرة الريف والذهاب لحياة المدينة، إلى مدينة وهران الباهية.

انتهى التحضير للعرس الذي انتظره العشيقان بفارغ الصبر، وبعد أشهر قليلة أقاموا الوليمة في بيت الخالة منيرة واجتمع أهل القرية كلهم هناك، فرح الجميع وقضوا وقتًا ممتعًا. وفي الغد انتقلت العائلة نحو المدينة.. بيت جديد، حياة جديدة.. وقصة جديدة.

- تذكرت يوم زفافنا يا خديجة، كنتِ جميلة جدًّا، سرقتِ قلب كلّ من حضر يومها، أخبرني أبي -حفظه الله- أنك تشبهين والدتي كثيرًا، خاصة وأنت تكتسين البياض، لذا أنا دائمًا أحترمك وأعاملك كملكة، لأنني حقًّا عايشت معك حنان الأم، أحب معاملتكِ لي كطفل صغير، تخافين عليّ وتعاتبينني دائمًا، خاصة إن فعلت شيئًا ضارًّا بصحتي، كذلك اليوم الذي خرجت فيه دون معطف وأصابني الزكام، ظَلْتِ مستيقظة من أجلي حتى تحسنت حالي، وبعدها أصبحت تختارين لي الملابس التي أخرج بها، ولم أتذمر يومًا من هذا الشيء، بل أحببته حقًّا.. وأحببتكِ حد الجنون!
- كذلك أحببتك أنا يا معاذ، أنت كلّ شيء بالنسبة إلى، زوجي الحبيب، أبي وأمي، إخوتي وأخواتي، حتى الصديق.. أنت الجميع في شخص واحد، لا أعلم كيف يمكنك أن تكون كذلك لكنَّها حقيقة لا أستطيع تفنيدها ولا تفسيرها أيضًا! لقد رأيت معك جمال الحياة ونورها وما أزال أعيش ذلك كلّه كلّ يوم ولا أرغب في فقدانه، ببساطة يا معاذ، أتمنى بقاءك إلى جانبي حتى آخر نَفَس، فلا قدرة لي بعدك في البقاء على قيد الحياة!

وبالحديث عن جمال الحياة، كانت مريم قد تراقصت فرحًا بالبيت الجديد، لأنَّها ستتمكن من الدراسة الآن، آملة ألاَّ يصل بها الحال كحال أختها حبيسة البيت والظروف. وسيصبح لديها العديد من الصديقات..

أمّا عائشة فقد نُفخت في وساوسها الحياةُ مجددًا، أرادت رؤية حقيقة العمل المريب لبلال بأمّ عينها، والمصدر الغريب لذلك المال؟ فرجعت إلى ذلك المكان وحاولت الاقتراب أكثر هذه المرة.. لكنّ الفأس على الرأس قد وقع.

ضربها أحدهم من خلفها وخدَّرها لاعتقاده بأنّها شرطية متخفية، وجدت نفسها مربوطة ومُكمَّمة بقطعة قماش تفوح منها رائحة الكحول، ففهمت أنّها فقدت الوعي..

لم تمض ساعة إلاّ وقد حضر بلال في توقيته المعتاد. دخل المكان متثاقلًا، لكنَّه سرعان ما غير من إيقاع خطواته لما شاهد أخته مكبلة تحاول الصراخ! فزع كثيرًا وركض إليها ونزع قطعة القماش من فمها، وقال: هل أنت بخير؟ هل آذوكِ؟

ردت وهي ترتجف خوفًا: أنا بخير.. لكن من هؤلاء؟ ما هذا الذي ورطت نفسك فيه يا بلال؟

اقترب منه زعيم العصابة الذي يلقب نفسه «بابلو الوهراني» وقال: هل تعرفها يا بلال؟

لم يستطع بلال الوقوف على قدميه، جثا على ركبتيه وأخذ يترجى الزعيم لإطلاق سراحها فهي أخته، فرَدَّ عليه: هل هي من الشرطة؟ فعقب بلال: لا، لاااا.. أقسم بروحي أنها مجرد فتاة ريفية لا غير..

أخذ الزعيم يفكر ثم أخرج خِنجرًا وأدناه من عنقها، وقال: ليس لدي خيار آخر سوى قتلها! لن أخاطر بكشف هذا المكان أبدًا.

بدأ بلال حينها يتضرع إليه ويقبّل حذاءه.. وعائشة تبكي وتصرخ!

قال الزعيم بغضب: اصمتي وإلا قطعت حبال صوتك يا فتاة!

الجو مكهرب، أي خطأ سيودي بحياة عائشة، وإن لم يجد بلال حجة يقنع بها الزعيم ستكون النهاية كارثية..

قام بلال وأخبر بابلو أنه يريد محادثته على انفراد.. لم يكن مدركًا ماذا سيقول؟ أراد فقط كسب بعض الوقت.. ذهبوا نحو إحدى الزوايا، لكنّ بلال لم يستطع الكلام حتى اشتد غضب الزعيم ووضع السكين على عنقه وأخبره أن يتكلم وإلا نحرهما معًا، هناك خرجت منه الكلمات متتابعة كأن ذلك نشط عقله وقال: سأكون عبدك. سأفعل أي شيء يا بابلو. لن أتقاضى بعد اليوم شيئًا فقط اتركها تذهب فهي لا تعلم شيئًا، ولم أخبرها أنني أوزع المخدرات! أعدك أنَّها لن تتفوه بأي شيء.. أرجوك لا تقتلها!

أخذ الزعيم يفكر.. لحسن حظ بلال أنّه أثبت نفسه وبراعته في العمل، كان جيدًا جدًّا وجديرًا بالثقة، حتى أصبح من المقرّبين للمروج بابلو الوهراني المشهور.. هذا ما جعل هذا الأخير يقرر منحه هذه الفرصة.

وقال: إن حدث شيء ما أو خنت جانبك من الاتفاق سآتي إلى منزلك وأقتل الجميع! هل هذا واضح؟

رد بلال: واضح.. واضح يا زعيم، أعدك لن يحدث شيء أبدًا.. شكرًا لك.

ركض نحو عائشة وفك قيودها واحتضنها وهو يبكي، طلب الزعيم من أحدهم إيصالهما بعيدًا عن المكان. من هناك رجع بلال وأخته إلى المنزل..

لم تستطع عائشة التوقف عن البكاء، كانت تجربة رهيبة مرت بها، جعلتها تبقى في حالة شرود مدة أسبوع دون كلام أو إيماء.. دون أكل أو شرب، حتى ازدادت حالتها سوءًا ونُقلَت إلى المستشفى..

اعتنَوا بحالتها الجسدية، لكنّ عقلها لم يحتمل كلّ ما مرت به في حياتها، كلّ تلك المصائب التي أتت تباعًا وعاثت فسادًا في رأسها.. كانت صدمة للجميع.

امتلأت ذات بلال غضبًا. اشتعلت الرغبة في الانتقام داخله كالنار التي لا تبقي ولا تذر..

أخبره الأطباء بتضرر دماغها لمعايشتها ظرفًا قاسيًا وهذا ما يسمى في علم النفس باضطراب ما بعد الصدمة؛ إذ يفقد الدماغ بعض قدراته العصبية، ويحجب عن صاحبه الحدث الذي سبب له ذلك الضرر لمدة من الزمن أو قد يكون ذلك دائمًا، ربما لن تستطيع عائشة تذكُّر ما حدث لها مؤخرًا، وقد تفقد قدرتها على الكلام أيضًا!

قطرةٌ أفاضت كأس الصبر، خرج بلال مسرعًا وتوجه نحو مخبأ العصابة.. بحث عن الزعيم لكنّه لم يجده، أخبروه أنّه سافر مع زوجته خارج البلاد! ولن يعودا إلا بعد شهر من الآن..

فكر بلال ورأى في هذا الموقف ابتسام القدر له، فالغضب لا ينجب إلاّ الندامة ويعمي صاحبه عن عواقب أفعاله عدا أن زعيم العصابة لن يكون رحيمًا به بعد تلك الحادثة..

غزت فكرة الانتقام ذهنه وانشغل بترتيب أموره والتخطيط لكلّ شيء قبل رجوع الزعيم، وبما أنَّه امتلك ثقته من قبل سيكون سهلًا عليه الاقتراب منه..

- هل سيقتله يا خديجة؟
- لو كنتَ مكانه ما عساك أن تفعل يا معاذ؟
- لو فعل أحدهم بأختي ذلك سأشرب دمه وهو يشاهد!
- يا إلهي! من أين لك كلّ هذا العنف؟
- لا أعلم، لكنّ أي أحد قد يفعل أشياء كهذه من أجل من يحب.. الحب يا خديجة يكشف عن أشياء دفينة لا ندري وجودها في باطننا، أحيانًا تتملكني رغبة في اقتلاع أعين أولئك الحمقى الذين ينظرون إليكِ! أو قطع ألسن الذين يقولون لكِ صباح الخير أستاذة!

الحب يجعلنا عنيفين يا حبيبتي إذا حدث وتأذى شخص عزيز على قلوبنا، الحب يمرجحنا بين الخير والشر، لكنّ الأهم يا خديجة ألا يرى من تحبه أنك تعاني من ذلك..

- أراك طيبًا يا معاذ، حتى لو فعلت أشياءَ سيئة لن تتغير نظرتي إليك، أحيانًا تجبرنا الحياة على ذلك، لكنّها ليست حقيقتنا أبدًا، ولا يجب على الآخرين الحكم علينا من أمور نفعلها في حالة الانكسار والألم. بالأحرى، ليس لهم الحق

بالحكم علينا أبدًا، ولا محاسبتنا على أفعالنا كلها، يجب أن يهتم كلّ بشر بذاته أولًا، فإن تمكن من ترويضها على الخير، فعل ذلك مع من هم أقرب منه، أولئك الذين سيُسأل عنهم غدًا.

- أشاطرك الرأي يا خديجة، لكنك ستخسرين عملك محاميةً إذا اختار كلّ الناس فعل الخير.. ستندثر الجرائم وشهادات الزور وقضاياك. ستكون الحياة جميلة، أليس كذلك؟
- لا أظن أنها ستكون جميلة، لا بد من وجود الخير والشر، تمامًا كحاجتنا لوجود النور والظلام، هي حكمة إلهية من أجلها خلقت الجنة والنار، أمّا نحن يا معاذ فمطالبون بأن نكون بشرًا لا ملائكة!

أظنك تعرف الكاتب والشاعر اللبناني جبران خليل جبران أو قد سمعت به يومًا، يحضرني مقطع من رائعته «المواكب»:

الخيرُ في الناسِ مصنوعٌ إذا جُبروا.. والشرُّ في الناس لا يفنى وإن قُبروا.[2]

الشر جزء لا يتجزأ من النفس الإنسانية، والخير ما هو إلا وليد المصلحة، إذا احتاجه المرء استدعاه!

تعددت الآراء والمعتقدات بين الكتاب والفلاسفة، بعضهم قال بحقيقة المزيج بين الخير والشر، وآخرون رجّحوا غلبة الشر على الخير في النفس البشرية يا معاذ.

وقرأت يومًا كلامًا طيبًا نُقش في ذاكرتي للإمام ابن القيم -رحمه الله- في كتابه «شفاء العليل في أحكام القضاء والقدر والحكمة والتعليل» ومنه:

«إن الشر الذي خلقه الله خلقه لحكمة فكان إيجاده خيرًا، ولأنه شر نسبي إضافي مغمور بجوار الخير الراجح من خلقه يترتب عليه خير كثير وحكمة عظيمة، كمرارة الدواء خير لا شر في الحقيقة».[3]

وكما سمعت يا معاذ، وجود الخير والشر مرتبط لحكمة إلهية، ولا يمكن أيضًا للإنسان أن يكون صاحب خير فقط، فلا سلامة من الوقوع في المعصية مهما استقمنا على الطريق الصحيح، لكننا مطالبون بالتوبة يا معاذ، أن نكون أوّابين بعد كلّ عمل شيطاني، أن نكثر من الاستغفار بعد كلّ ذنب، أن نقف بعد كلّ سقوط في شباك الهوى.

- حسنًا يا مفتية يكفي مواعظ، أخبريني الآن ما الذي حدث بعد ذلك مع بلال؟
- بعد تفكير أكل راحة باله، قرر بلال أن يضع حدًّا لحياة من كان سببًا في معاناة أخته عائشة؛ فاشترى مسدسًا من السوق السوداء بعد عناء طويل وجهد مضنٍ، دفع من أجله مبلغا طائلًا. تدرب على استعماله كثيرًا حتى لا يخطئ هدفه، وفي المقابل بقي محافظًا على عهده بالعمل، تجنبًا لأية شكوك قد تفقده فرصته الوحيدة في الانتقام!

[2] قصيدة المواكب، جريدة الأهالي، ماي 1919.

[3] كتاب شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، الباب الحادي والعشرون: في تنزيه القضاء الإلهي عن الشر ودخوله في المقضي.

كانت عادة الزعيم أن يطلب حضور بلال بعد كلّ سفر ليطلعه على تطور العمل في الأيام الفارطة، وهي اللحظة الوحيدة التي يكونان فيها على انفراد داخل منزل الزعيم.

بعد أيام من الانتظار الذي كاد يُفقد بلال أعصابه، رجع الزعيم أخيرًا، استعد بلال للقائه وعبَّأ المسدس وتأكَّد من سلامته، وأخفاه لأنَّهم يفتشونه عند باب المنزل..

لكنّ المفاجأة كانت صادمة لبلال، لم يطلب الزعيم قدومه، واختار شخصًا آخر!

تبخر كلّ شيء خطط له، ولم يجد شيئًا يوقف به غضبه، ولا قوة تمكنه من التظاهر بالولاء أكثر من ذلك، لكنّه أدرك أخيرًا أنه كان على خطأ.. فبموت الزعيم لن ينتهي كلّ شيء، لن تخمد النار داخله، يجب أن يجعله يعاني كما عانى هو، أن يؤذي أحب الناس إليه.. زوجته!

لم تكن معروفة للجميع، لم يرَها أحد من قبل لأنها لا تحضر أي اجتماع، لكنّه سمع بعض الإشاعات عنها، قيل إنها الرأس المدبر لكلّ شيء، وقيل أيضًا أنه مجنون بها، لذلك سيكون ألمه أشدَّ في أذيتها..

أخذ بلال يبحث عن طريقة لمقابلة الزعيم في منزله، لكنّه لم يجد سبيلًا لذلك، وبينما هو منشغل بالانتقام كانت حالة عائشة تزداد سوءًا، أصبحت تصرخ مستيقظة من نومها كلّ يوم، تصرخ كأن أحدًا يحاول أذيتها، ولا تسمح لأحد بالاقتراب منها. تجلس في زاوية الغرفة ضامة ركبتيها إلى رأسها وتحرك جسمها.. كانت مخيفة جدًّا، أفزعت حالها تلك مريم التي كلما رأتها أجهشت بالبكاء.

قرر بلال أخذها إلى مصحة عقلية خوفًا من إيذاء نفسها أو غيرها ممن كان في المنزل، لكنها لم ترد الذهاب، قاومت حتى خدروها.

بعد أيام أتاهم خبر هز قلوبهم، وجعل بلال يفقد أعصابه؛ انتحرت عائشة داخل غرفتها، شنقت نفسها بملاءة السرير!

- لقد اغرورقت عيناكِ يا حبيبتي، قلبك طيب جدًّا، لهذا أحبك، لكن ظني يخبرني أن عائشة فعلت ما اقتضته حالتها البائسة، فليس هينًا أن تملأ ظهرك سهام غادرة من الحياة ولا تسقط أرضًا، فلكلِّ بشر طاقة صبر محدودة، بعد نفادها يصبح التنفس عبئًا لا يُحتمَل، ويصبح العيش مؤلمًا حد الاختناق، تتقلب الموازين حينها ويبحث ذاك الذي كُلِّف ما لا يسع عن راحة لنفسه ولا يجدها إلا في الموت..
- لكنّه مفر الجبناء يا معاذ، فقتل النفس ليس حرية لكلّ من أراد ذلك، قتل النفس جريمة في حد ذاتها، النفس ثمينة عند خالقها ولا يُكلِّف الله نفسًا إلا وسعها يا معاذ، قد يفقد أحدنا صبره ولا يحتمل، لكن إن كان إيمانه بالله قويًّا لا تحركه عواصف المحن، سيجد النور وسط ذلك الظلام الحالك، سيبصر رحمة الله عندما تضيق عليه الأرض بما رحبت،

فالله لا يترك عبده إلا إذا أعرض العبد عن ربه إعراضًا ليس بعده توبة.. الله لطيف بالعباد يا معاذ.. ألم تقرأ قوله سبحانه في كتابه الكريم: (وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا)[4]

- كان يجب أن تصبحي إمامًا لا محامية..
- كفاك سخرية يا معاذ..
- لست أهزأُ بكِ، فقط أردت رؤية هذه الابتسامة الساحرة على وجهك الجميل. وفي الحقيقة كنت أشيد بكِ..
- قرأت البعض من الكتب الدينية يا معاذ، جميل أن تكون على دراية بأمور الآخرة، «فإن الله يُبغِض كلّ عالم بالدنيا جاهل بالآخرة.»[5]

ولا يقع الجهل بالمرء إلا إذا كان لا يبحث ولا يتساءل عن أمور دينه وآخرته، فكان واجبًا على كلّ مسلم قراءة ما تيسر له من الكتب وغيرها، ويكون مُلمًا بتحصيل العلم النافع، ولا يقرأ المرء كلّ ما يُكتب فمن الكتابة ما هو نافع للمرء وكثير منها لا حاجة له بها، ولا يعني هذا عدم الالتفات لها نهائيًا، لكنّ الأَوْلى دائمًا يرجع لأمور الدين والآخرة، لما في ذلك من خير كثير.

- إذًا سأبدأ في التفقُّه -إن شاء الله- لا أريد أن يمقتني الله وألّا أكون إلى جانبك في الجنة..
- بدأت تصبح حليمًا يا معاذ.
- ويعود الفضل إليك يا خديجة. أخبريني الآن كيف كانت ردة فعل بلال بعد ما حدث؟

بعد انتحار عائشة، لم يعد الانتظار مفيدًا لبلال. أسرع بالذهاب لبيت الزعيم ومعه المسدس، لم يُسمح له بالمرور فأثار ضجة كبيرة أمام المنزل. أخبر مساعد بابلو -أو ما يلقب بيده اليمنى- أن يعلمه بأنه أمر مستعجل عن أخته والمكان!

ارتبك الزعيم وظن أنّ مستودع مخدراته سيُكشَف وتنتهي تجارته التي دامت عقودًا من الزمن؛ فطلب إدخال بلال بسرعة.

لم يفتشه سهوًا منه بسبب التوتر الشديد الذي تعمد إحداثه بلال..

عندما دخل عليه وجده قَلِقًا يجوب الغرفة ذهابًا وإيابًا، توقف وقال لبلال:

هل فقدت السيطرة على أختك يا غبي؟ هل ذهبت إلى الشرطة؟ أخبرني..

ظل بلال صامتًا، بدأ غضبه يظهر على عيونه التي أخذت في الاحمرار وامتلأت دموعًا حاول حبسها، وقال له:

- لقد قتلت أختي أيها الكلب!

[4] الآية 29 من سورة النساء.

[5] صحيح الجامع للألباني، رقم 1879.

تفاجأ الزعيم من كلمات بلال، وطلب منه الهدوء، فكلامه ليس منطقيًا! في تلك اللحظة نزل بلال نحو حذائه وأخرج المسدس وأطلق عليه رصاصة نحو كتفه! وقال:

- أين هي زوجتك؟

في تلك اللحظة فُتح باب الغرفة المقابلة، خرجت الزوجة مسرعة لما سمعت صوت إطلاق النار.. لم ينتظر بلال أبدًا وأطلق عليها رصاصتين، أصابت إحداهما كبدها والأخرى جانَبَتْ قلبها!

ذهب بلال نحوها وكانت الصدمة!

جثا على ركبتيه ناظرًا نحوها في ذهول وسقط من يده المسدس..

نظرت إليه وهي تنزف، عرفته وقالت بصوت متقطّع: ب ل ا ل!

دخل المساعد حينها مشهرًا سكينا قاصدا قتل بلال بها، لكن الزعيم صرخ طالبا منه إعفاءه من الموت السريع وأن يتركه حيًّا ليذيقه مرارة التعذيب، فضربه على رأسه وأفقده وعيه.

أمر الزعيم مساعده بحمل زوجته إلى المستشفى بسرعة، ونظرة الخوف في عينيه، لأنه يدرك أنه سيُقبض عليه حين تبدأ الشرطة التحقيق في القضية، لكنّه أصر على ذلك لأنه إن فقدها لن تصبح لحياته معنى، ستكون حريته ظلمة عليه من دونها..

قبل خروجهم أتت الشرطة إلى بيت الزعيم، كان بلال قد اتصل بهم قُبيْل دخوله إلى المنزل، لأنه أدرك أنه لن ينجو من فعلته حتى لو خرج حيًّا من هناك، ولن يخاطر بما تبقى له من أهله بترك أولئك الأشرار يجوبون الأرض أحرارًا، ضحَّى بنفسه كي تعيش أخته مريم وزوجته والخالة منيرة في أمان.

بسبب التأخير الذي أحدثته الشرطة لم تتمكن أم بلال من النجاة وتوفّت على متن سيارة الاسعاف في طريقها إلى المستشفى.. ماتت معها القصة الحقيقية كما دُفنت مع العم موسى.

اتهم بلال بالقتل العمدي، لكنّ عقوبته خففت بعض الشيء لأنه ساعد في القبض على مروج المخدرات «بابلو الوهراني» الذي كان يدير عملياته جيدًا ولم يترك يومًا أثرًا يقود إليه مباشرة.

- كيف انتهى بأم بلال المطاف زوجة للزعيم يا خديجة؟
- لا أحد علم الحقيقة، وُورِي عليها التراب ولم يرد بلال التنقيب عنها، ترك المياه تجري في مجراها وأغلق الكتاب.. لكن أظن أنها كانت خيانة زوجية، أظنها تعبت من حياة الريف، من عذاب الفقر، ومن كلّ التضحيات التي بذلتها كي يكبر أبناؤها..

- هل تدافعين عنها؟

- ليس دفاعًا عنها، بل تحليلًا لحالتها، أخبرتك سابقا أنَّه لا يجب الحكم على الناس من أفعالهم، هي فعلت ما رأته مناسبًا لها، قد يكون خطأ لكنّه في نظرها كان صوابًا، فأحيانًا يكون اختيار رفيق الدرب صعبًا، لم يكن العم موسى محظوظًا كحالك يا معاذ، الزواج شيء عظيم، ومن علامات حب الله لعبده أن يرزقه زوجة تحبه.

- إذن العم موسى..

- توقف يا معاذ، لا تكن نظرتك للأشياء ضيقة، وفهمك للكلام محدودًا، قلت لك من علامات، وليست مجرد علامة، ألا تعرف أيضًا أنه إذا أحب الله عبدًا ابتلاه، وعظمُ الجزاء مع عظم البلاء!

كان ابتلاء العم موسى في زوجته، وقد اجتازه بقلب شاكر، لأنه لم يحدِّث به أحدًا وصبر عليه، حتى أبناءه تحمل عنهم ذلك العبء الثقيل ولم يُردهم كره أمهم.. كانت نيته حسنة، لكنّه ليس محقًّا كليًّا، فكلّ قرار يتخذه أحدنا في حالة ما يظهر لنا أنه عين الصواب. أحيانًا تختلف وجهات النظر باختلاف زاوية الرؤية، لكنّ ذلك ليس سببًا لندخل في جدال عقيم لا طائل منه..

- أنت محقة، والآن أخبريني عن مآل بقية الأهل بعد دخول بلال السجن؟

بعد تلك الحادثة، استيقظ بلال في المستشفى، وجد نفسه مكبلًا. فبدل أن ينزعج ارتاحت نفسه، علم حينها أنَّ الشرطة قد قدِمت إلى منزل الزعيم، وتذكر أمه!

غزت الأسئلة تفكيره: أي مصادفة تلك؟ وكيف ساقه القدر ليكون صاحب السوط وجلاد أمه عقابًا لها على خيانة أبيه؟ حاول تركيب قطع الأحجية ليجد لها عذرًا، لكنها دائمًا تشكلت في أمر واحد، الخيانة!

قدمت مريم لزيارته ومعها زوجته والخالة منيرة قبل أخذه لقسم الشرطة، حيث سينتظر محاكمته ليُعلن عن العقوبة.. كان الجميع حزينا خاصة أن جنازة عائشة ما تزال تنتظر.. كانت مريم قد بدأت تستوعب الحياة وتعي حقيقة الأشياء من حولها، صعدت فوق بلال واحتضنته. على الرغم من أنه كان يتألم من أثر تلك الضربة على رأسه إلا أنه تركها تعانقه بشدة وحاول لف أيديه عليها لكنّه نسي أنه مكبل! هناك فقد السيطرة وانفجر باكيًا كطفل صغير، وأصبحت الغرفة مأتمًا حينها، الكلّ يبكي بحرقة! حتى ذلك الحارس الواقف على الباب غلبته عيناهُ من حزن الموقف!

هكذا نحن البشر طيبون جدًّا وعلى الخير جُبلنا، تبكينا دموع غيرنا، تحزننا وجوه أولئك البائسين، وتؤثر فينا مصائب ليس لنا منها نصيب.. لكننا لم نحافظ على طبيعتنا البيضاء تلك، فبعد كلّ شر نقترفه ونتمادى في فعله يقع فيها كُنُكْتَة سوداء، ويومًا بعد يوم يصبح البياض ظلمة تأكل كلّ ذلك الخير داخلنا.. فلا نصبح بشرًا بعدها!

- فعلت أشياء سيئة كثيرة في حياتي يا خديجة، لكنني طالما ندمت بعد فعلها مباشرة وأتمنى حينها لو أنني لم أفعلها، هل هذا يعني أن طبيعتي أصبحت سوداء من كلّ ذلك السوء؟
- لا يا معاذ، الندم بعد فعل الذنب دليل على حياة القلب، أبشر فأنت ما زلت بشرًا، لكنك تحتاج أن تطهر نفسك وفؤادك كي تلقى الله بقلب سليم.
- وكيف السبيل إلى تطهير القلب في الدنيا يا حبيبتي؟
- ليس بأمر هين يا معاذ، أولًا يجب رد المظالم إلى أهلها؛ أي إن كنت أسأت لأحد يومًا بكلمة أو فعل يجب أن تتحَلَّله منه، طالبًا غفرانه اليوم قبل جلسة بينك وبينه غدًا أمام قاضي القضاة.. فالله عز وجل قد يغفر لك ذنوبك في حقه كتقصيرك في الصلاة وغيرها، لكنّه يحكم بالعدل عندما يصل الأمر إلى حقوق العباد، لن تنفعك توبتك في هذا الأمر، بل سيؤخذ من حسناتك قدر المظلمة، وإن حدث وانتهت سيُحمل عليك من سيئاته يا معاذ.. لذا كي نسلم من هذا الأمر وجب علينا طلب العفو من أولئك الذين آذينا.
- ماذا لو طلبنا العفو منهم ولم يغفروا؟
- الله لطيف بالعباد يا معاذ، إن رأى منك صدقا في طلب العفو وندما على ما فات سيجازيك خيرًا عليه، حتى لو اقتصّ منك صاحب المظلمة غدًا، سيجبر خاطرك رب العزة بعفوه عنك..
- لكنّه أمر مرهق يا خديجة ذلك البحث عن كلّ شخص آذيته، وإهانة النفس أمامه من أجل عفوه..
- هنا تكمن الحكمة يا معاذ، كي نهذب أنفسنا ونروضها على الخير، فيصبح بعدها فعل السوء مشقة وثقلًا لن تحتمله.. أخبرتك أن الأمر ليس هينًا لكنّه يستحق كلّ تلك المعاناة كي نجد الراحة يوم لا ينفع دينار ولا درهم.
- هل ينفعني حبك يومها يا خديجة؟
- المرء مع من أحب يا معاذ، أحبّ الصالحين تكن معهم.. ذاك الأمل الوحيد الذي تبقى لبلال بعد كلّ ما فعل، كان يحب أبيه، وقد شهد على صلاح العم موسى أهله وجيرانه فعسى الله أن يجمعهم في جنته.

بعد ذلك كلّه دخل بلال السجن ليقضي عقوبته تاركًا وراءه زوجته وأخته مريم، والخالة منيرة التي فارقت الحياة بعد سنة.. لم تحتمل شيماء كلّ ذلك وطلبت الطلاق من بلال، كانت ستكون عشرين سنة من الانتظار متعبة لها، أدرك بلال ذلك جيدًا، هذا ما جعله يمنحها فرصة أخرى لتعيش حياة سعيدة مع غيره.. أمّا مريم فقد تكفلت بها دار الأيتام، أكملت دراستها وتفوقت، ولما اشتد ساعدها رجعت إلى المنزل الذي اشتراه بلال آنذاك، ومن هناك أكملت حياتها حاملة معها ألم الماضي، ومنتظرة بفارغ الصبر خروج أخيها بلال من السجن.

- قصة حزينة جدًّا يا خديجة، لكن كيف علمت كلّ تلك التفاصيل؟

هل استلمت قضية بلال وأنت تدافعين عنه الآن؟

تكلمي، لماذا أنت صامتة وتنظرين إليّ هكذا؟

ما بكِ حبيبتي؟

- حدث كلّ هذا قبل عشرين سنة يا معاذ.. لم يكن اسم الفتاة الصغيرة «مريم» بل كان «خد..»
- خديجة!

النهاية

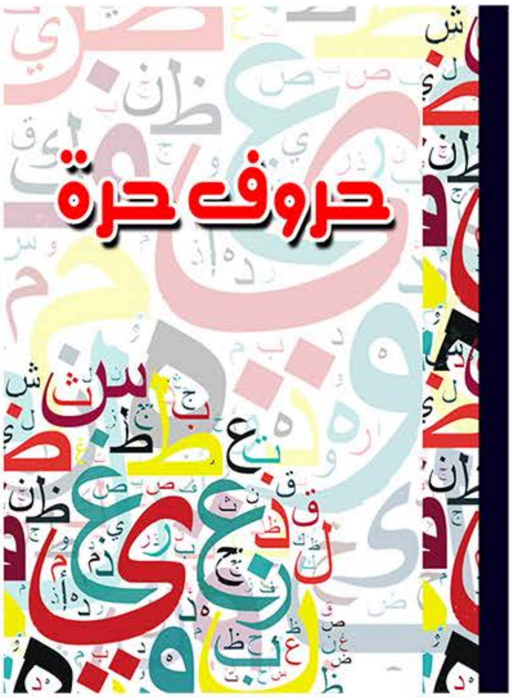

يمثل هذا الكتاب أحد أهم مخرجات مسابقة حروف حرة لكتابة القصة القصيرة والموجهة للمؤلفين الجدد في مختلف الفئات العمرية -التي نظمتها مبادرة ض في عام 2020. حيث شارك في المسابقة المئات من المؤلفين الجدد من داخل وخارج الوطن العربي، ويحوي الكتاب القصص التي حصلت على أعلى علامات لجنة التحكيم المختصة.

تهدف مبادرة ض بهذا الإصدار إلى تشجيع المؤلفين الجدد وتعريف جمهور القراء العربي بهم، وتتيح الرخصة القانونية التي وضعتها المبادرة للقراء الاستفادة من الكتاب المتنوع ونشره للأغراض غير التجارية، حيث تبقى الحقوق التجارية ملكا للمؤلفين أنفسهم.

«قيمة الإنسان هي ما يضيفه إلى الحياة بين ميلاده وموته ... مصطفى محمود»

DADD-INITIATIVE e.V.

INITIATIV & AKTIV

CC BY NC ND